

**THE BOOK WAS
DRENCHED**

UNIVERSAL
LIBRARY

OU_190162

UNIVERSAL
LIBRARY

ناتج

عَمْرُو بْنُ الْعَاصِ

✽ تأليف ✽

حسن زهير
دكتور في الآداب

« وهي الرسالة التي تقدم بها الى الجامعة المصرية وبوقش فيها »
« وفي غيرها من المسائل في ٦ مايو سنة ١٩٢١ م ، ونال بها »
« منها شهادة العالمية ولقب دكتور في الآداب »

✽ الطبعة الأولى ✽

حقوق الطبع محفوظة للمؤلف

يطلب من المكتبة التجارية بأول شارع محمد علي
أمام سوق الخضار بمصر
ومكتبة المؤيد بشارع محمد علي بمصر

الثلث عشرون قرشاً

١٣٤٠ هـ - ١٩٢٢ م

مطبعة السعدون وكبار حاشية بمصر

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ



المقدمة

إلى أبناء وطني العزيز ، وإلى الناطقين بالضاد ، وإلى الشرقيين عامة ، أتقدم بهذه الرسالة ، وهي صدقة من صحائف البطولة ، وتاريخ بطل من أبطال الشرق ، وقائد من قواد الأسلام ، لا يقل أهمية عن « نابليون » و « بسمارك » وغيرهما من قواد الغرب وساستهم ، أتقدم إليهم بتاريخ رجل لو كان منبته الغرب ، لما رأيت بين الغربيين إلامترئافيسالته معجبا بشجاعته ، متفاخرا بدهائه وحكيم سياسته .

ما أحوج الشرق والشرقيين إلى تخليد ذكرى أبطالهم وتدوين آثار عظمائهم ليتوارثها الخلف عن السلف ، ولتظل كمرآة يقرءون فيها المثابة وحب العمل ، وكنبراس يصرع ساطع نوره ما يعلق بحفونهم من الكرى وينير شديد ضيائه لهم الطريق - ألا ترى القوم في أوروبا وأمريكا يتبادلون في أعيادهم وأفراحهم سير أبطالهم وتواريخ عظمائهم موشاة بالذهب ومكسوة بالحرير ؟

هذا ما خالج نفسي عند ما جلست للتفكير في وضع رسالة أتقدم بها إلى الجامعة المصرية لنيل شهادة « الدكتوراه في الآداب » ، عقب نجاحي في

امتحان « اللسانس في الآداب » ، فرأيتُ في عمرو بن العاص ما يصرف المؤرخ إلى تدوين ذكره وآثاره ، رأيت فيه بطلاً من أبطال العرب ، وصورة من صور حركة الانتقال من الوثنية إلى الإسلام ، وهادياً من هداة الدين والعاملين على نشره في كثير من البلدان ، ورجلاً فذاً من الرجال القليلين الذين لا يجود بهم الدهر إلا نادراً ، وهبه الله عقلاً راجحاً ، وأُتار بصيرته بنور الإسلام ، قام بأعماله الجليلة بهمة لا تعرف للملل سبيلاً تلك المهمة التي ثلت عروش القياصرة وقضت على آمال القواد العظام ، وحار أمامها ذكاء مشهورى الرجال وأقطاب السياسة . ورأيتُ له فوق ذلك صلة كبيرة بمصر والمصريين ، فهو أول أمير مسلم ولى مصر بعد أن قضى على دولة الروم فيها ، وأتى على الفتن والقلاقل بها ، ورفع عن كاهل المصريين نير الروم وظلمهم ، فكان عهده أول عهد الحضارة الإسلامية التي رُفرت على ربوع البلاد قاصيها ودانيها ، فتوطدت دعائم الأمن وساد السلام ، وتألّفت بحسن سياسته قلوب مختلف السكان .

ولكن لم يكن كل ذلك لينسيني عظيم المهمة وكبير المسؤولية التي أثقل بها كاهلى ، فالمؤرخ مسئول أمام محكمة التاريخ في كل العصور حاضرها ومستقبلها ، ثم إن وضع تاريخ رجل كم عمرو يتطلب درس العصر الذى عاش فيه : وهو عصر متراعى الأطراف بعيد المدى طويل الأمد ، ويستدعى الأمام بحال الأمة العربية من قبيل بعثة النبي صلى الله عليه وسلم إلى وفاته ، ثم من عهد الخلفاء الراشدين إلى أوائل الدولة الأموية ، ليتبين ما قام به عمرو من جليل الأعمال ، من اشتراكه في غزوات النبي صلى الله عليه وسلم ،

وتوليته الصدقة بعمان ، واشترأكه في حروب الردة، وفتح الشام وفلسطين ومصر وطرابلس في عهد أبي بكر وعمر ، وسياسته مع عثمان وعلى ومعاوية، ولكنى أقدمت يدفعنى حب البحث والاستطلاع ، ثم ميلى لأمانة اللثام عن مسائل نسبها إلى عمرو كثير من المؤرخين ، ولكنهم لم يدلوا لنا بحكمهم الصريح فيها ، أو رأيهم المقنع لتطمئن له النفس ويستريح له الفؤاد ، فكم تضاربت الأقوال في نسبة حريق مكتبة الأسكندرية إلى عمرو ، وكم اختلف المؤرخون في تدخله في الخلاف الذى كان بين على ومعاوية ، وفي صلته بالمقوقس .

وما زلت انتقل في بطون التاريخ غائصاً في بحار أخبار عمرو ، تارة في كتب العرب وطوراً في كتب الفرنجة والمستشرقين ، على أهدى بعد طويل البحث والتنقيب إلى شوارد من أخباره وشتات من آثاره ، ولا أزال أعمل فيها الفكر والعقل كي أجمعها في عقد مكين ، وكنت في كل ذلك أذرع بالصبر والتؤدة وأستمين بمواصلة الاستقراء . فعسى أن أكون قد وفيت عمراً حقه مما كاد أن تعفيه يد الدهر ويطمس معالمه كرسى السنين ، وعسى أن أكون قد وفيت التاريخ بعض حقه بأثبات ذكر بطل من أبطاله .

ولا يفوتنى أن أسدي جزيل شكرى إلى كل من حضرات أساتذتى الأجلاء : حضرة صاحب العزة إسماعيل رافت بك، والدكتور طه حسين ، والشيخ عبد الوهاب النجار ، والشيخ محمد الخضرى بك ، لما قاموا لى به من المساعدات الجليلة - وكذا إلى كل من حضرتى الأستاذين يوسف أفندى

أحمد ، المفتش بلجنة حفظ الآثار العربية بوزارة الأوقاف ، والشيخ محمد مختار يونس ، المدرس بمدرسة البنات الثانوية بالقاهرة .

وقبل أن أختم كلمتي يجدر بي أن أذكر شيئاً يسيراً عما تؤديه الجامعة المصرية من الخدمات الجليلة للعلم والمتعلمين ، وهو أمر يحمله الكثيرون من الناس ، حتى أن بعضهم يزعم أن الحصول على شهادة « الدكتوراه » أمر يسير لا يتطلب سوى الانتساب إلى كلية الآداب وكفى - وهذا غير صحيح - لأنه لو كان لهذا الزعم أثر من الصحة ، لأصبح من السهل جداً الحصول على هذه الشهادة ، ولما رأينا عدد الحائزين لها من القلة والندرة بهذا القدر ، ذلك لأن مجرد الانتساب لا ينيل شهادة الدكتوراه ، هذا إذا كان الالتحاق بالجامعة أمراً سهلاً ، مع أنه لا بد أن يكون الطالب حائزاً لشهادة الدراسة الثانوية قسم ثان أو ما يعادلها - فأن الطالب يتلقى آداب اللغة العربية وتاريخها ، وتاريخ آداب اللغة الإنجليزية أو الفرنسية ، وتاريخ الأمم الإسلامية ، وتاريخ الشرق القديم ، والجغرافيا وعلم وصف الشعوب ، والفلسفة العربية وعلم الأخلاق ، والفلسفة العامة وتاريخها ، ومقارنة الآداب واللغات السامية - ولا يجوز له أن يتقدم للامتحانات التحريرية والشفوية لأجزة « اللسانس » إلا في نهاية السنة الثالثة بعد نجاحه في كل هذه المواد بنسبة « ستين في المائة » على الأقل في السنتين الأولى والثانية .

بعدئذ يستطيع أن يختار لنفسه مبحثاً يكون موضوع رسالة يكتبها ويتقدم بها لامتحان « الدكتوراه » لو رأت الجامعة صلاحيتها لذلك مبدئياً ،

وحينئذ تناقشه حسابها لجنة من أساتذة الجامعة، ينتظم في عقدها مندوبان من قبل وزارة المعارف العمومية - ويكون قد سبق لهؤلاء المتحنيين فحصها - على مرأى من الجمهور ومسمع ، وتناقشه أيضاً في موضوعين من بين ثلاثة موضوعات في ثلاث من المواد التي تدرس بقسم الآداب .

وينبغي أن يفهم أيضاً أن الأمر غير قاصر على سماع محاضرة الأستاذ فحسب ، بل هو عكس ذلك ، فما الأستاذ بمحاضره إلا كمرشد للطالب يدلّه على طرق البحث والتنقيب ، وذلك ما ترى إليه الجامعة (ككل الجامعات) من تثقيف عقل الطالب وتنمية مداركه ، ليستطيع كشف ما غمض من أسرار المسائل وما خفي من المعضلات . على أن ما يتلقاه الطالب بقسم الآداب بالجامعة لا يقل عما يتلقاه أى طالب آخر من الآداب في جامعات أوروبا وأمريكا . هذه حقيقة يجب الاعتراف بها ، ويجب أن لا يبخس حقها .

ولكن هل في الجامعة المصرية أقسام نظامية غير قسم الآداب ؟ وهل تدرس بها تلك العلوم الهامة الضرورية لترقية شأن مصر من فلك وطب وهندسة وسياسة وتربية واقتصاد وتشريع وكيمياء ؟ وهل لها من بين متخرجيها بعوث في مختلف الممالك المتمدينة لدراسة طرق التمدن والحضارة ، وللتخصص في العلوم الراقية لتستعين بأفرادها على نشرها في مصر ؟ كل هذه أسئلة يحسن الأجابة عليها أغنياءنا الكرام ، أصحاب الغنى الطائل والثراء ، وذوو العقل والمفكرون في البلاد !! تلك أسئلة تعقد اللسان خجلاً وتذيب القلب أسي ، وتفتت الكبد حزناً وغماً . نعم سيجيبون عليها

بالصمت الطويل ، ولكن هاكم الجواب :

تقول جريدة « الديلي ميل » الانجليزية في تقويمها عن سنة ١٩١٥م ما نصه : « إن الأهمية العظمى التي يظهر أثرها في التعليم بالولايات المتحدة إنما ترجع إلى ما يصرف عليه سنوياً من الأموال التي بلغت في سنة ١٩١٥ « مائة مليون من الجنيهات » منها « نيف واثان وعشرون مليوناً » تبرع بها المحسنون ومحبو العلم على جامعات كولومبيا وهارفارد وكورنل وشيكاغو وويل وستاتفورد »

وتقول دائرة معارف « هارمزورث » في الكلام على تاريخ حياة « توماس جى » : « كان عاملاً عند بائع كتب في لندن ، فتعلم منه أسرار المهنة ، واستطاع بعد زمن أن يجمع لنفسه ثروة ، فانشأ قبل موته مستشفى في لندن لا يزال يسمى باسمه حتى اليوم ، صرف عليه ثمانية عشر ألف جنيه وسبعمائة وثلاثة وتسعين ، ثم وهبه مائتي ألف جنيه ، وهذا المستشفى فضلاً عن أن به ستمائة وسبعة وأربعين سريراً لأيواء المرضى ، فأنت ترى فيه مئات من الطلبة يتلقون علم الطب والكيمياء على أشهر أساتذة العصر ، ومن قولها أيضاً في ترجمة حياة « أندرو كارنيجي » « لهذا المحسن الكبير هبات طائلة كثيرة منها : (وقف الأبطال) منه مليون من الجنيهات خصصت أرباحه لمكافأة من استطاعوا تخليص الإنسانية بعمل سامي ، كاختراع أو اكتشاف أو غيره في الولايات المتحدة وكندا ، ثم (وقف السلم) ومنه مليوناً جنيه خصصت أرباحها لنشر التعليم والمسابقات وترقية فن الهندسة والقانون والتاريخ ، ثم (اعتماد كارنيجي) وقدره مليوناً جنيه

لأتمام تعليم الطلبة الأسكتلنديين الذين عاقهم الفقر في أربع جامعات خصصت لذلك، وله هبات عديدة أخرى لا تدخل تحت حصر»
ولقد تضيق صفحات الكتاب بأجمعه دون استيعاب أسماء المحسنين في الولايات المتحدة وانكلترا وغيرهما من البلاد المتمدينة الذين نصروا العلم وعملوا على ترقيته .

وهل لا يكون من المخجل أن يوجد في مصر جامعة واحدة لا يدرس بها شئ يذكر بجانب ما يدرس في غيرها من الجامعات في البلدان الأخرى، تلك الجامعات التي لا يكاد يأتي عليها حصر، والتي تفدق عليها هبات المحسنين؟ أليس عاراً أن ينكر أغنياؤنا ما في أموالهم للعلم والتعليم من حق معلوم؟ أليس أمراً مخزياً أن لا يحركهم ذلك المثل الحي الذي ضربته لهم تلك المحسنة الكريمة المرحومة المبرورة الأميرة فاطمة إسماعيل بتبرعها للجامعة بنصيب من حليها وأملأ أكفها، فترام بعد كل ذلك يتكالبون على مالهم ويعضون عليه بالنواجذ، وينكرون العلم ويتجاهلون أمر التعليم؟

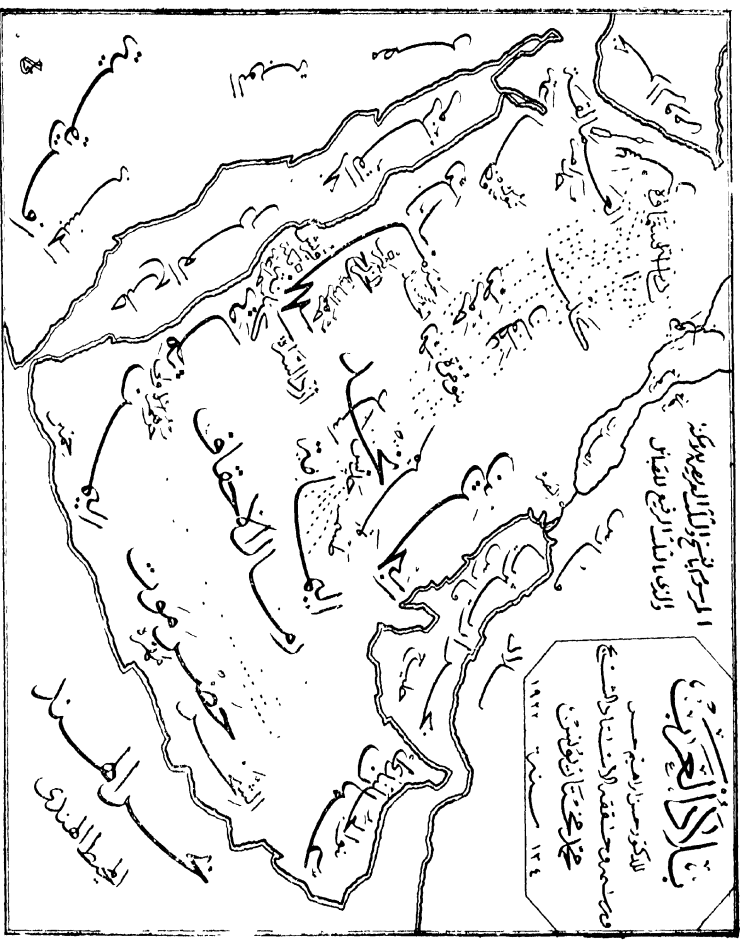
ليس بضائركم أيها الأغنياء أن تتبرعوا بالقليل من مالكم، وهو والحمد لله كثير، للجامعة فتعلموا قدرها وتعززوا شأنها، فلا يتقاعد ذوو السلطة والمناصب السامية في الحكومة من أعضائها عن إصلاح شأنها، ويضطر القائمون في الحكومة بأمر التعليم بالاعتراف بمرکزها الأدبي ومقامها العلمي اعترافاً جدياً، فلا تثبط همم المتخرجين فيها، ولا يقعد غيرهم عن السعي إليها، وتقوى نفوس الشبيبة المتطلعة إلى العلم .

القاهرة في ٢٣ يناير سنة ١٩٢٢

حسن إبراهيم حسن

تاريخ عمرو بن الماص - تأليف حسن إبراهيم حسن

أمام - صفحة ٩



بنا الألبان
 للأكراد حسن المصطفى
 من سنة ١٢٢٢
 خراج حجاز
 ١٢٢٢

الكتاب الاول

عمرو بن العاص من ولادته الى ان ولى فتح مصر

الباب الاول

﴿ عمرو قبل أن يُسلم ﴾

(١) فبيد عمرو

بنو سهم :

لما كان من قصدنا أن ندرس حياة عمرو بن العاص السهمي القرشي الذي نضع له رسالتنا لتقصي أخباره وتتبع آثاره وفتوحه وسياسته واخلاقه لزم ان نذكر كلمة يسيرة عن عشيرته بني سهم . لان للبيئة التي يولد فيها الشخص ويتربى تأثيراً كبيراً في نشأته واعماله . وبالاضافة لها يسهل استنباط الحكم على حياة الرجل مما يحيط به من المؤثرات .

ولكن التاريخ لم يحفظ لنا لسوء الحظ شيئاً ذا غناء وانما هي أخبار مبعثرة ليست بذات الخطر ولا بالتي تمثل لنا حياة هذه القبيلة تمثيلاً صحيحاً واضحاً . فكل ما نعرفه هو ان بني سهم بن عمرو بن هصيص بن كعب ابن لؤي بطن من بطون قريش اشتهروا في الجاهلية وفي الاسلام بمناقب رفيعة وكانوا من أصحاب السيادة والسلطان في مكة وكان لهم في

ادارة شئون قريش نصيب كبير صاروا به ذوى بأس وكرم وعز وجاه
وسلطان .

وقد ذكروا ان بنى سهم كانوا أصحاب الحكومة في قريش قبل
الاسلام ولسنا ندرى حقيقة هذه الحكومة ولكننا نعلم ان قد كانت العادة
عند العرب وعند غيرهم من الامم في عصورها الاولى ان تتقسم الاسر
الكبيرة بينها الاعمال الاجتماعية . فلعل هذه الحكومة كانت شيئاً يشبه
القضاء بحيث كان يختصكم القرشيون وغيرهم ممن يفد على مكة من العرب
الى بنى سهم أو بعبارة أصح الى زعماء بنى سهم فيما كان يقع بينهم من
الخصومات . هذا شئ يظهر ان ليس فيه من شك . فاذا عرفنا ان
الذين قد اختصوا بالحكومة عند العرب في الجاهلية انما كانوا اصحاب
رأى وحلم ودهاء (وكلنا يعلم ما يروى عن اكثم بن صيفى وذى الاصبع
العدوانى وغيرهما من حكماء العرب) . واذا كانت الحكومة قد بقيت
محصورة فيهم زمناً طويلاً حتى كان الاسلام فليس من شك في انهم قد
احتفظوا بما كانت تستلزمه هذه الحكومة من عادة وخلق . ولا شك
في انهم قد استبقوا بقدر ما استطاعوا دهاءهم وحلمهم وحزمهم بل لا شك
في ان هذا قد أصبح كأنه خلق يتوارثونه ويتناقلونه . وليس من البعيد أن
يكون لذلك شئ من الاثر فيما سيمتاز به عمرو من الحذق السياسى والدهاء
العظيم .

وكانت لبنى سهم أيضاً الرئاسة على الاموال الخاصة بالهتهم وهى
أشبه شئ بالاقواف العامة . ففى قبضة صاحب هذه الوظيفة الاموال

الحجّرة (كما كنوا يسمونها) يتصرف فيها على حسب ما تقتضيه القواعد التي جروا عليها في العدل باموال أو ثأنهم. ولا شك في أن هذا يستلزم غير قليل من التدبير وحسن القيام على الاموال وهذا شئ قد ظهرت آثاره في حياة عمرو كما سترى فقد كان حسن العناية بجمع المال واستثماره لم يقصر في ذلك وربما أسرف. وآية ذلك قوله لمعاوية حين سأله عما بقى مما يستلذه : مال اغرسه فاصيب من غلاته وثمرته.

اشتهر بنوسهم بالعز والشرف والشعر وفصل الخصومات والكرم واليسار وغيرها من الصفات. فكان منهم قيس بن عدى الذى كان يضرب به المثل فى العز فيقال كأنه فى العز قيس بن عدى. ومنهم من اشتهر بالكرم وقرى الضيف: وهو الحارث بن سعيد بن سهم. واشتهر نفر منهم بالشعر من أمثال عبد الله بن الزبير بن قيس بن عدى أحد شعراء قريش المعدودين وكان من أشد الشعراء على المسلمين قبل فتح مكة .

ولا يفوتنا ما كان للعاص بن وائل ابى عمرو من السيادة والجاه والشرف فى الجاهلية (كما سيأتى) فند كان كبير بنى سهم وزعيمهم فى يوم الفجار الثانى قبل الهجرة . وكان تاجراً من ذوي اليسار فى مكة تجوب تجارته الشام واليمن وغيرهما من البلاد. وما كان لابنيه هشام الذى كان من المهاجرين الاولين واستشهد باليرموك . وعمرو ما كان لابنيه عبد الله ومحمد من الشهرة فى الادب واصابة الراى . وقد اشتهر بنوسهم باقامة دعائم العدل فى الجاهلية ، وكنوا كذلك فى الاسلام . وكان أول من ولى القضاء بمصر منهم قيس بن ابى العاص بن عدى واشتهر بالشرف والثراء

وقري الضيف . وكان اول من بنى بمصر داراً للضيافة . وولى القضاء بمصر ابنه عثمان بن قيس في آخر سنة من خلافة عمر رضى الله عنه . واستمر على ذلك الى سنة ٤٢ هـ في خلافة معاوية . ومنهم قيس وعبد الله ابنا حذافة ابن قيس بن عدى وكانا من السابقين الى الاسلام وصحبا رسول الله صلى الله عليه وسلم وهاجرا الى الحبشة . وحمل عبد الله كتاب النبي الى كسرى يدعو الى الاسلام .

تعلم مما تقدم أن بنى سهم اشتهروا في الجاهلية والاسلام بالشرف والعز وفصل الخصومات والكرم وقري الضيف واليسار والادب والشعر والجاه وغيرها من الصفات التي انبتت في نفوس ابنائهم الاخلاق الفاضلة والعادات السامية . وكان لها اعظم الاثر في تكوين أفراد ابنائهم النابهين .

وكان عمرو بن العاص أثراً من آثار قومه ورث عن آبائه كثيراً من المواهب النادرة التي أهلته لأن يقوم بما عهد اليه من الاعمال خير قيام بما اشتهر عنه من بعد النظر والدهاء والشجاعة وعلو الهمة والفصاحة وغيرها .

لا نكران ان للبيئة التي يولد فيها الطفل ويتربّع تأثيراً كبيراً في تكوينه (١)

(١) راجع خزنة الادب جزء ٣ ص ١٠١ - ٣٠٢ . الكامل للمبرد طبع باريس . والامم والملوك لابن جرير الطبري الاغانى للاصفهاني طبع بولاق وأسد الغابة في معرفة الصحابة . والاصابة في تمييز الصحابة . وسبائك الذهب للسويدي

(-) - مرة عمرو

(١) العاصي ابن عمرو : هو العاص بن وائل بن سعيد بن سهم بن عمرو بن هصيص بن كعب السهمي القرشي . كان من سادات العرب وأعيانهم واثرا فهم في الجاهلية . وكان كبير بني سهم وزعيمهم في يوم الفجار الثاني قبل الهجرة ادرك الاسلام ولم يسلم وكان من المستهزئين برسول الله صلى الله عليه وسلم اشتهر بطعنه عليه وايدائه لاصحابه وانكاره للدعوة الاسلامية . وهو القائل لما مات القاسم ثم عبد الله ابنا النبي عليه السلام (١) : ان محمدا ابتر . فانزل الله فيه (ان شئت لك هو الابتر) . أى المقطوع عن الخير ومات بعد هجرة النبي بشهر وعمره خمسة وثمانون سنة كما رواه ابن الاثير في تاريخه (٢)

وقد كان العاص بن وائل تاجراً في الجاهلية ومن ذوى اليسار في مكة والظاهر انه كان يتجر ببضائع اليمن والحبشة الى الشام وببضائع الشام الى اليمن . كالجلد من اليمن والطيب من الحبشة والزيب والتيز ونحوه من الشام .

وانفق ذات مرة ان ابتاع العاص سلعة من رجل من زبيد من اليمن فطله العاص حتى عيل صبره وأعيته الحيل فعلا جبل (ابى قبيس) وقريش حول الكعبة وجعل يتظلم بشعر رقيق وهو يقول :

(١) ذكر ابن الاثير ان العاص قال ذلك لما مات ابراهيم . وهو يخالف ما ذكره ابن اسحق من انه قالها لما مات القاسم ثم عبد الله وهذا أصح .
(٢) الكامل لابن الاثير جزء ٢ ص ٢٩

يا للرجال لمظلوم بضاعة هـ يبطن مكة نأى الحى والنفر
 ان الحرام لمن تمت حرامته ولا حرام كيومى لابس الغدر
 فاجتمعت قریش واجمعوا أمرهم على الاجتماع بدار عبد الله بن جدعان
 حيث تحالفوا على ان ينصروا المظلوم من الظالم . فسمى هذا (حلف
 الفضول) وشهده رسول الله صلى الله عليه وسلم .
 وذكر ياقوت في معجمه ان سعيد بن المسيب (١) مر في بعض ازقة
 مكة فسمع مغنياً يغنى من دار العاص بن وائل قصيدة منها :
 تضيع مسكا بطن نعمان ان مشيت به زينب في نسوة عطرات
 فضرب برجله الارض وقال : هذا والله مما يلذ استماعه
 ومنها :

ولست كاخري أوسعت جيب درعها * وعضت بنان الكف للجمرات
 وعلت بنان المسك وحفا مرجلا * على مثل بدر لاح في الظلمات
 وقامت تراءى يوم جمع فافتنت * برويتها من راح من عرفات
 ومن هنا نستدل على ان بنى العاص بن وائل كانوا مولعين بالطرب
 محبين للادب ميالين لسماع رقيق الشعر ومشتعلينه . وقد ذكرنا فيما
 سبق نفراً من بنى سهم قالوا الشعر وأجادوا فيه ومن بينهم عمرو بن
 العاص (كما سيأتى) ولا يبعد ان يكون سعيد بن المسيب قد سمع
 هذه القصيدة من احدى الجوارى في بيت العاص او من بعض ابنائه :

(١) ولد سعيد بن المسيب بعد خلافة عمر بسنتين . فان كان سمع شيئاً
 من دار العاص فيكون بعد وفاته باكثر من نصف قرن

وكان للعاص من الاولاد عمرو وهشام . وكان هشام اصغر من أخيه عمرو . وامه ام حرملة بنت هشام بن المغيرة وهي خالة عمر بن الخطاب رضى الله عنه .

(ب) - لمحمى ام عمرو : سأل رجل عمرو بن العاص عن امه فقال : سلمى بنت حرملة تلقب النابغة من بنى عذره (١) . اصابتها رماح العرب فاشتراها الفاكه بن المغيرة ثم اشتراها منه عبد الله بن جـ . عان ثم أصبحت الى العاص ابن وائل فأنجبت فان كان جعل لك شئ نخذ .

وقد ذكر المبرد (ص ٧٧) فى كتابه : سئل عمرو بن العاص عن امه ولم تكن فى موضع مرضى فأناه الرجل وهو بمصر امير عليها فقال : اردت ان اعرف ام الامير . فقال نعم كانت من عنزة (٢) تسمى ليلي وتلقب النابغة . اذهب وخذ ما جعل لك . وقيل له مرة أنت افضل ام هشام ؟ فقال عمرو : ان لهشام علي اربعة : امه ابنة هشام بن المغيرة وامى عنزيه . وكان احب الى ابى منى وبصر الوالد بولده من قد عرفتم واسلم قبلى واستشهد وبقيت . (كتاب المعارف لابن قتيبه ص ٩٦)

وقال صاحب السيرة الحلبية (ج ١ ص ٥٤) : يقال انه وطنها (ام عمرو)

-
- (١) بنو عذرة بطن من قضاة من القحطانية : وهم بنو عذرة بن سعد هذيم بن زيد بن ليث بن سود بن أسلم بن الحافى بن قضاة . وقد سكنت عدة عشائر من قضاة فى الاخطاط التي بين المدينة وينبع الى الشمال فى متسع من أرض الحجاز . وبلاد عذرة وراء ذات القرى بينها وبين المدينة عشرة أيام
- (٢) بنو عنزة بطن من أسد بن ربيعة وديارهم عين التمر من بركة العراق على ثلاث مراحل من الانبار ثم انتقلوا عنها الى جهات خيبر فأقاموا هنالك

اوبعه وهم : العاص وابولهب وامية بن خلف وابوسفيان بن حرب وادعى كلهم عمراً فالحقته بالعاص . وقيل لها لم اخترت العاص ؟ قالت : لانه كان ينفق على بناتي . وكان عمرو يعير بذلك عيرة على وعثمان والحسن وعمار بن ياسر وغيرهم من الصحابة

واذا صح ذلك فلا حق لهم في ذلك ولا يؤخذ عمرو وما كان من ابيه واندفاعه في تيار شباب الجاهلية . ولا يلحقه العار من سبي امه وطالما يحدث مثل هذه الامور في الحروب ويقع عليه القوم في مخالب المحاربين حيث لا مناص من الوقوع . وكما ان ابا بكره لم يلحقه العار بامه سمية ان زياد فكذلك عمرو والاسلام يحُبُّ ما قبله

(ح) ولادة عمرو : لم تتفق كلمة المؤرخين في تحقيق ثبوت السنة التي ولد فيها عمرو وفي سنة حين توفي . ولم يمكنهم بالطبع تحقيق الامر الثاني لانه مبني على الامر الاول : اي سنة ولادته

وقد روى ابن حجر في كتابه (الاصابة في تمييز الصحابة) (ج ٥ ص ٣) ان عمر عمرو بن العاص حين ولد عمر بن الخطاب كان سبع سنين وانه مات بعد عمر بعشرين سنة

وذكر ابن خلكان والواقدي واخرج ابن حجر عن يحيى بن بكير ان عمرو بن العاص عاش تسعين سنة . وقال العجلي انه عمر تسعا وتسعين سنة (الاصابة ج ٥ ص ٣) . وقال ابن قتيبة في كتاب (المعارف ص ٩٧) انه مات

(٣) ذكر بطر في كتابه (ص ٥٦٤) خطأ خطأ أن ابن قتيبة ذكر ان عمراوات وهو ابن احدى وخمسين سنة مع انه لم يذكر هذا العدد الا عند كلاً سنة وفاته فقليل . وقد اختلف في موته فقليل سنة ٤٢ وقيل سنة ٤٣ وقيل سنة ٥١

وهو ابن ثلاث وسبعين سنة. ومات سنة ٤٢ أو سنة ٤٣ أو ٥١ للهجرة (١)
وان ابنه عبد الله مات سنة ٦٥ للهجرة وهو ابن اثنتين وسبعين سنة . وانه
كان أصغر من أبيه عمرو باثنتي عشرة سنة . اه
واذا صح ذلك فتكون ولادة عبد الله سنة ٧ ق هـ (٦١٥ م) وولادة عمرو
سنة ١٩ ق هـ (٦٠٢ م) . وتكون سن عمرو حين توفي (على ما ذكره
ابن قتيبة) اثنتين وستين سنة .

وقال ابن قتيبة أيضاً : ان عمر بن الخطاب رضى الله عنه مات وهو
ابن خمس وخمسين سنة . وأخرج عن الواقدي ان سن عمر بن الخطاب
كانت حين حضرته الوفاة ثلاثاً وستين سنة . وعلى هذا تكون ولادة
عمر سنة ٤٠ ق هـ (٨٢ م) وولادة عمرو سنة ٤٧ ق هـ (٥٧٥ م) : أى
قبله بسبع سنين . فتكون سن عمرو حين توفي تسعين سنة

ولا يمكن مع ما قدمناه الاهتداء الى رأى قاطع لسببين :
(١) لان سن عمر بن الخطاب حين توفي مشكوك فيها . فمن قائل
انه مات وله ٦٣ سنة ومن قائل ٥٥ سنة

(٢) وكذلك في عبد الله بن عمرو فقد ذكر ابن قتيبة انه توفي سنة
٦٤ . وذكر في أسد الغابة (٣ ص ٢٣٣) سنة ٦٣ وقيل سنة ٦٥ بمصر
وقيل سنة ٦٧ بمكة وسنة ٥٥ بالطائف وسنة ٦٨ وسنة ٦٣ مما يدل دلالة
واضحة على التخطي البين في روايات المؤرخين . بحيث لا نستطيع الجزم
بان عمرو بن العاص توفي وله تسعون سنة أو تسع وتسعون أو أكثر أو أقل
ولم يقتصروا المؤرخون على هذا بل ذهبوا الى أبعد منه فذكر ابو

(١) أنظر ما كتب أمام رقم (٣) بهامش ص ١٦ من الرسالة

الحاسن ان عمرو بن العاص مات وله تسع وتسعون سنة وقيل مائة سنة
وذكر النووى انه مات وسنه سبعون سنة

وقد رجح بطرق قول النووى على غيره من الاقوال :

(١) لانه لو مات وهو ابن تسعين سنة لكانت سنه حين فتح مصر
ستاً وستين سنة . اعنى انه قد طعن في السن بحيث ما كان يمكنه ان يقود
الجيوش الى ساحات النصر . ويتحمل مشاق الحرب وهو في مثل هذه
السن

(٢) ولانه لا يتصور أن يقوم بتمثيل أدوار الحرب والسياسة في
موقعة صفين وعند عقد التحكيم وقد ناهز الخمس وثمانين او الاثنتين وتسعين
وقد عزا هذا الترجيح الى احتمال خطأ المؤرخين المتأخرين في نقل لفظ
(سبعين) الى (تسعين) لما بين اللفظين من المشابهة (بطر ص ٥٤٨)

ولا ندرى لم يستبعد (بطر) ان عمرو بن العاص فتح مصر وهو في
السادسة والستين لان هذه السن تعوقه عن القيام بهذا الامر . وقد
شاهدنا أسماء كثيرين من القواد العظام في الحرب الاوربية العامة من
أمثال (هندنبرج) و (مولتك) و (ترپتر) و (فوش) و (جوفر) و (فرنش)
وغيرهم قد خاضوا معامع هذه الحرب الطاحنة وقادوا الجيوش الجرارة
وقد ناهزت سنهم الستين ؛ وهذا هو (كليمانصو) رجل فرنسا قد
تولى قيادة الامة الفرنسية كلها اثناء الحرب حتى ارسى سفينتها على ساحل
السلامة . وهو شيخ تربو سنه على السبعين كثيراً وقد رايناه في السنة
للاضية وقد عم بياض الشيب رأسه وشاربيه وهو الآن يسبح في بلاد

الشرق الاقصى ويخطب في النشء في المستعمرات الفرنسية وقد حفظ
لنا التاريخ عن كثير من العرب انهم كانوا يحاربون وعم في اعظم من هذا
السن . فان عمرو بن معد يكرب الزبيدي كان ممن ابلى البلاء الحسن في
القادسية . وكان يحمل على الاعداء ويطعنهم بسيفه وقد ناهزت سنه المائة .
ومع ذلك فقد بز الشباب حمية وبسالة واقداماً وقوة

وقول (بطر) الذي يستبعد ان يفتح عمرو بن العاص مصر وهو
في سن السادسة والستين مردود عليه . لانه اذا سلمنا بهذا القول جدلاً
فان عمراً قد فتح مصر الفتح الثاني وهو في سن السادسة والستين أيضاً !!
أى قبل بلوغه السبعين بارب سنين .

ولهذا لا نستبعد موت عمرو بن العاص وله تسعون سنة تقريباً وهي
السن التي نختارها وربما زادت أو قلت بسنة أو اثنتين .

أما قول ابن قتيبة ان عبد الله بن عمرو أصغر من أبيه باثنتي عشرة
سنة مما يزيدنا ارتياباً في صحة هذه الرواية اذ لا يعقل مطلقاً ان تحمل أم
أم عبد الله ولا ييه احدى عشرة سنة تقريباً

(د) زبينة عمرو

كان بيت العاص كما أسلفنا من البيوتات العالية الرفيعة العماد وكان
عمرو ولا شك قد شب في حجر أبيه ونشأ مع ابناء الاشراف في مكة
الذين يترفع أبائهم عن الدنيا فيصبغون أبناءهم بأدابهم ويعلمونهم على
الهمم وجمل الخصال لانهم نغرم الدائم ومجدهم الخالد . وكانت بلدكم مكة

مركز حركة الحجاز التجارية والادبية فكان يفد اليها العرب من كل صوب
وحدب أيام الحج والمواسم فيتناقلون الآداب الاجتماعية بعضهم من بعض
ويتناشدون الاشعار الحماسية ويتحدثون بكرم أصلهم وشرف محتدم .
فتغرس كل هذه المظاهر الاجتماعية والادبية في نفوس أطفالهم المواهب
النادرة والقرايح الوقادة والخصال الكريمة والعادات السامية وتدفع بهم
الى جليل الاعمال واسمى الغايات .

وليس هناك سبيل الى البحث عن تربية عمرو العالمية فان هذا النوع
من التربية لم يكن موجوداً اذ ذاك لان العرب في هذا الوقت لم يكن
لهم بالعلوم عهد . ومع ذلك فقد كان عمرو كاتباً قارئاً وكنا نود لو عرفنا
متي وكيف تعلم ذلك ولكن المؤرخين لم يذكروا منه شيئاً . ويخيل الينا انه
انما كتب وقرأ بعد ان شب وحين مارس التجارة . فانظن ان مكة كانت
في هذا العصر تعنى بتعليم أطفالها الكتابة والقراءة انما كان يشعر الرجل
من أهلها بالحاجة الى ذلك فيتعلمه .

وقد ذكر لنا التاريخ ان عمرو بن العاص كان يجيد الشعر وقد روى
عنه شعر كثير جيد . وان كان الرواة لم يكادوا يتركون واحداً من الصحابة
من غير ان يرووا له شعراً . واشتهر بالفصاحة والابانة في القول (١) .

(١) هذه العبارة عن اليعقوبى (ج ٢ ص ٦٢) وابى المحاسن (ج ١ ص ٧٢) وهذا
ما يخالف ما رواه ابن حجر ان عمر بن الخطاب كان اذا رأى رجلاً يتأجلج في كلامه
فيقول : خالق هذا وخالق عمرو بن العاص واحد . وتروى هذه العبارة عن
معاوية بن أبي سفيان . ولا معنى لها الا أن الشخص الذي يراه فدماعياً هو
وعمر بن العاص ضدان لفصاحة عمرو وطلاقته وحسن بيانه مع ان خالقهما واحد ،

يدلك على ذلك قوله حين شاوره معاوية في أمر عبد الله بن هاشم بن عتبة ابن مالك بن أبي وقاص . وكان أبوه أحد فرسان علي في صفين فأشار عليه عمرو ان يقتل عبد الله فرأى معاوية العفو عنه فخرج عمرو مغضباً وكتب اليه .

أمرتك أمراً حازماً فمصيتني وكان من التوفيق قتل ابن هاشم
أليس أبوه يا معاوية الذي اعان علينا يوم حز الغلاصم
فقتلنا حتى جرى من دماننا بصفين أمثال البحور الخضارم
وهذا ابنه والمرء يشبه عيصه وتوشك ان تلقى به جد نادم (١)

ولا أدل على فصاحة عمرو من السبائك الذهبية التي نظمها في خطبه وكتبه - تلك الاقوال التي ينبعث منها الاخلاص في العمل والسعي لترقية رعيته واستنهاض همم جنده قبيل المواقع الحربية . ولم يكن في الوصف باقل بلاغة منه في الشعر فقد أقر احد علماء الفرنجة ان وصفه مصر لعمر بن الخطاب (كما سيأتي) من اكبر آيات البلاغة .

وان نفس عمرو لتبين أجلى بيان من خلال أقواله الماثورة وحكمه البليغة فهي البرهان الساطع والدليل القاطع على رجاحة عقله وسمو مداركه وسرعة خاطره واصابة رأيه وحسن حديثه . ولندل الآن بشيء يسير من هذه الاقوال لكي تكون شاهداً على صحة ما نقول .

من ذلك قوله : ليس العاقل الذي يعرف الخير من الشر ولكنه الذي

ومن سار على ذلك حضرة استاذنا الشيخ عبد الوهاب النجار والدكتور (بطار)

(١) الكامل للمبرد (ص ١٥٠)

يعرف خير الشرين • وروى ابن عساكر عن عمرو بن العاص انه قال يوماً لمعاوية : ان الكريم يصول اذا جاع واللئيم يصول اذا شبع • فسد خصاصة (حاجة) الكريم واقع اللئيم

وروى عن هشام الكلبي قال : قال معاوية لعمرو بن العاص : من أبلغ الناس ؟ قال : من كان رأيه راداً لهواه . قال : فمن أسخى الناس ؟ قال : من بذل دنياه في صلاح دينه . قال : فمن أشجع الناس ؟ فقال : من رد جهله بحلمه . اهـ •

ومن غرر أقواله ما رواه صاحب كتاب سراج الملوك وهو : موت ألف من عليه أقل ضرراً من ارتفاع واحد من السفلة . وما رواه المبرد (ص ٢٨) ان عمرو بن العاص قال لمعاوية حين وصف عبد الملك بن مروان : أخذ بثلاث تارك ثلاث أخذ بقلوب الرجال اذا حدثت وبحسن الاستماع اذا حدثت وبايسر الامرين عليه اذا خولف تارك للمرء تارك لمقاربة اللئيم تارك لما يعتذر منه كقوله :

فقلت له تجنب كل شيء يعاب عليك ان الحر حر

وقوله وقد نظر على بغلة قد شتمت وجهها هراً فقيل له : أترك هذه وأنت أمير مصر ؟ فأجاب : لا ملل عندي لدايتي ما حملتني ولا لامراتي ما أحسنت عشتري ولا لصديقي ما حفظ سري ان الملل من كواذب الاخلاق وقوله : اذا أنا أفشيت سري الى صديقي فاذاعه فهو في حل . فقيل له . وكيف ذاك ؟ قال : أنا كنت أحق بصيائته (١)

ومن أخبار عمرو التي تدل على علمه وتعقله وبعده عن الاوهام انه لما كان بالاسكندرية انكسف القمر فقال له رجل من القوم : لقد حدثنا شيطان هذه المدينة ان القمر سيكسف من الليلة. فقال رجل من الصحابة : كذب عدو الله هذا هم علموا ما في الارض فاعلمهم ما في السماء ! فلم يرد عمرو عليه بذلك كثيراً ثم قال له انما الغيب خمسة فما سوى ذلك يعلمه قوم ويجهله آخرون ثم قرأ الآية (ان الله عنده علم الساعة وينزل الغيث ويعلم ما في الارحام وما تدرى نفس ماذا تكسب غدا وما تدرى نفس بأى ارض تموت ان الله عليم خبير)

فانظر كيف دحض عمرو حجة الرجل بهذا الدليل النقلي الذى يدل على امامه بأسرار كتاب الله العزيز فبرز الصحابي وأقام الدليل على أن العقل اذا نما ونضج سهل عليه الاهتداء الى معرفة أسرار الطبيعة والوصول الى معرفة كثير من مكنونات الكون ؟

والظاهر أن ممارسة عمرو التجارة من صغره وكثرة أسفاره الى الشام والحبشة ومصر وغيرها ومخاطبته لافواام مختلفين قدأ كسبته فوائد جمة من معرفة أحوال هذه الأمم الاجتماعية والادبية مما كان له تأثير كبير فى تثقيف عقله وسمو مداركه وافاده فائدة تذكر . وسيظهر من سيرته انه لم يكن تاجراً فحسب بل كان شاعراً وسياسياً محنكاً وقائداً ماهراً حتى عدوه من دهاة العرب وأبطالهم وذوى الراى فيهم

والخلاصة انه سوف يتجلى من استقصاء اخبار عمرو انه قد أوتي من الشجاعة والاقدام وحسن البلاء وكذا العلم والحكمة والحزم والوفاء وثبات

العزيمة والدهاء وغير ذلك من جليل الصفات مما لم يجتمع مثلها لئله الا في القليل النادر من مشاهير الرجال ممن أتم الله نعمته عليهم وهداهم الى التوفيق في أعمالهم والفوز في جميع فعالهم . ولهذه جميعها كان عمرو فريداً في عصره ونايعة بين قومه ونايماً من أنياب العرب وليثاً من ليوثهم ودعامة من أقوى دعائمهم صادق العزيمة قوى الحجة ثابت الجأش . ومن هذه صفاته وتلك أخلاقه فهو كفو للقيام بعظائم الامور .

(هـ) ائتراف عمرو والتجارة :

من المعلوم أن تربة مكة صخرية تبعد عنها المزارع . وقد ذاعت شهرة قريش وامتازوا على غيرهم من العرب بالنشاط وكان لهم احترام في نفوس غيرهم من القبائل ومكانة لا تنكر لانهم ولالة الكعبة الذابون عن حياضها الحافظون مجدها . ولكن تربة بلدهم حالت دون اشتغالهم بالزراعة . الا أن مركز مكة الجغرافي قد ساعد قريشاً على ممارسة التجارة . فكانت مكة واسطة عقد التجارة بين اليمن والشام والحبشة فامتازوا بالنقل بين هذه البلاد . وكانت ميناء جدة التي تبعد عن مكة بنحو أربعين ميلاً واسطة عقد التجارة بينها وبين الحبشة . فكانت تحمل كنوزها (الحبشة) في جزيرة العرب الى القطيف في إقليم البحرين حيث تنقل في القوارب مع واللؤلؤ الذي كان يستخرج من سواحل الخليج الفارسي الى مصب الفرات وتقع مكة في نحو منتصف المسافة بين اليمن شرقاً والشام غرباً . وكانت ابل قريش تحمل الطيب من أسواق صنعاء ومن موانئ عمان واليمن . ومن أسواق بصرى ودمشق كان يترى القمح والمصنوعات . لذلك

كانت قريش حضرا أهل تجارة وتجارتهن قائمة بالحجاج الذين يفدون الى مكة من جميع الجهات في المواسم . فكانت الكعبة مصدر أرزاق أهلها ولولاها ما استطاعوا الحياة في ذلك الوادى وهو غير ذى زرع . وقد اكسبتهم أسفارهم ومخالطتهم العالم المتمدين في أطراف العراق والشام وفي بلاد الحبشة واليمن خبرة وتجربة وذكا حتى صاروا أوسع العرب علماً واكثرهم خبرةً ودرايةً . لذلك بذلوا العناية القصوى في ادارة شؤون الكعبة وسهلوا على الناس القدوم اليها . وقد باغ من اهتمامهم بالتجارة انهم كانوا يرحلون رحلتين في العام : رحلة الشتاء الى اليمن ورحلة الصيف الى الشام . وكانت بلاد العرب وعرة الا عليهم فلم يكن لاهل الشام والحبشة وغيرهما من سبيل لولوج هذه الفيا في والقفار الكثيرة الوعورة والخطار فاحتكروا تجارة البلاد السعيدة (اليمن) والشام وغيرهما واستملوا بتبادل سلعها ، وقد كان من وراء تبادل تلك التجارة وانشارها في مكة ما عادي أهلها بالارباح الطائلة . ولم يكن حب أبناء الاشراف والنبلاء وأهل الشرف فيهم للفروسية بأقل من حبهم للتجارة التي كانوا يمارسونها منذ نعومة أظفارهم (١) كان عمرو بن العاص أحد أبناء هؤلاء الاشراف تاجرأ في الجاهلية . والظاهر أنه كان يتجر ببيضائع اليمن والحبشة الى الشام وبيضائع الشام الى اليمن كالجلد من اليمن يتجر به في الحبشة . والطيب من هذه والزيب والتين ونحوه من الشام . وقد ذكر الكندي أن عمرو بن العاص كان يختلف بتجارته الى مصر وهي الادم والعطر (٢) والظاهر من قول الكندي

(١) جيون ج ٩ ص ٩٤ (٢) كتاب القضاة والولاة (ص ٧)

ان أنواع السلع التي كان يتجر فيها عمرو ويختلف الى الشام والحبشة واليمن ومصر من أجلها كان أخصبها الادم والعطر . وقد عادت ممارسة التجارة على عمرو بأعظم الفوائد مادية كانت أو أدبية فقد اكتسب شيئاً كثيراً من أسفاره المتصلة واختلاطه باقوام على جانب عظيم من المدنية والارتقاء اذ ذاك . فتولدت فيه المواهب النادرة ونمت وازهرت فتجلت مظاهرها في جميع أدواره وكل فعاله مما كان له أعظم الاثر في مواقفه السياسية والحربية . وهذه الاسفار قد اكسبت عمراً شيئاً من الدهاء غير قليل وضرب به المثل واخترعت فيه الروايات : من ذلك ما رواه صاحب الاغانى قال :

بعد ان مشت قریش بعمارة بن الوليد المخزومي الى أبي طالب خرج هو وعمرو بن العاص وكان كلاهما تاجراً الى النجاشى مشركين وشاعرين فاتسكين وهما فى جاهليتهما . وكان عمارة معجباً بالنساء ومحادثتهن فركبا سفينة فأصابا من خمر معهما فلما انتشى عمارة قال لامرأة عمرو بن العاص : قبلينى . فقال لها عمرو : قبلى ابن عمك . فقبلته . وحذر عمرو على زوجه فرصدها ورصده فجعل عمرو اذا شرب معه أقل وارق لنفسه بالماء مخافة أن يسكر فيغلبه عمارة على أهله . وجعل عمارة يرادها عن نفسها فتمتنع . ثم أن عمرواً جلس الى جانب السفينة فدفعه عمارة فى البحر فسبح حتى أخذ بالقلس فارتفع فظهر على السفينة فقال له عمارة : أما والله لو علمت يا عمرو أنك تحسن السباحة ما فعات . فاضطفها عمرو وعلم أنه أراد قتله ففضيا على وجههما ذلك حتى قدما الى أرض الحبشة ونزلاها . فكتب عمرو الى أبيه العاص ان اخلى منى وتبرأ من جريرتى الى بنى المغيرة وجميع بنى مخزوم

وذلك أنه خشي على أبيه أن يتبع بحريته وهو يرصد لعمارة ما يرصد . فلما ورد الكتاب على العاص بن وائل مشى في رجال من قومه الى بني المغيرة وغيرهم من بني مخزوم فقال ان هذين الرجلين قد خرجا حيث علمتم وكلاهما فاتك صاحب شروهما غير مأمونين على أنفسهما ولا ندرى ما يكون من أمرهما واني ابرأ اليكم من عمرو ومن جريرته وقد خلعتنه . فقالت بنو المغيرة وبنو مخزوم . أنت تخاف عمراً على عمارة وقد خلعنا نحن عمارة وتبرأنا اليك من جريرته فخل بين الرجلين فقال الاسود بن المطاب : بطل والله دم عمارة بن الوليد آخر الدهر .

فلما اطمأنا بارض الحبشة لم يلبث عمارة أن دبّ لامرأة النجاشي فادخلته فجعل اذا رجع يخبر عمرو بن العاص بما كان من أمره . فجعل عمرو يقول : ما أصدقك ان قدرت على هذا الشأن ان المرأة أرفع من ذلك . فلما أكثر على عمرو مما كان يخبره به أراد عمرو والتثبت . وكان عمارة يغيب عنه حتى يأتيه في السحر وكان في منزل واحد معه . وجعل عمارة يدعو الى الشرب فيأبى عمرو وكان يريد أن يأتيه بشيء لا يستطيع دفعه . فقال له عمرو في بعض ما يذكر له من أمرها : ان كنت صادقاً فقل لهاتذهنك من دهن النجاشي الذي لا يدهن به غيره فاني أعرفه . لو أتيتني به لصدقتك فأتى عمارة بقارورة من دهنه فلما شمّه عرفه فقال له عمرو : صدقت لقد أصبت شيئاً ما أصاب أحد مثله قط من العرب ونلت من امرأة الملك شيئاً ما سمعنا بمثله هذا ثم سكّت .

بعد هذا دخل عمرو على النجاشي فقال : أيها الملك ان ابن عمي سفيهٌ

وقد خشيت أن يعرني عندك أمره وأردت أن أعلمك شأنه حتى استثبت
وانه قد دخل على بعض نساءك فأكثر . هذا الدهن قد أعطيه ودهنني
منه . فلما شم النجاشي الدهن قال : صدقت هذا دهني الذي لا يكون الا
عند نسائي . ثم دعا بعمارة بالسواحر فنفخن في إحليله ثم خلى سبيله فخرج
هاربا (فكان الجزء من جنس العمل) قالوا فقال عمرو في ذلك :

تعلم عماراً أن من شر شيمة	لمثلك ان يدعى ابن عم له ابنا
وان كنت ذا بردين (١) أحوى مرجلاً	فلست براء لابن عمك محرماً
اذا المرء لم يترك طعاما يحبه	ولم ينه قلباً غاوياً حيث يما
قضى وطراً منه يسيراً وأصبحت	اذا ذكرت أمثالها تملأ الفما
فليس الفتى ولو أتمت عروقه	بذى كرم الا بان يتكرما
صحبت من الامر الرقيق طريقه	ووليت عن الامر من قد تلوما
من الآن فانزع عن مطاعم حمة	وعالج أمور الموت لاتتندما (٢). اهـ

(و) - فمر عمرو الى مصر في الجاهلية :

ذكر السيوطي في (حسن المحاضرة ج ٢ ص ٤١) ان عمرو بن العاص
قدم الى بيت المقدس بتجارة في نفر من قريش . وكان عمرو يرعى في بعض
جبالها إبله وإبل أصحابه . وكانت رعية الابل نوبا بينهم . فبينما عمرو يرعى

(١) قال الواحدي (عن الاغانى ج ٨ ص ٥٠) : ان عمرا قال لعمارة : ان كنت
تحب ان أصدقك بهذا أو أقبله فائتني بثوين أصفرين . فلما رأى النجاشي
الثوين عرفهما .

(٢) الاغانى (ج ٨ ص ٥٠) بتصرف

إبله اذ مر عليه شماس وقد أصابه عطش شديد في يوم شديد الحر فأسقاها عمرو من قربة له حتي روى . ثم نام الشماس في مكانه وكان الى جانبه حيث نام حفرة فخرجت منها حية عظيمة فبعضر بها عمرو فنزع لها سهماً فقتلها . فلما استيقظ الشماس وعلم بذلك أقبل الى عمرو فقبل رأسه وقال له : قد أحياني الله بك مرتين : مرة من شدة العطش ومرة من هذه الحية . فقال له الشماس : وكم ترجو أن أصيب من تجارتك ؟ قال : رجائي أن أصيب ما أشتري به بغيراً فتكون لي ثلاثة أبعرة . فقال له الشماس : أرأيت دية أحدكم بينكم كم هي ؟ فقال : مائة من الابل . فقال له الشماس : لسنا أصحاب ابل نحن أصحاب دنائير . قال : تكون الف دينار . فقال له الشماس . اني رجل غريب في هذه البلاد وانما قدمت أصلي في بيت المقدس وأسيح في هذه الجبال شهراً جملت ذلك نذراً على نفسي وقد قضيت ذلك وانما أريد الرجوع الى بلادى فهل لك أن تتبعني الى بلادى ولك عهد الله وميثاقه أن أعطيك ديتين لان الله تعالى قد أحياني بك مرتين ؟ فقال له عمرو : وابن بلادك ؟ قال : مصر في مدينة يقال لها الاسكندرية . فقال له عمرو . لا أعرفها ولم أدخلها قط (١) فقال له الشماس : لو دخلتها لعلمت انك لم تدخل قط مثلها فقال له عمرو : تني لي بما تقول وعليك بذلك العهد والميثاق . فقال الشماس : نعم لك الله على العهد والميثاق ان أفى لك وان أردك الى أصحابك . فقال له عمرو : كم

(١) وهذا يخالف ما ذكره السكندى ان عمرو بن العاص كان يختلف بتجارته

يكون مكثي في ذلك ؟ قال : شهراً تنطلق معي ذاهباً عشرأً وتقيم عندنا عشرأً وترجع في عشر ولك عليّ أن أحفظك ذاهباً وان أبعث معك من يحفظك راجعاً. فقال له : أنظرني حتى أشاور أصحابي . فانطلق عمرو الى أصحابه وأخبرهم بخبر الشمس وما عاهده عليه وتعاهد معهم أن يقيموا ريثما يعود اليهم وان يشاطروهم ذلك المال على ان يصحبه رجل منهم يأنس به . فاتفقوا على ذلك وانطلق عمرو وصاحبه مع الشمس الى مصر حتى انتهى الى الاسكندرية فرأى من عمارتها وآثارها وما بها من الاموال والخير ما أعجبه ذلك حتى قال : ما رأيت مثل مصر وكثرة ما فيها من الاموال . ونظر الى الاسكندرية وعمارتها وجودة بنائها وكثرة أهلها وما بها من الاموال فازداد تعجباً على تعجبه .

ووافق دخول عمرو الاسكندرية عيداً فيها عظيماً يجتمع فيه ملوكهم وأشرفهم ولهم كرة من ذهب مكللة يتراى بها ملوكهم وهم يتلقونها باكمهم وفيما اختبروه من تلك الكرة ان كل من وقعت في كمه واستقرت فيه لم يمت حتى يملكهم . فلما قدم عمرو الاسكندرية اكرمه الشمس الاكرام كله وكساه ثوب ديباج ألبسه اياه وجلس عمرو والشمس مع الناس في ذلك المجلس حيث يترامون بالكرة . وبينما هم يتلقونها باكمهم رمى بها رجل منهم فاقبلت تهوى حتى وقعت في كم عمرو . فتعجبوا من ذلك وقالوا : ما كذبتنا هذه الكرة قط الا هذه المرة أترى هذا الاعرابي يملكنا ؟ هذا لا يكون أبداً . وان ذلك الشمس مشى في أهل الاسكندرية وأعلمهم انه أحياء مرتين وانه قد ضمن له الف دينار وسألهم أن يجمعوا له

ذلك فيما بينهم ففعلوا ودفعوها إلى عمرو . فانطلق عمرو وصاحبه وبعث
معهما الشماس دليلاً ورسولاً وزودهما واکرمهما الاكرام كله حتى رجع
هو وأصحابه الى أصحابهما . فبذلك عرف عمرو مدخل مصر ومخرجها
ورأى منها ما علم أنها أفضل البلاد وأكثرها مالا . فلما رجع عمرو الى
أصحابه دفع اليهم فيما بينهم الف دينار وأمسك لنفسه الفاك . قال عمرو :
فكان هذا أول مال تأثله . اه بتصرف

والذى نراه ان هذه القصة ملفقة والتلفيق فيها ظاهر ظهوراً يئناً
سنكشف الستار عنه .

ومع ذلك فلا يبعد أن يكون عمرو بن العاص قد زار الاسكندرية
(كما ذكر الكندى) فعرف مسالك البلاد وطرق القدوم اليها . على أن
شهرة مصر وعاصمتها الاسكندرية لم تكن لتخفى على عمرو بن العاص
بعد أن فتحت أكثر مدائن الشام على يديه ووقف بنفسه على أخبار مصر
التي أخصها هجرة الألوف من المصريين الى بلاد الشام لاضطهاد الروم لهم
وقتل اليعاقبة منهم . فانتبهز هذه الفتن وانشغال الروم بقمع هذه الثورات
فرصة سانحة لاستيلائه على مصر .

والذى يدعو الى العجب من هذه القصة تراعى الملوك بالاكراة
ووقوعها في كم عمرو . وأن من وقعت في كمه لم يمت حتي يملكهم . والتاريخ
لم يذكر لنا رومانياً تعين حاكماً لمصر ينطبق عليه قول السيوطى . ومن
المعلوم ان حكام مصر كانوا يعينون من قبل امبراطور الروم مباشرة ومن
طبقة الفرسان أو من أهالى الاسكندرية الذين يتمتعون بالحقوق الرومانية

المدنية وان امبراطرة الرومان حظروا على أعضاء مجلس الشيوخ والفرسان ذوى الانساب الدخول فى وادى النيل من غير ترخيص منهم (١) . واذا كان كذلك فأين كن هؤلاء الملوك الذين ذكر السيوطي انهم كانوا يترامون بالكرة فى ذلك الاحتفال . ولم يتمكن أحد من الروم من دخول مصر اللهم الا اذا كان تاجراً غير مشهور أو سائحاً لا حيثية له لزيارة هذه البلاد؟ ثم بأى لغة كان الحديث بين عمرو وبين الشمس أكان باليونانية أو القبطية وعمرو يجهلها أم كان بالعربية وما كان أهل مصر يعلمونها؟ ثم كيف يعده هذا الشمس بالنار فاذا أتى الى الاسكندرية مشى فى أهلها ليجمع هذا المال؟

(١) ملن (ص ٣)



الباب الثاني

عمر ومنذ أسلم إلى أن انتهت حروب الردة

(١) أسلم عمرو :

وقد ذكر الطبري سبب اسلام عمرو بن العاص قال : قال عمرو :
لما انصرفنا مع الأحزاب عن الخندق جمعت رجالا من قريش كانوا
يرون رأبي ويسمعون مني فقات لهم : تعلمون والله أني لأرى أمر محمد
يعلو الأمور علواً منكراً وإني قد رأيت أن نلحق بالنجاشي فنكون
عنده فإن ظهر محمد على قومنا كنا عند النجاشي فإنا أن نكون تحت يديه أحب
الينا من أن نكون تحت يدى محمد وإن يظهر قومنا فنحن من قد عرفوا فلا
يأتينا منهم إلا خير . فقال : ان هذا رأى . قلت فاجمعوا له ما يهدى اليه
وكان أحب ما يهدى اليه من أرضنا الأدم فجمعنا له أدما كثيراً ثم
خرجنا حتى قدمنا عليه فوالله إنا لعنده إذ جاء عمرو بن أمية الضمري وكان
رسول الله صلى الله عليه وسلم قد بعثه اليه في شأن جعفر بن أبي طالب
وأصحابه . قال : فدخل عليه ثم خرج من عنده . قال : فقات لأصحابي :
هذا عمرو بن أمية الضمري لو قد دخلت على النجاشي سألته إياه فأعطانيه
فضربت عنقه فإذا فعلت ذلك رأيت قريش اني اجزأت عنها حين
قتلت رسول محمد فدخلت عليه فسجدت له كما كنت أصنع فقال : مرحبا

بصديقي أهديت لي شيئاً من بلادك ؟ قلت : نعم أيها الملك قد أهديتُ لك
أدماً كثيراً ثم قربته اليه فأعجبه واشتهاه ثم قلت له : أيها الملك اني قد رأيت
رجلاً خرج من عندك وهو رسول رجل عدو لنا فأعطينيه لأقتله فانه قد
أصاب من أشرفنا وخيارنا . فغضب ثم مدّ يده فضرب به أنفه ضربة
ظننتُ انه قد كسره : فقلت : والله أيها الملك لو ظننت انك تكره هذا
ما سألتكه . قال : أتسألني أن أعطيك رسول رجل يأتيه الناموس الا كبر
الذي كان يأتي موسى لتقتله ؟ فقلت : أيها الملك : ا كذاك هو ؟ قال : ويحك
يا عمرو أظنني واتبعه فانه والله لعلى الحق وليظهرنّ على من خالفه كما ظهر
موسى على فرعون وجنوده . قال : قلت فتبايعني له على الاسلام ؟ قال :
نعم فبسط يده فبايعته على الاسلام ثم خرجت الى أصحابي وقد حال
رأى عما كان عليه وكتمت أصحابي إسلامي ثم خرجت عامداً لرسول الله
لأسلم فلقيت خالد بن الوائيد وذلك قبل الفتح (بستة أشهر) وهو مقبل
من مكة فقامت : أين يا أبا سليمان ؟ قال : والله لقد استقام المنسم وان الرجل
انبيّ ، أذهبُ والله أسلم فحتى متى ؟ فقلت : والله ما جئتُ إلا لأسلم . فقدمنا
على رسول الله صلى الله عليه وسلم . فتقدم خالد بن الوليد وأسلم وبايع .
ثم دنوتُ فقلت : يا رسول الله انى أبايعك على ان تغفر لي ما تقدم من ديني
ولا أذكر ما تأخر فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : يا عمرو بايع فان
الاسلام يحبُّ ما قبله وان الهجرة تجب ما قبلها ثم انصرفت . اهـ (الطبرى
ج ٣ ص ١٠٣ - ١٠٤)

وروى ابن عساكر في تاريخه عن الزبير بن بكار قال : قيل لعمرو بن

العاص ما أبطأ بك عن الاسلام وأنت أنت في عقلك ؟ فقال : إنا كنا في قوم توازن حلومهم الجبال ما سلكوا جَنًّا فتبعناهم إلا وجدناه سهلاً فلما أنكروا على النبي صلى الله عليه وسلم أنكرنا معهم ولم نفكر في أمرنا وقلدناهم . فلما ذهبوا وصار الامر إلينا نظرنا في أمر النبي صلى الله عليه وسلم وتدبرناه فاذا الامر بين فوق في قلبي الاسلام فعرفت قریش ذلك في إبطائي عما كنت أسرع فيه من عونهم على أمرهم فبعثوا إلى فتى منهم فقال : أبا عبد الله إن القوم قد ظنوا بك الميل إلى محمد . فقلت له : يا ابن أخي إن كنت تحب أن تعلم ما عندي فموعدك الظلُّ من حرّاً . فالتقينا هناك فقلت : أنشدك الله الذي هو ربك ورب من قبلك ومن بعدك . أنحن أهدي أم فارس والروم ؟ قال : اللهم بك نحن . فقلت : أفنحن أوسع معاشاً وأوسع ملكاً أم فارس والروم ؟ قال : بل فارس والروم . قالت : فما ينفعنا فضلنا عليهم في الهدى إن لم تكن إلا هذه الدنيا وهم أكثر فيها أمراً قد وقع في نفسى ان ما يقول محمد من البعث حقٌ ليجزى المحسن في الآخرة بإحسانه والمسيء بأسائه . هذا يا ابن أخي الذي وقع في نفسى ولا خير في التماذى في الباطل . اهـ

وروى عن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم عن أبيه قال : قال عمر بن الخطاب لعمر بن العاص رضى الله عنهما : لقد عجبت لك في ذهرك وعقلك كيف لم تكن من المهاجرين الاولين ؟ فقال له عمرو : وما أعجبت يا عمر من رجل قلبه بيد غيره لا يستطيع التخلص منه إلا إلى ما أراد الذي هو بيده ! فقال عمر : صدقت . اهـ .

ومن نظر في أمر قريش ومسلكتها مع النبي صلى الله عليه وسلم عرف أن شيوخها وشبابها كانوا ذوى حماسة شديدة في جهاد الاسلام في أول الامر وكان انتصار النبي لا يزيدهم إلا شدة وحماسة . ولكن هذا الانتصار قد تكرر وعظم أمره في جميع البلاد العربية وقتلت سادات قريش ومات ذوو الحلم فيها فأخذ الشبان وأصحاب المطامع يترددون ويتساءلون عن أى الأمرين أوفق لهم . رأوا قوة من جهة وضعفاً من جهة أخرى فكانوا يودون لو انضموا الى هذه القوة الناشئة فنفعوا وانتفعوا . ولكنهم كانوا يخشون سوء رأى قومهم فيهم وضياع ما كانوا يستمتعون به من الحرية من جهة أخرى . فمنهم من تغلب على هذه المخاوف فذهب الى المدينة وأسلم . ومنهم من اشتد تردده فاعتزل الطرفين حيناً حتى إذا ثبت له من غير شك أن أمر محمد ظاهر على قريش أسرع فادرك الفرصة قبل ضياعها واسلم قبل الفتح . من الاولين خالد بن الوليد ومن الآخرين عمرو الذى اعتزل البلاد العربية وذهب الى أرض محبذة هى أرض الحبشة ليرقب الامر فرأى ما كان من حسن الصلة بين المدينة وبين النجاشى وأيقن أن أمر الاسلام سينتهى بالظفر وأن سقوط مكة قريب وانه إن أراد أن يدخر لنفسه مكانة بين أقرانه الذين سبقوه الى الاسلام فليس له بدٌّ من أن يسلم طائماً قبل أن يسلم كارهاً .

وقد قدمنا ما كان من اعتذار عمرو حين سئل عن سبب ابطائه عن الاسلام فزعم أنه كن يأتهم بسادة قريش . وليس من شك فى أن هذا الجواب انما كان يراد به التخلص من مسألة كانت تورط من تلقى عليه .

ولم يكن هذا أمر عمرو وحده وإنما كان أمر طائفة كثيرة من الذين أسلموا متأخرين . ولسنا نشك في أن عمرا حين أسلم كان وثق بأن أمر الاسلام ليس مقصوراً على بلاد العرب بل هو متجاوزها الى غيرها وأنه قد تنبأ بما سيكون للمسلمين من فتح . ولسنا نزعم أنه إنما أسلم طلباً لحسن المكاة فحسب وإنما كان يطلب الى ذلك أن ينفع المسلمين بما أوتي من قوة وحزم وليس من شك في انه كان قد أعد لنفسه برنامج عمل هو الذي أنفذه حين بدأ المسلمون بالفتح . على أن الرجل لم يكذب بايع النبي صلى الله عليه وسلم حتى صحت عزيمته على أن يبذل ممالك من قوة لرفع شأن الاسلام . ولسنا نستطيع أن نصف مقدار ما كان لعمر من الايمان الديني واسكننا نستطيع أن نحزم بان ايمانه الوطني وحرصه على اعلاء كلمة العرب وبسط اعلامهم على ما جاورهم من البلاد كانا عظيمين جداً . يدلك على ذلك قول الرسول عليه السلام :

اسلم الناس وآمن عمرو بن العاص . وكل ما سنقوله منذ الآن يبين هذا الرأي .

(ب) امرزام الرسول عليه السلام مفرقة عمرو ونصيبه فائداً لاهل الجيوش

على أن النبي صلى الله عليه وسلم لم يفته شيء من ذلك ولم يرد أن يفرق بين هؤلاء الذين أسلموا بعد تردد وبين من سبقوا الى الاسلام وانما علم من كثير منهم صدق النية فقر بهم ومن الآخرين الخوف والريبة فأمنهم وأراد أن ينتفع الاسلام بهم جميعاً .

روى عن عمرو أنه قال : ما عدل بي رسول الله صلى الله عليه وسلم وبخالد بن الوليد أحداً من أصحابه في حربه منذ أسلمت . وقد وثق بصدق عزيمة عمرو ونصحه للمسلمين منذ أسلم . وكان يعلم من دهائه وذكائه ما عرفه الناس فولاه قائداً على سرية (ذات السلاسل) وهي تلك السرية التي كانت تضم بين رجالها ثلاثة من عظماء الاسلام وأقطابه وهم أبو بكر الصديق وعمر بن الخطاب وأبو عبيدة بن الجراح رضي الله عنهم . كذلك ولاه على سرية لهدم (سواع) واستعمله على عثمان .

(ج) سرية عمرو الى ذات السلاسل :

كان النبي صلى الله عليه وسلم يرسل السرايا الى القبائل يدعوهم الى الاسلام . وكان اخوال العاص بن وائل من بلي (١) وعذرة من أرض جذام . وقد بلغ رسول الله عليه السلام ان قضاة أرادوا أن يدنوا من أطراف المدينة فأرسله رسول الله صلى الله عليه وسلم الى قضاة كي يستألفهم بذلك سيره بثلاثمائة من اشراف المهاجرين والانصار حتى إذا كانوا على ماء بأرض جذام يقال له السلاسل خاف عمرو على من كان معه لقلتهم فبعث الى النبي صلى الله عليه وسلم يستمده فأمدّه بآبي عبيدة بن الجراح وبمائتين من سراة المهاجرين والانصار فيهم أبو بكر الصديق وعمر بن الخطاب وزوده بالنصائح وحذره عاقبة الاختلاف فخرج حتى قدم على عمرو .

ومما يسترعى الأنظار أنه كاد يقع ما حذر النبي صلى الله عليه وسلم أبا

(١) بلي : قبيلة كبيرة ينسبون الى بلي بن عمرو بن الحاف بن قضاة . وعذرة قبيلة تنسب الى سعد بن قضاة وبلادهم وراء وادي القري بينها وبين المدينة عشرة ايام (السيرة النبوية ج ٢ ص ٢٩٦)

عبيدة عاقبته وكادت تتطايّر نيران الشقاق بين عمرو وأبي عبيدة لولا أن تلافى أبو عبيدة الشر . ذلك أن أبا عبيدة أراد أن يؤم الناس فقال عمرو :
 إنما قدمت على مددا وأنا الأمير ولا إمارة لك . فقال أبو عبيدة : لا ولكن
 أنا على ما أنا عليه وأنت على ما أنت عليه . فتشبث عمرو برأيه واستمسك
 بكلمته فتذكر أبو عبيدة قول رسول الله صلى الله عليه وسلم وأطاع له
 وبذلك حسم النزاع وزال الخلاف . (١)

ثم سار الجيش الى العدو وحمل المسلمون عليهم حملة منكرة وقتلوا
 منهم خلقا كثيرا فتشتت شملهم وتمزقت جنودهم فهربوا في البلاد وتفرقوا
 ولما هزم المسلمون الأعداء طمعوا فيهم وأرادوا أن يقتفوا أثرهم فحال
 عمرو بينهم وبين ما يشتهون . ثم أرادوا أن يوقدوا نارا يصطلون عليها
 من البرد فنعهم أيضا وأمر بان من يفعل ذلك يقذف به فيها فشق على
 المسلمين ذلك ولم يحتملوا تلك الشدة التي عاملهم بها عمرو وهي تلك الشدة
 التي رآها ومن مستلزمات الخطط الحربية التي لا غنى للقائد المدبر عنها . فلما
 انصرفوا شكوا منه إلى النبي صلى الله عليه وسلم . فكلمه في ذلك فقال له
 عمرو قولا يدل على كفاءته في الحرب وبعد نظره في عواقب الأمور :
 كرهت ان آذن لهم أن يوقدوا ناراً فيرى عدوهم قتلهم وكرهت ان يتبعوهم
 فيكون لهم مدد .

فأعجب به رسول الله صلى الله عليه وسلم أيما إعجاب وحمد رأيه (٢)

(١) السيرة النبوية (ج ٢ ص ٢٩٧) وتاريخ ابن الاثير (ج ٢ ص ١١١)

(٢) السيرة الحلبية (ج ٣ ص ٢٧٣)

(د) سرية عمرو الى سواع :

وسواع صنم لهذيل على ثلاثة اميال من مكة . وكان هذا الصنم على صورة امرأة يحجون اليه ويعبدونه على نحو ما كان بين العرب وبين سائر اصنامهم فبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم عمرو بن العاص في جماعة من اصحابه الى سواع ليكسروه . فلما وصل الى سواع قال السادن : ماتريد ؟ فقال عمرو : امرني رسول الله ان اهدمه . قال : لا تقدر على ذلك فقال عمرو : ولم ؟ قال تمنع فقال له عمرو : حتى الآن أنت على الباطل ؟ ويحك وهل يسمع أو يبصر ؟ ودنا منه عمرو وكسره وامر أن يهدموا بيت خزائنه فلم يجدوا فيها شيئاً ثم قال للسادن : كيف رأيت ؟ فقال أسامت لله رب العالمين : (١) اهبايجاز

ولم يذكر المؤرخون عدد من كان مع عمرو . على اننا نرجح انه كان في رجال لا يتجاوزون عدد اصابع اليد لانه لم يكن على هذا الصنم غير السادن . وانما نرجح أن وجود هذا العدد مع عمرو كان لهدم بيت خزائنه

(هـ) نوبة عمرو على الصخرة بعمره

لا نرى من مؤرخ او باحث بيننا الا وهو متفق معنا على مقدرة عمرو والحربية وتصرفه في الامور بحكمة وروية نادرتين . فلا غرو اذا وضع النبي صلى الله عليه وسلم ثقته فيه لكفائه ومهارته وأسنداليه تولية الاعمال السياسية والدينية الخطيرة . ففي شهر ذي الحجة سنة ثمان من الهجرة بعث رسول الله

صلى الله عليه وسلم الى ملكي عمان (١) جيفر (٢) وعباد ابني الجلندى كتابا مع عمرو بن العاص يدعوهما الى الاسلام . وكان دين تلك البلدة المجوسية وهذا نصه .

بسم الله الرحمن الرحيم من محمد عبد الله ورسوله الى جيفر وعباد ابني الجلندى : سلام على من اتبع الهدى أما بعد فاني أدعوكم بدعاية الاسلام أسلما تسلموا فاني رسول الله إلى الناس كافة لأنذر من كان حياً ويحق القول على الكافرين . وانكما إن أقررتما بالاسلام وليتكما وإن أبيتما أن تقررا بالاسلام فان ما يسكنكما زائل عنكما . اهـ

لم يستخدم النبي صلى الله عليه وسلم عمرا في الحرب فحسب بل استخدمه في السياسة أيضاً لعلمه بدهائه وبعد نظره فبعث به سفيراً إلى جيفر وعباد ملكي عمان حتى إذا ما انتهت سفارته ونجحت دعوته وأسلم أهل عمان على يديه عينه والياً للصدقة عليها جزاء خدمته العظيمة فتقلده هذه الوظيفة السامية حتى وفاة الرسول عليه السلام . ولا بد أن يكون لعمرو سابق معرفة ببلاد عمان لتردده عليها قبل إسلامه ومعرفته بأحوال أهلها وعاداتهم . فتمكن بحسن سياسته من توطيد دعائم الاسلام في أرجائها . وفضلا عما كان لهذه الخدمة من الاهمية الدينية فقد كانت لها أهمية سياسية كبيرة ليس لها إلا أمثال عمرو كما سترى .

نخرج عمرو حتي انتهى إلى عمان حيث قابل عبادا وكان أصغر من

(١) عمان (بضم العين وتخفيف الميم) بلدة باليمن سميت باسم عمان بن سبأ . واما عمان (بفتح العين وشد الميم) بلدة بالشام
(٢) جيفر على وزن جعفر

أخيه جيفر وأحلم وأسهل خلقاً منه فسأله عباد عن حاجته فأجابه عمرو :
 إني رسول الله صلى الله عليه وسلم إليك وإلى أخيك فقال : أخي المقدّم
 على بالسن والملك وأنا أوصلك إليه كي تقرأ كتابك عليه . ثم سأله عما يدعوه
 إليه هذا الدين وهل أسلم أبوه أم مات على غير الإسلام ومتى أسلم عمرو
 وأين كان إسلامه وما الذي يأمر به هذا الدين وينهى عنه . فأجابه عمرو بما
 اشتهر عنه من الأمانة في النول وإقامة الحجّة حتى أقنعه وأراه الحق عياناً
 فقال قلب عباد إلى الإسلام ورغب فيه . يدلك على ذلك قوله : ما أحسن
 هذا الذي يدعو إليه ولو كان أخي يتابعني لركبنا حتى نؤمن بحمد ونصدق
 به . ولكن أخي ضنّ بملكه من أن يدعه ويصير ذنباً (تابعاً) بعد أن
 كان متبوعاً . فقال له عمرو : ان أسلم ما لك رسول الله صلى الله عليه وسلم
 على قومه يأخذ الصدقات من غنيهم ويردها على فقراءهم فأعجب عباد بما فرض
 رسول الله صلى الله عليه وسلم أيما أعجاب لما في ذلك من مواساة الفقراء
 وإغاثة الملهوف وقضاء حاجة المعوزين .

أقام عمرو بباب جيفر أياماً من غير أن يقابله وعباد يخبر أخاه بكل
 ما يدور بينه وبين عمرو من اطراف الحديث حتى دعا عباد يوماً ليدخل
 على أخيه : ولما تم لعمره ما أراد من مقابلة جيفر أذن له هذا بالحديث
 فدفع إليه الكتاب مختوماً بختم النبي صلى الله عليه وسلم فقرأه ثم دفعه
 إلى أخيه فقرأه كذلك . وحينذاك سأله عما صنعت قریش فقال عمرو :
 إما راغب في الدين وإما مقهور بالسيف وإن لم تسلم اليوم وتبته يوطئك
 الخيل ويبيد خضرائك (رجالك) فأسلم تسلم فيوليك على قومك وتبقي

على ملكك مع الاسلام ولا تدخل عليك الخيل والرجال وفي هذا مع سعادة الدارين راحة من القتال

ودعاه جيفر أن يمهله يوما ريثما يعمل فكره ويرجع إليه في اليوم الثاني فلما كان الغد عاد عمرو إلى أخيه الذي استصحبه إلى الملك فأجابه بالنفي وصمم على أن لا يسلم تراث ملك آبائه وأجداده لأحد وأظهر استهائته بما تضمنه خطاب النبي صلى الله عليه وسلم بأنه لا يتسنى للمسلمين التغلب على بلاده مع ما هو فيه من بعد الشقة وزوده بأنه سوف يقف في سبيل المسلمين ويبعدهم عن بلاده فهم عمرو بالانصراف غير أن عبادا فطن لعواقب هذا العناد فنبه أخاه ونصح له بتبليغ دعوة النبي صلى الله عليه وسلم واعتناق الإسلام فأرسل إلى عمرو وأجاب للإسلام هو وأخوه وخليائين عمرو والصدقة وبين الحكم فيما بينهم وكانوا عوناً له على من خالفه وأسلم معهما خلق كثير.

ظل عمرو متولياً هذا المنصب الديني السياسي الكبير زهاء سنتين يهdy الناس إلى الاسلام فيدخلون في دين الله أفواجا وكان يأخذ الصدقة من الأغنياء ويردها على الفقراء ولم يزل مقيماً هناك حتى جاءه نبي رسول الله صلى الله عليه وسلم وأتاه كتاب أبي بكر الصديق رضي الله عنه مختوما وفيه ان لا يحلّ عقالا عقله رسول الله صلى الله عليه وسلم وان لا يعقل عقالا لم يعقله رسول الله . فلما قرأ الكتاب بكى بكاء طويلاً وحزن حزناً شديداً ثم خرج على القوم فأعلمهم الخبر فغزوه.

(و) عمرو وردة العرب

لما توفى رسول الله صلى الله عليه وسلم منيت الأمة العربية باضطرابات جسيمة زعزعت مركزها وكادت تودى بعصبيتها وعظمتها. فقد اختلف المهاجرون والأنصار فيمن يولونه الخلافة وكان من وراء ذلك ما هو معلوم. ولو كان عمرو في المدينة اذ ذاك لما ظل ساكناً هادئاً بل لابد أن يكون قد دخل في هذا الخلاف ولعب فيه دوراً مهماً وان كان اليعقوبى قد ذكر انه كان له ضلع فيه فانه لا سبيل إلى تصديقه اذ ليس من شك في أنه كان لا يزال بهمان حتى دعاه أبو بكر. ولكنه اشترك فيما كان بين الأمة العربية في كافة أتحاء الجزيرة عقب تولية أبي بكر. ذلك أن القبائل العربية بعد وفاة الرسول عليه السلام لم تكن ترغب في أن تخضع لسلطان قريش وقد أخضعوا اما طوعاً أو كرهاً. فلما مات رسول الله صلى الله عليه وسلم خيل اليهم أن هذا السلطان منحل لان بعضهم كان لا يستطيع أن يصدق موت النبي فلما تحققه شك في الدين وبعضهم كان يعتقد أنه لن تقوم لقريش فائمة بعد مامات زعيمهم ولأنهم كرهوا سيادة قريش التي ظنوا أنها قد سلبتهم حريتهم وأدخلتهم تحت سلطانها بحكم الدين ولكي تحافظ على هذه السلطة كان لابد لقريش من محاربة هذه القبائل الخارجة عن طاعتها فرفضت أكثر قبائل العرب أن تخضع لسلطان أبي بكر وامتنعوا عن أداء الزكاة. وما زال ديب العصيان يثور في نفوس القبائل الواحدة بعد الاخرى حتى تزعزع مركز الإسلام وانكمش إلى مدن

مكة والمدينة والطائف (وكذا قبيلة عبد القيس)

أما عمرو بن العاص فقد أرسل في طلبه أبو بكر الصديق رضى الله عنه فأقبل حتى قدم إلى بلاد بني عامر ونزل بقرة بن هبيرة وقرعة يقدم رجلا ويؤخر أخرى ومعه عسكر من بني عامر فأكرم قرعة مثواه ولما أراد الرحيل خلا به قرعة وقال : يا هذا إن العرب لا تطيب لكم نفساً بالأتاوة (الرشوة) فان أعفيتها فستسمع لكم وتطيع وان أيتهم فلا تجتمع عليكم (١)

ولكن ماذا صنع عمرو ؟ أظهر لديه من الشهامة والشمع مالا يقوى عليه الاصناديد الرجال وليوثهم فأجابه على الفور جواباً يدل على استهائه بردة العرب وينم عن الهول والثبور لكل من ناوأ الدين أو أراد به شراً أو أذى حين قال : أ كفرت يا قرعة ؟ تخوفنا بردة العرب ! فوالله لأوطنن عليك الخيل في حفش (٢) أمك . وقدم على المسلمين فأخبرهم فطفقوا يسألونه فأخبرهم أن العساكر معسكرة من دبا إلى المدينة . ولما قدم بقرة بن هبيرة أسيراً على أبي بكر استشهد قرعة بعمرو على إسلامه فأحضر أبو بكر عمرًا فسأله فأخبره بقول قرعة إلى أن وصل إلى ذكر الزكاة فقال قرعة : مهلاً يا عمرو . فقال : كلا والله لا أخبرنه بجميعه ، فمغافنه أبو بكر وقبل إسلامه (٣)

(١) تاريخ ابن الاثير ج ٢ ص ١٠٧

(٢) الحفش بيت ينفرد فيه النفساء

(٣) تاريخ ابن الاثير ج ٢ ص ١٧٠ - ١٧١

أما نصيب عمرو في قتال أهل الردة فإن أبا بكر (١) أمره على جيش كثيف من المسلمين لحرب المرتدين من قضاة وكان قد حاربهم في حياة النبي صلى الله عليه وسلم في غزوة « ذات السلاسل » وأصلهم ناراحامية وقتل منهم مقتلة عظيمة وعاد من بقي منهم إلى الأسلام.

وكانت قضاة قد أنست في المسلمين الضعف بعد وفاة الرسول عليه السلام وهم لم يسلموا رغبة في الاسلام واهتداء بهديه بل دخلوا في هذا الدين ككثير من القبائل تحت عوامل الخوف أو طمعاً في مال أو جاه يصيبونه فلم يكن قد تمكن الأسلام من قلوبهم . فلما أنفذ اليهم أبو بكر الصديق هذا الجيش تحت قيادة عمرو بن العاص سار عمرو بجيشه في الطريق الذي سلكه من قبل حتى وصل الى بلاد قضاة فأعمل السيف في رقابهم وغلبهم على أمرهم وأرغمهم على أداء الزكاة والرجوع الى الاسلام وعاد الى أمير المؤمنين حاملاً لواء النصر والظفر

(١) عقد أبو بكر الألوية لخالد بن الوليد وعكرمة بن أبي جهل والمهاجر بن أمية المخزومي القرشي وخالد بن سعيد بن العاص وعمرو بن العاص وحذيفة بن محسن الغفاني من حمير وعرجة بن هرثمة البارق من الازد وشرجيل بن حسنة حليف بني زهرة ومعن بن حجاز السلمي وسويد بن مقرن من أوس والملاء بن الحضرمي حليف بني أمية .

الباب الثالث

عمر و في فتح الشام وفلسطين

(١) كتاب أبي بكر لعمر و وهو بمعمانه وانفاذه الجيوش لغزو سورية وفلسطين

انتصرت قريش على العرب فكان هم أبي بكر أن يشغل العرب والجيوش التي قهرتهم بالحروب الخارجية وكانت هذه الحروب تقي بما أمر الدين من نشر الأسلام من جهة وبما كان العرب في حاجة اليه من الاشتغال بالأعمال الخارجية عن خلافاتهم الخاصة الداخلية. فانه ما كادت حروب الردة الطاحنة التي شنها العرب بعضهم على بعض تنصرم حتي وجدنا تلك الامة الفتية تتأهب لفتح البلاد وتمصير الأ مصار ولم تكن همة عمر والكبيرة وعزيمته الماضية لتقف به عند هذا الحد بل رأيناه يخوض غمارها تارة يقود الجيوش الجرارة وأخرى ينشر الاسلام فيدخل الناس في دين الله ذرافات ووحدانا. فاشترك اشترا كاً فعلياً في فتح الشام وفلسطين وعلى يديه فتح العرب مصر .

وقد كان حكام الروم في آخر أيامهم يعاملون الأهليين بالظلم ويسومونهم العذاب فتأفف من جورهم أهالي البلاد التي كانت تحت سلطانهم ومالوا الى الخلاص من ربة الذل والاستعباد وتغيير الحال التي أصبحوا فيها على أي شكل كان . ولم تكن الروم وقد ضعف أمرهم وكادت تدول دولتهم

من القوة بحيث يتمكنون من دفع العرب عن بلادهم ، نخامر نفوسهم
شئ من اليأس فساعد هذا تلك الأمة الطموحة مع ما عليه رجالها من
الشجاعة وقوة الأيمان وعدم المبالاة بالموت على فتح الشام وفلسطين
وغيرهما من البلاد .

وقد كانت نيران الانتقام والحقد تأكل قلوب الروم من جرّاء الفارّة
التي شنها على بلادهم أسامة بن زيد . فجمع الامبراطور (هرقل) جيشاً
جراراً عسكرياً به على مقربة من حدود بلاد العرب وفلسطين .
فدعا أبو بكر الصديق رضي الله عنه المقاتلين من جميع أرجاء جزيرة
العرب فلبوا الدعوة بحمية وحماس شديدين . وكتب أمير المؤمنين الى عمرو
ابن العاص رضي الله عنه : انى كنت قد رددت على العمل الذي كان رسول
الله صلى الله عليه وسلم ولا كه مرة وسماه لك أخرى مبعثك الى عمان انجازاً
لمواعيد رسول الله صلى الله عليه وسلم فقد وليته ثم وليته وقد أحببت أبا
عبد الله أن أفرغك لما هو خير لك في حياتك ومعادك منه إلا أن يكون
الذي أنت فيه أحب اليك (الطبرى ج ٤ ص ٢٨)

فكتب اليه عمرو : انى سهم من سهام الإسلام وأنت بعد الله الراى
بها والجامع لها فانظر أشدها وأخشاه وأفضلها فارم به شيئاً ان جاءك
من ناحية من النواحي

وسرعان ما أنفذ أبو بكر الجيوش نحو الشمال عقب تجمعهم بالمدينة
بعد أن عقد لأربعة من الأمراء هم :

(١) ابو عبيدة بن الجراح : ووجهته حمص ومركز القيادة الجاية



(٢) عمرو بن العاص . ووجهته فلسطين .

(٣) يزيد بن ابى سفيان : ووجهته دمشق .

(٤) شرحبيل بن حسنة : ووجهته وادى الأردن .

وأمرهم أبو بكر أن يعاون بعضهم بعضاً وأن يكونوا جميعاً تحت إمرة أبى عبيدة . وأن يستقل عمرو بفتح فلسطين وعليه أن يمد الجيوش الأخرى اذا دعت الحاجة الى ذلك . (١)

(ب) ربيعة ابى بكر لعمر بن العاص عن سيره الى فلسطين :

وقد أثرنا ان نتتطف من هذه الوصية البليغة بضع شذرات علنا نقف على شيء من أخلاق عمرو وحرص أبى بكر على المسامحة وسلوك الامراء مع الامم التي فتحها العرب . قال الواقدي :

دعا أبو بكر عمرو بن العاص فسلم اليه الراية وقال : قد وليتك هذا الجيش (يعنى أهل مكة والطائف وهوازن ونى كلاب) فانصرف الى أهل فلسطين وكان أبى عبيدة وانجده اذا ارادك ولا تقطع أمراً إلا بمشورته . إتق الله في شرك وعلايتك واستحيه في خلواتك فانه يراك في عملك وقد رأيت تقدمتي لك على من هم أقدم منك سابقة وأقدم حرمة . فكن من عمال الآخرة وأرد بعملك وجه الله . واسلك طريق إيلياء حتى تنتهي الى أرض فلسطين .

وياك أن تكون وانياً عما ندبتك اليه وإياك والوهن وإياك أن تقول

(١) الطبرى (ج ٤ ص ٨٢) وابن الاثير (ج ٢ ص ١٩٥)

والامير على (ص ٣٤ - ٣٦) وأيرفنج (ص ١٢) ومؤير (ص ٦٧)

جعلني ابن أبي قحافة في نحر العدو ولا قوة لي به . واعلم يا عمرو أن معك المهاجرين والأنصار من أهل بدر فأكرمهم وأعرف حقهم ولا تتطاول عليهم بساططائك ولا تداخلك نخوة الشيطان فتقول إنما ولاني أبو بكر لا أني خيرهم . وإياك وخدائع النفس وكن كأحدهم وشاورهم فيما تريد من أمرك . والصلاة ثم الصلاة اذن بها إذا دخل وقتها . واحذر من عدوك وأمر أصحابك بالحرس ولتكن انت بعد ذلك مطالعا عليهم . وأطل الجلوس بالليل مع أصحابك وأقم بينهم واجلس معهم واتق الله إذا لاقيت العدو وقدم قبلك طلائعك فيكونوا أمامك .

وإذا وعظت فأوجز وأصلح نفسك تصالح لك رعيتك وإذا رأيت عدوك فاصبر ولا تتأخر فيكون ذلك نغراً منك . وألزم أصحابك قراءة القرآن وأنهم عن ذكر الجاهلية وما كن منها فان ذلك يورث العداوة بينهم . وأعرض عن زهرة الدنيا حتي تلتقي بمن مضى من سلفك . وكن من الأئمة المدوحين في القرآن اذ يقول الله تعالى (وجعلناهم أئمةً يهدون بأمرنا وأوحينا اليهم فعل الخيرات وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وكانوا انسا عابدين)

ثم قال لعمرو : أمض بارك الله فيك وفيهم . فساروا في تسعة آلاف يريدون أخذ فلسطين (١) . اهـ

ومن أنعم النظر في هذه الوصية التي ترجمها كثير من مؤرخي الفرنج مثل جبون وأيرفنج الفيناها آية في البلاغة لما لها من الأهمية في هذا

الظرف . يحذره فيها مغبة الوهن ونخوة الشيطان والمطاوله على من معه .
وينصح له أن لا يفرق بينه وبينهم فيقيم بينهم ويجلس معهم . وأن يكون
مثالا حسنا لمن معه فينصلح أمرهم بصلاح أمره . وأن لا يباشر عملا
حربيا الا بعد أن يخبر عدوه ويثبت العيون حتى لا يؤخذ على غرة أو يطوح
بهم في مهاوى التهلكة . ويرغبه في الآخرة فانها أفضل من دار الفرار
ولا ريب أن هذه النصائح الغالية مما تفيد القواد كبرى وتؤدي
إلى النصر المبين .

(ج) شروع عمرو بن عمرو في قتال الروم بفلسطين :

عمل عمرو بن العاص بما رسمه له أبو بكر في وصيته التي كانت أشبه
شيء بالخطة الحربية فسار في طريق إيلياء حتى وصل الى فلسطين ونزل
« بنجر العربات » فلما علم (هرقل) بكتائب المسلمين أراد أن يشغل كل
طائفة منهم بطائفة من جنده الكثير ليضعف بذلك قوة المسلمين . وبلغ
عمرو بن العاص أن مع الروم أكثر من مائة ألف مقاتل مما أوقع الرعب
في قلوب المسلمين فعقد راية وأعطاهما لعبد الله بن عمر بن الخطاب وضم اليه
الف فارس دأب بهم عشرة آلاف من الروم وحمل بنفسه على كبيرهم وطعنه
طعنة نجلاء فخر ميتا . فدخل الفرع والهلع قلوب الاعداء واقتتل الفريقان
قتالا أسفر عن انهزام الروم فولوا الادبار واستولى المسلمون على ما كان
معه من الاسلاب والكنائس عدا ستمائة أسير . وقتل من المسلمين على
ما رواه الواقدي (ج ١ ص ١١ - ١٢) سبعة (١) اه باختصار .

(١) ولم يرو الطبري هذه الواقعة ولعل الطبري أكثر احتياطا في رواية الاخبار

عمرو بن العاص يقاتل مائة ألف (١) من الروم

ولما لاح صباح اليوم التالى أشرفت على المسلمين عشرة صلبان تحت كل صليب عشرة آلاف . فأقبل عمرو ورتب الجند وجعل في الميمنة الضحاك وفي الميسرة سعيد بن خالد وعلى الساقه أبا الدرداء . وثبت هوفي القاب ومعه أهل مكة . وأمر الناس أن يقرءوا القرآن وجعل يحبهم في القتال ويرغبهم في ثواب الله وجنته وهم كالبنيان المرصوص . فلما شاهدتهم (رويس) بطريق الروم انكسرت حميته وسقط في يده .

ثم باشر الفريقان القتال وعمل المسلمون الحيلة في الاعداء وبمعجوا دوابهم بالاسنة وحملوا عليهم حملة منكرة ولم تزل الحرب تضطرم نارها بين الفريقين إلى الأصيل إذ أتى الله المسلمين بالنصر وولى الروم منهزمين والمسلمون في أعقابهم مسرعين . وبينما كان المسلمون يتعقبون الفالة إذ دهمتهم قوة من الروم فقتلوا سعيد بن خالد أخا عمرو بن العاص لأمه . وقد كانت خسارة الروم في هذه الموقعة خمسة عشر ألفاً وخسارة المسلمين مائة وثلاثون . ولما تمت لعمر وهزيمة الروم كتب لأبي عبيدة : قد وصلت إلى أرض فلسطين واقينا عساكر الروم مع بطريق يقال له (رويس) في مائة ألف فارس فنن الله علينا بالنصر وقتل من الروم خمسة عشر ألف فارس وفتح الله على فلسطين بعد أن قتل من المسلمين مائة وثلاثون رجلاً فان احتجت إلى سرت إليك والسلام عليك ورحمة الله وبركاته (٢) اهـ

(١) و(٢) الواقدي (ج ١ ص ١٣) . اما الطبري فقد ذكر ان هذا الجيش كان سبيعين ألفاً وذكر ابن الاثير انه كان تسعين ألفاً

لا ندري من أى مصدر جاء الواقدي بهذا الكلام الذى يقول فيه عمرو انه تم له فتح فلسطين لا تتصارد في هذه الموقعة والروم مرابطون في جميع أرجائها وغزة والرملة وبيت المقدس وأجنادين وغيرها لا تزال بأيديهم ولم يفتحوها إلا بعد اليرموك ودمشق . وكيف قوى المسلمون على مائة ألف من الروم وزيادة ولم تزد قوة عمرو عن تسعة آلاف مقاتل؟ أضف الى ما تقدم أن خسارة المسلمين في اليوم الذى سبق الموقعة الكبرى (وكانوا سبعة) وكذا خسارة الروم في هذه الموقعة قد أغفلت . فكانت خسارة المسلمين مائة وسبعة وثلاثين وخسارة الروم أكثر من خمسة عشر ألف . وما ذكره (الواقدي) في هذا الكتاب يناقض ما ذكره (الطبرى) و (ابن الاثير) و (الامير على الهندي) من أن عمرو بن العاص حين رأى (هرقل) قد سير اليهم أربعة جيوش جرارة لسحق جيوش المسلمين الأربعة مما أدخل الفزع والحيرة في قلوب القواد كاتب أبابكر وشاور قواد الشام عمراً في أمرهم فأشار عليهم بالاجتماع ليكون لهم بذلك قوة يدفعون بها العدو إذ لا يتأتى لهم النصر إلا بالمعونة ورأى أن يكون اجتماعهم باليرموك ، فكتب أبو عبيدة بما كتبوا لعمرو فوافاهم كتاب أبى بكر بما رأى عمرو . (١)

ومن هنا يعلم أن عمرو بن العاص وإن لم يكن أمير المسلمين في حرب الشام فقد عرف له المسلمون اصالة الرأي وبعد النظر فاستشاروه في مهام

(١) الطبرى (ج ٤ ص ٣١) و ابن الاثير (ج ٢ ص ١٩٨) و هو

(ص ٦٨ - ٢٨) و إيرفنج (ص ٣٧)

الامور . ويكفيه نغراً أن جاء جواب أبي بكر مطابقاً كل المطابقة لرأيه
وكان من وراء رأيه ما جناه المسلمون من ثمار الانتصار في موقعة اليرموك
مما أضعف العدو وسهل عليهم اجتناء ثمار الفوز والظفر في الوقائع المتوالية .
ولسنا نشك في ان حزم عمرو وحسن رأيه هذين الى ما أظهره من
الخدمة والمهارة من قبل - كل ذلك قد أهله لثقة عمر فيما بعد . فمع أن عمرأ
وخالد بن الوليد كنا يكادان أن ينزلا منزلة واحدة في الأسلام، ومع أن
خالدأ قد أظهر من التفوق في حرب الردة وفتح العراق والشام ما كان
يعده لأحرار المسكنة العليا فان عمر لم يرض عنه ولم يثق به ورضى عن عمرو
ووثق به طول حياته .

(د) اشتراك عمرو في وقائع اليرموك (١) ودمشق والاردن :

ومما يذكر عمرو في موقعة اليرموك التي كانت على حدود فلسطين
وبلاد العرب أن الروم حملت على المسلمين حملة هائلة فانكشفوا فولى صاحب
رايتهم منهزماً واللواء بيده . فابتدر لأخذه عمرو بن العاص وخالد بن

(١) اليرموك نهر معقد وهبته الطبيعة اسراراً والغازا ينبع من مرتفعات
حوران ويصب في الاردن جنوبي بحيرة طبرية باميال قليلة . وعلى نحو ثلاثين
ميلا من التقائه بالاردن يكون في الطرف الشمالي فتحة على شكل نصف دائرة
تحيط بسهل متسع صالح لمسكر جيش كبير . وضاف هذا النهر وعرة منحدره .
وعند مضيق هذه الفتحة عنق يكون مدخل هذه الارض المنبسطة التي في الداخل
وهذه البقعة تسمى (الواقصة) ذات الشهرة العظيمة في الوقائع الاسلامية (الامير
على ص ٣٧)

الوليد كلاهما يتسابق اليه فأخذه عمرو ولم يزل يقاتل به حتى ثاب المسلمون
وانهزم جيش الروم .

ومما يذكر له أيضاً أنه كان له نصيب كبير في يوم التعوير الذي أصاب
فيه رماة الروم أعين سبعمائة من جند المسلمين الذين فروا منهزمين ولم
يثبت غير أصحاب الرايات وقاتلت الامراء بانفسها ومن بينهم عمرو بن
العاص وأبو عبيدة بن الجراح ويزيد بن أبي سفيان وعبد الرحمن بن أبي
بكر . واشتركت النساء في القتال مع هذا النفر اليسير . وكان بعضهن
يضمدن الجروح أو يسقين الماء وكثير منهن يقوين المسلمين الفارين
فيستنهضن الهمم ويقوين العزائم ويثرن الحماس في قلوب الرجال . فكروا
على العدو كالجبال الراسيات حتى كان النصر . (١)

ومن هذه الحادثة تتجلى شجاعة عمرو وكأنه أراد أن يكون ارتداد
العدو على يديه ، فسبق خالداً لأخذ الراية وقد أحاطت به جند الروم فنسى
نفسه حباً للجهاد وما بالي بمن حوله من الروم حين جاهد مع غيره من
الامراء وصبروا على قتالهم صبر الكرام وقتلواهم قتال المستميت وهم
نفر يسير .

مات أبو بكر وتولى عمر فأقر الأمراء على ما كان استعملهم عليه
أبو بكر إلا ما كان من عمرو بن العاص وخالد بن الوليد فانه ضم خالداً إلى
أبي عبيدة وأمر عمرهما بمعونة جند المسلمين حتى يصير الحرب إلى
فلسطين ثم يتولى حربها . وقد سار جيش المسلمين ينساب من بين الاديغال

والخدائق ككتيبة عقب كتيبة وعلى المقدمة عمرو بن العاص في تسعة آلاف ومن ورائهم كتائب المسلمين وقوادهم. فلما وصلت جيوش المسلمين نزل عمرو بن العاص بباب (الفراديس) وشرحيل بن حسنة بباب (توما) وقيس بن هبيرة بباب (الفرج) وأبو عبيدة بباب (الجابية) وبقي خالد بالباب الشرقي . وقد شدد المسلمون الحصار على أهل دمشق سبعين يوما ولم تجد لهم منعة حصونهم وما عليها من المنجنيقات وغيرها من آلات الدفاع فتيلًا . وقد منع المسلمون المدد من أن يصل إليهم ونفذت المؤن من عندهم فجنحوا إلى الصلح .

وبعد فتح دمشق سار المسلمون نحو خل وعليهم شرحيل بن حسنة ، فبعث خالدًا على المقدمة وعمرو بن العاص على مجنبتيه وعلى الخليل ضرار ابن الأزور وعلى الرجل عياض ، فاستولى المسلمون على خل ويسان وطبرية وقتلوا من الروم ثمانين ألفًا كما ذكره الطبري وياقوت (١ ص ٣٤٠)

(هـ) عمرو وموقعة أجنادينه (١)

اشترك عمرو بن العاص في وقائع اليرموك ودمشق وخل ويسان بعد أن هزم للروم الجيوش الجرداء بفلسطين . فكان أعماله الحربية لم تكن قاصرة على فلسطين فحسب بل شملت الأردن وامتدت إلى سورية : أعنى أنه منذ وطئت قدمه هذه البلاد قضى وقته في الطعن والنضال وقيادة

(١) ذكرها ياقوت في معجمه فقال : أجنادين (بالتفتح ثم السكون ونون والف) هو موضع معروف بالشام من نواحي فلسطين وهي من الرملة من كورة بيت جبرين كانت به وقعة بين المسلمين والروم .

الجيش. ولما تم له ما أراد صرف همهته الى القضاء على قوة الروم بفلسطين وفتح مالم يفتح بعد من بلادها. فبينما كان ابو عبيدة يفتح المدن الواقعة شمالي الشام كحمص وحماه وقنسرين وحلب واللاذقية وغيرها لم تكن فتوح عمرو بفلسطين وانتصاراته الباهرة باقل نجاحاً منها.

وقد كان على فلسطين وال رومي يدعى (أرطوبون) (١) كان عند الروم كهرو بن العاص عند العرب في الدهاء وقد وضع جندا عظيماً ببيت المقدس وغزة والرملة بينما خيم بجنده الكثيف بأجنادين. (٢)

ولما رأى عمرو أن القوة التي مع الروم أقوى مما كان يظن كتب الى عمر بن الخطاب رضي الله عنه يخبره الخبر. فقال عمر رمينا أرطوبون الروم بأرطوبون العرب فانظروا عم تنفرج. وكتب أمير المؤمنين الى القواد أن يسيروا الى قيسارية والرملة وإيلياء (بيت المقدس) كي يشغلوا الروم عن عمرو.

سار عمرو وعلى مقدمته شرحبيل بن حسنة وعالج كسر قوة (أرطوبون) فلم يوفق ولم تشفه الرسل فولىه بنفسه فدخل عليه كأنه رسول فابلغه ما يريد وسمع كلامه وتأمل حصونه حتى عرف ما أراد. فحدث أرطوبون نفسه بأنه عمرو بن العاص فوضع له في الطريق من يقتله، وفطن له عمرو فاحتال بما عرف عنه من الدهاء ونجا من شره. وعلم

(١) ذكر بطار (ص ٢١٥) ان لفظ (ارطوبون) الذي يطلقه العرب على هذا القائد خطأ. والصحيح «أريطيون»

(٢) الطبري (ج ٤ ص ١٥٧) ما وهورت (ج ١ ص ٢٨٤)

(ارطوبون) بحيلته فقال: خدعنى الرجل هذا أدهى الخلق ، وبلغ ذلك عمر ابن الخطاب فقال : غلبه عمرو ولله عمرو . ووقف عمرو بنفسه على حالة الروم فزحف بجنده واقتتلوا قتالا شديداً لا يقل هولا عن قتال اليرموك فانهمزم (ارطوبون) فى ثمانين الف من الروم وأوى بالقالة إلى ايلياء . وكان ذلك سنة ١٥ هـ (٦٣٦ م)

وقد اضطربت كلمة المؤرخين فى السنة التى هزم المسلمون فيها الروم بأجنادين . فذكر بعضهم « كالواقدى وياقوت وايرفنج » ان ذلك كان سنة ١٣ هـ عقب فتح بصرى حيث سار العرب لحصار دمشق ، ثم عدلوا عن حصارها ريثما يتم لهم فتح أجنادين وقد علموا أن « هرقل » أنفذ إليهم مائة الف من الروم تحت قيادة « وردان » « ١ » وان موت أبى بكر كان قبيل فتح دمشق سنة ١٣ أيضاً . وهو يخالف ما ذكره غيرهم « كالطبرى والبلاذرى واليعقوبى وابن الاثير » أن موقعة اليرموك لا اجنادين هى التى سبقت فتح دمشق : أعنى سنة ١٣ هـ . وأن واقعة اجنادين كانت سنة ١٥ هـ . على أن المؤرخين الأفرنج ومعهم الواقدى قد ذكروا أن العرب اشتبكوا باجنادين مرتين : مرة قبل فتح دمشق أى سنة ١٣ هـ ، ومرة أخرى بعد واقعة اليرموك سنة ١٥ هـ . ونحن نميل الى أن اجنادين كان بها واقعتان ، احدهما سنة ١٣ ثم اشتغل الفريقان بغيرها من البلاد ، ثم عاد اليها المسلمون بعد ذلك .

(١) قال ياقوت (ج ١ ص ١٢٦) ان قائد الروم كان (ارطوبون) كما ذكرنا

على أن رواية الطبري عن ابن اسحق « ج ٤ ص ٤٥ » توافق ما ذكره الفرنج ، وهو أن فتح اجنادين كان سنة ١٣ هـ حيث جتمع المسلمون مدداً لعمر بن العاص .

الا الفرنج والواقدي يقولون ان عمرو بن العاص أوى مدداً لخالد بن الوليد على أثر كتابته له ولغيره من الأمراء المتفرقين بالشام (الواقدي ج ١ ص ٣٤) .

فاذا أغفلنا واقعة أجنادين الأولى تيسر لنا بعض التوفيق بين روايات المؤرخين المتناقضة . وعلى كل حال فليس غرضنا ترتيب الوقائع فليس هذا من شأننا .

وقد يكون التخبطي ترتيبها راجعاً لوقوع بعضها في أوقات واحدة ، وإذ ثبت لدينا أن هذه الوقائع قد وقعت بالفعل فما عينا إلا أن نذكر منها ما عسى أن يكون له علاقة بعمر بن العاص ، لان التصدي للبحث في الترتيب يخرج بلا ريب عن موضوع رسالتنا .

وكان من نتائج انتصار عمرو على « الارطبون » ان أذعنت لسلطان العرب كل من يافا ونابلس وعسقلان وغزة والرملة وعكا ، ويروت ولدة والجبلة - فتحت أبوابها لهم من غير قتال إلا بيت المقدس

(و) عمرو وفتح بيت المقدس :

كان عمرو بن العاص المتولى فتح فلسطين وكانت حاضرتها بيت المقدس أو إيلياء حيث لجأ إليها الفالة من موقعة اجنادين فمسكروا فيها ونصبوا على أسوارها المنجنيقات .

وكان عمرو قد أخذ يتم فتح مدن فلسطين وقراها ، ففتح غزة ولد ونابلس وبيت جبرين .

فلما أتم هذا الفتح قصد بيت المقدس وأخذ يخبر (الأرطبون) مخبرة حبيبة ويطلب إليه تسليم المدينة والأرطبون ممتنع عليه وكتب الى عمرو بن العاص (وعمرو لا يزال باجنادين) كتابا يقول فيه .
انك صديق ونظيرى ، أنت فى قومك مثلى فى قومى ، والله لا تفتح من فلسطين شيئاً بعد اجنادين فارجع ولا تغر فتلقى ما لى الذين قبلك من الهزيمة .

فدعا عمرو رجلا يتكلم بالرومية فأرسله الى (ارطبون) وأمره أن يغرب ويتنكر وقال :

استمع ما يقوله حتى تخبرني به إذا رجعت وكتب إليه :
جاءنى كتابك وأنت نظيرى ومثلى فى قومك لو أخطأتك خصلة تجاهلت فضيلتى وقد علمت أنى صاحب فتح هذه البلاد .

فخرج الرسول حتى أتى (ارطبون) فدفع إليه الكتاب بمشهد من النفر فاقرأه فضحكوا وتعجبوا وأقبلوا على (ارطبون) فقال من أين علمت انه ليس بصاحبها ؟ قال : صاحبها رجل اسمه عمر ثلاثة أحرف . فرجع الرسول الى عمرو فعرف انه عمر . وكتب الى عمر يستعده ويقول :
إنى أعالج حرباً كؤوداً صدموا (كناية عن شدتها) وبلاداً أدخرت لك فرأيك . (١)

(١) الطبرى (ج ٤ ص ١٥٧) وقد قيل إن عمر أنقذ أبا عبيدة لفتح ايلياء

والذى نميل إليه أن عمرو بن العاص لما عالج الشدائد من قتال الروم وأشجوه وأشجاهم كتب بأمره الى عمر فرأى أنه الجد، فخرج الى الشام واستخلف على بن أبى طالب وكتب الى الأمراء الذين لا يجدون فى نواحيهم كبير قتال ولا يتخوفون أن يداهمهم عدو وان يوافوه بالجاية فوافوه . فلما رأى الروم ذلك خافوا العاقبة وأم الارطبون مصر ورق بقية جند الروم وأهل البلاد فطلبوا الصلح - ومن سار على هذا رأى حضرة الأستاذ الشيخ عبد الوهاب النجار .

أنزلت المنجنىقات التى نصبها الروم على أسوار مدينة بيت المقدس الخسائر الفادحة بالعرب الذين قاسوا الأمرين من شدة البرد وقد أتاهم الشتاء . وقد ظل المسلمون على حصارهم أربعة أشهر لم يمض منها يوم واحد من غير قتال .

فشاهد أهل ايلياء من المسلمين الجد فى الحرب والصبر فى القتال وقد عدوا الاستيلاء عليها دينياً اكثر منه سياسياً لأنهم كانوا يعظمون بيت المقدس بعد مكة والمدينة لكونها معبد الارض المقدسة ومقر وحى عيسى عليه السلام ، وبها قبور كثير من الانبياء . وقد كتب أبو عبيدة الى أهالى ايلياء يدعوهم الى الأيمان بالله وبرسوله أو الدخول فى طاعة المسلمين ودفع الجزية وان أبوا فيحل جند المسلمين بأرضهم ويفتكون

فوجه يزيد بن أبى سفيان فى خمسة آلاف ثم لحقه هو ببقية جند المسلمين ومن بينهم عمرو بن العاص .

وبعيد جداً أن يفرق « ارطبون » بين لفظى عمرو وعمر .

برجالهم ويستحلون عيالهم . فارتاعوا من هول هذا التهديد وعقد رؤسائهم الاجتماعات المتواصلة للنظر في حالهم والعمل على تخفيف ما حل بهم . (١) نظر أهل ايلياء الى حالتهم فوجدوا أنفسهم في ضنك عظيم وحصار شديد وقد أيقنوا بانقطاع المدد عنهم واستيلاء المسلمين على أطراف الشام ومدنها العظام وأنهم مأخوذون لا محالة ، وان دولة الروم دالت وسلطتهم عن البلاد زالت ، وخافوا إذا سلموا المدينة للمسلمين أن لا يصالحوهم على ما صولح عليه أهل المدن الأخرى لكثرة ما لاقى المسلمون في حربهم من العناء وما بذلوا في قتالهم من الدماء ، ولما تحقق عندهم أن بيت المقدس مكرم عند المسلمين لأنه محل الاسراء ومقر الانبياء . والظاهر أنهم خافوا لهذا السبب على كنيستهم العظمى أن ينزعها منهم المسلمون وقتلهم المقدسة ان يجرمها منهم الفاتحون . فأخذ الروع بقلوب أهل بيت المقدس فرأوا تأكيداً للامان وتوثيقاً لعرى العهد أن يباشروا ذلك مع أمير المؤمنين عمر ابن الخطاب رضي الله عنه ، فطلبوا من الأمراء حضوره بنفسه . ولم تكن إلا عشية أو ضحاها حتى ظهر بطريقهم (سفرونيوس) على الاسوار طالباً التسليم على أن يكون المتولى للصالح أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، فكتبه الأمراء في ذلك فرضى عمر ورحل إلى الجالية وكتب لأهل ايلياء كتاباً أشهد فيه القواد من المسلمين ومن بينهم عمرو بن العاص . وقد وردت صورته في كثير من كتب التاريخ . وكان فتح ايلياء سنة ١٦ للهجرة أو أواخر سنة ١٥ هـ (٦٣٥ م) (١)

(ر) عمرو وهزيم فلسطين به هرقل :

ظل عمرو مع جيشه بفلسطين ردحاً من الزمن للقضاء على القوة التي كانت لا تزال مع (قسطنطين بن هرقل) فسار الى قيسارية (قيصرية) حيث عسكر قسطنطين بجيش كثيف . وقد تغلبت على هذا الأمير عوامل الخوف حين علم بسقوط طبرية في قبضة العرب وهروب والده من انطاكية ، وتوهم وقد تملكته الهواجس أن عمرو بن العاص اخترق أسوار المدينة فأنسل من قصره هو واسرته خفية ورحل إلى القسطنطينية كما رحل أبوه من قبل . ولما أصبح الصباح وقد علم الأهليون بهرب أميرهم سلموا لعمرو فقبل منهم . وسرعان ما وافق على الشروط وقد اتقت نفسه للرحيل لغزو مصر . وكان ذلك سنة ١٧ هـ (٦٢٩ م)

اضمحل بعد ذلك سلطان الروم من البلاد السورية بعد حروب طويلة لاقى المسلمون في غضونهما المشاق والاهوال وقاسوا طويلاً من شدة بردها ، وقتل من جندهم عدد غير قليل سيما في وقائع اليرموك ودمشق وبيت المقدس وحلب ، فكان عدد من قتل في حروب الشام كما ذكر (ايرفنج) يناهز خمسة وعشرين ألفاً من المسلمين مما جعل ثمن هذه البلاد عليهم غالياً والدماء التي أهدرت عزيزة .

(١) راجع : الطبري (ج ٤ ص ٢٤٩) ، أشهر مشاهير الاسلام (ج ٢ ص ٢٢٦) وبطل (ص ١٦٦) وهورت (ج ١ ص ٢٣٥) وموير (ص ١٤٣ — ١٤٤)

وقد رأينا أن عمرًا قد وقف في هذه الحروب موقف الذي لا يضمن
بحيائه ولا بقوته على المسلمين ، وهو مع ذلك كان يبذل ما يستطيع من جهد
لحقن دمائهم وبذل أقل ما يمكن منها في سبيل الحرب .
فهو في الوقت نفسه قائد شجاع ومدبر ناصح ، له من الحزم والأناة
حظًا قلما ظفر به غيره من قواد المسلمين إذ ذاك .



الكتاب الثاني

عمر وكزعيم من زعماء الدولة العربية

الباب الاول

﴿ حال مصر قبيل الفتح الأسلامى ﴾

ولنترك الآن عمراً فى فلسطين يتهباً للزحف على مصر ونلقى نظرة فى حالة هذا البلد الجديد فرجع للوراء زهاء قرنين لنأتى بمجمل حال تلك الأمة الدينية والسياسية من أيام قسطنطين : أى منذ القرن الرابع الميلادى حتى الفتح الأسلامى . ليتبين كم قاسى أبناؤها من حمل النير الأجنبى ولنعرف كم كانت تروح تحت أعباء تلك الفتن وتئن أنين الشكلي مما كان يفتك بأهلها من الظلم ويستنزف دماءهم من المكوس والضرائب وتستأصل زهرة شبابهم الاختلافات الدينية والحروب الاهلية حتى أصبح أهلها يفضلون الموت على حياة كلها تعاسة وشقاء وظلم وبلاء .

(١) الحالة المبريئة

كانت الأمة المصرية وثنية إلى عهد القيصر (أغسطس) الرومانى حيث ولد المسيح عليه السلام .

فأصبحت تتوالى النقم من قياصرة الروم على النصارى قتلاً وتعذيباً

وتشريعاً حتى جاء القيصر (دقلديانوس) فأغلق كنائسهم وأسرف في قتلهم ولم يفر عنهم يوماً واحداً لاستئصال شأفتهم وإبطال النصرانية .
وكان يرجع وقوع ثورة المصريين في عهد (دقلديانوس) الى سببين :
أحدهما سياسى ، والاخر دينى

ففي الشطر الاول من حكم (دقلديانوس) قامت الثورات في الاسكندرية ، فقد ثار أحد الضباط المدعو (لوسيوس ديميتيوس دومتيانوس) وكان رومانيا لقبه المصريون أخيلوس ونادوا به إمبراطوراً ، لذلك اضطر دقلديانوس الى الحضور بنفسه الى مصر لاختماد هذه الثورة التي لم يفرغ منها الا سنة ٢٩٦ م . وحاصر مدينة الاسكندرية ثمانية شهور ثم استولى عليها عنوة ، وكانت نتيجة هذا الحصار الطويل أن دمر أكثر أبنية المدينة . وقد حلّ بالاسكندرية البؤس والشقاء من جراء الحصار الذي حصل في ثورة أمليانوس حتى أن دقلديانوس أصدر أمراً بأن جزءاً من الغلال التي كانت ترسل إلى رومة يوزع على الأهالي فيها .

أما الشطر الأخير من حكم دقلديانوس فكان عصر هياج واضطراب بسبب اضطهاد المسيحيين .

وكان يرمى نظام الحكومة الجديد الى التشدد في تقديس الأباطور وإكباره الدينى ، فبعد أن كان فيما مضى الرئيس الدينى الأعظم أصبح في عصر دقلديانوس وبواسطة التأثير الشرقى أشبه شبه باله يعبد تقدم له القرايين ويعبد كما تعبد الآلهة ، ليكون بذلك أكثر أماناً على نفسه من الاغتيال كما حصل لكثير من الأباطرة العسكريين الذين تقدموه في

القرن الثالث كله .

فأثارت هذه السياسة سخط المسيحيين ودفعتهم إلى المقاومة . وكان الشجار الذي أثاره هذا العمل في مصر أشد منه في أى بلد آخر مع أن تقاليد المصريين القديمة هي التي سهلت الأمر على الحكومة وجعلتها تتوقع نجاح سياستها وتنتظر من الأمة العمل من أول الأمر بأكثر من رغبتها فيتسابق المصريون إلى تأليه دقلديانوس كما ألهموا دليجولا من قبل ، غير أن التعصب المصرى لدينهم كان لا يزال شديداً ينفجر بركانه لأوهى الأسباب حتى عند الذين اعتنقوا الدين المسيحى - لذلك لقي الرومانيون في سبيل تأليه الأمبراطور على الرغم من مجهوداتهم الكثيرة مقاومة عنيفة وعناداً كبيراً وصلوا إلى حد الجنون . (ملن ص ٨٧)

والظاهر أن دقلديانوس وغيره من إمبراطرة الرومان كانوا يعتبرون المسيحيين خارجين على الدولة والدين الرسمى ، فلم يكن بد من الضرب على أيديهم ابتغاء رجوعهم إلى الوثنية - وعلى ذلك فلم يكن قصدهم اضطهاد المسيحيين بل ردهم إلى الطاعة والخضوع للقوانين العامة ، وإن كان بعضهم قد أسرفوا في قتلهم وتعذيبهم اسرافاً شنيعاً جرّ عليهم سخطهم وكرهيتهم كما أسرف بعض الأمبراطرة المسيحيين في اضطهاد الوثنيين حين أصبحت المسيحية ديناً رسمياً للإمبراطرة .

ومن الصعب الجزم بعدد من قتلوا في مصر في عهد دقلديانوس ، إلا أنه من المؤكد أن عددهم كان عظيماً وأن الاضطهاد تناول جميع الطبقات وقد بدأ الاضطهاد بالبلاد المصرية سنة ٣٠١ م . وأظهر فيه دقلديانوس

قسوة لا مثيل لها جرّت عليه كراهة المصريين وحنقهم حتى ظلوا يرون فيه إلى اليوم مثالا للظلم والاستبداد ، وصاروا يؤرخون حوادثهم من سنة اعتلائه العرش (٢٨٤ ب . م) ويسمي هذا التاريخ عندهم « تاريخ الشهداء » كما هو معروف .

ولما جاء (قسطنطين) (٣١٣ - ٣٣٧ م) اعتنق المسيحية سنة اعتلائه العرش ، فأصبحت المسيحية الديانة الرسمية للأمبراطورية . ولكن المسيحيين في مصر ما كانوا يخلصون من اضطهاد الحكومة حتى وقعو في اختلافات مذهبية دينية لم يصلوا بعد إلى التوفيق بين بعضها وبعض . وكان النزاع الذي قام بين « أناسيوس » و « أريوس » على كنه العلاقة التي يمكن أن تكون بين الله وبن عيسى ، أو بين الأب والأبن ، فوق ماله من الأهمية الدينية سبباً لنتائج سياسية غيرت وجه تاريخ الديار المصرية تغييراً كلياً . فان العلاقات بين الأمبراطور والشعب الاسكندري لم تكن سلمية يوماً من الأيام . فان هذا الشعب قد ساعد (مكسيمينوس) و (لسينوس) خصميه للدين ، ربما كان هذا الحادث الذي دعا الأمبراطور الى جعل عاصمته مدينة يزنطية . ولم يكد تيودوسيوس « (٣٧٨ - ٣٩٥) يقبض على زمام الاحكام حتى أصدر سنة ٣٨١ م قراراً يقضى بتنصير الأمبراطورية ، فأغلقت الهياكل والمعابد ولاقى الوثنيون في مصر أثناء ذلك ما لا يقل هولاً عما لاقاه النصارى قبلهم . (١)

ولم تكن بين المصريين والروم ما يفرق بينهم من حيث معتقداتهم

الدينية ، ولكن حصل بعد ذلك ما فرق بينهم في المعتقد لاختلاف المذاهب وقسمهم الى قسمين متفاوتين : يعقوبية ، وملكية .

فأما : ثانياً : هم الذين يعتقدون أن الطبيعة الألوهية والبشرية في المسيح امتزجتا فكان فيه طبيعة واحدة . وعليه فلم يعد إنساناً كاملاً ، فكان عند التجسد ذا طبيعتين ، وأما بعده فصار ذا طبيعة واحدة .

والملكية : هم الذين يعتقدون أن الابن مولود من الأب قبل كل الدهور غير مخلوق ، وهو جوهره ونوره ، والابن اتحد بالإنسان المأخوذ من مريم فصارا واحداً وهو المسيح .

فاتفق البابا مع القيصر « مرقيانوس » (٤٥٠ - ٤٥٧ م) على عقد مجمع عام في (خلقدونية) سنة ٤٥١ م . فأنهى الأمر بعزل (ديوسقوروس) بطريرق الاسكندرية ومؤسس اليعقوبية وبحطه من كل خدمة كهنوتية وكتب الى جميع مملكته ان كل من يقول بقول ديوسقوروس يُقتل .

وأنفذ مكانه أسقفاً أرثوذكسياً . غير أن الأهلين جاهدوا بالثورة ضد البطريرق فاضطرت الفرق الأمبراطورية التي كانت ترافقه إلى الضرب على أيديهم وزج زعماء الثورة في هيكل (سيرابيس) الذي أحرق بمن فيه ، وأُيِّحت المدينة للسلب والنهب قبل أن يتمكن الأسقف الجديد من الجلوس على كرسى البطريرقية في الاسكندرية - وعقب ذلك أصدر الحاكم الأوامر المشددة بإبطال أيام الأعياد العمومية ، وإقفال الحمامات ، وإلغاء إعانة الغلال (١)

وما زالت هذه الاختلافات الدينية منشأ لمصائب المصريين - إن قام قيصر ملكى أمر باضطهاد اليعاقبة وإذلالهم - وإن قام قيصر يعقوبي فعل العكس ، والرزايا على كلتا الحالتين تتتاب الرعية . وأشنع ما أصاب المصريين فى هذا السبيل كان فى عهد القيصر « يوستينوس » (٥١٨ - ٥٢٧ م) الذى تساهل فى بادئ الأمر منتظراً سنوح الفرصة لحسم النزاع - وقد أنفذ بطريقاً ملكياً إلى الاسكندرية ، فجاهر الأهالى بالثورة ووقعت على أثر ذلك معركة دموية فامتلات الشوارع بأشلاء القتلى من الأهالى والجند ، وأحرقت عاصمة الإمبراطورية الرومانية الثالثة .

وأقام الأهالى بطريقاً يعقوبياً ، وانسحب البطريق الرومانى أو الملكى ، ولم تقوى القوى الإمبراطورية على شد أزره .

لما رأى (يوستينانوس) أن بغض المصريين لبطارقة الروم قد بلغ أشده ، وأيقن أن التساهل لن يجديه نفعاً ، عول على مقابلة الشدة بمثله ، فأنفذ « أبولينارىس » إلى الاسكندرية - فدخل المدينة فى زى العسكرية (٥١١ ب م) ووزع الجنود المسلحين فى الشوارع وأحاط بهم أسوار الكنيسة وأكثر منهم فى صدرها للمحافظة على شخصه . ولما طلع المنبرزع ثياب الجند ، فظهر لهم مرتدياً بثياب بطريق الاسكندرية . فأخذت الدهشة من الأهلى كل مأخذ وهم أبولينارىس يقدر فانهالت عليه اللعنات من جميع الحاضرين وأخذوا يرجونه بالأفواه والحجارة . ولم تكن إلا اشارة واحدة من البطريق حتى داهمت جنوده الأهلى وأعملوا السيف فيهم ، حتى خاض الجند فى الدماء . قال (جبون) : ويقال إنه قتل

بالسيف في هذا اليوم مائتا ألف - وكانت نتيجة هذه الواقعة أن انتقلت جميع أملاك الكنيسة في مصر إلى يد حاكم الإسكندرية (١)
والظاهر أن قيصر الروم لما رأى أن يضع حداً لهذا الشجار منح البطريق مركز الحاكم في مصر حتى يتسنى له تحصيل الجباية وتموين رومة بالغلال بما له من القوى الحربية لتأييد السلام .

ظل حكام الروم بعد ذلك لا يفترون عن إيقاع الأذى بالمصريين - فرفض هؤلاء لغة اليونان وعاداتهم وأصبح كل ملكي في نظرم غريباً عنهم وكل يعقوبى منهم . وقد اعتبروا الزواج منهم والاشتراك معهم في المناصب جريرة لا تغتفر .

ولم تكن طاعتهم للأباطور وتنفيذ أوامره إلا إرغاماً تحت ضغط قوته الحربية .

وكان أقل مجهود يكفي لانتقاد الدين ورد حرية مصر المسلوقة . وقد كان من التيسر أن تخرج الأديرة (وعددها زهاء ستمائة) عشرات الآلاف من المقاتين الذين أصبح الموت أحب اليهم من الحياة المفعمة بالبؤس والشقاء ، ولكن التجربة قد دلت على العكس ، ذلك أن هؤلاء المعتصين لديهم الذين كانوا يتحملون آلام (الخازوق) وغيره من آلات التعذيب بلا تأوه سُرعان ما كانوا يرتجفون ويولون الأدبار أمام عدو مسلح ، فلم تكن لديهم من سبيل للخلاص مما هم فيه الا بقوة أجنبية كقوة خسرو ملك العجم (٦١٥ - ٦١٧ م) التي أنقذت اليعاقبة من نير

الروم ردحاً قصيراً من الزمن انتصر بعدها هرقل (٦٢٧ م .) على العجم وجدد الفطائع وزاد عليها ، ففر البطريق بنيامين الى الصحراء .
 الا أن صوتاً قوياً أمره عند فراره « انتظر » حتى اذا ماتم عقد
 عشر سنوات سارت نحو بلادهم قوة أجنبية لخلاصهم مما حل بهم من
 الظلم وما حاق ببلادهم من الفقر : وهذه القوة هي جند العرب . (١) اه
 بتصرف

هذا بمثل حال المصريين الدينية سيما في القرن الذي كان قبل الهجرة ،
 فقد كان أشد القرون على المسيحيين من أهل مصر هولا . أصابهم
 فيه من القياصرة المسيحيين ما لم يصيبهم من القياصرة الوثنيين .

وكانت هذه الرزايا سببا لكرهه المصريين حكم الروم عليهم وتشوقهم
 الى الخلاص من هذه النكبات . وكان بنيامين هذا ممن يبغيضون الروم
 بغضاً شديداً ، وذلك أن (هرقل) لما قدم الى مصر بعد هزيمته للفرس
 طلب (بنيامين) ليقتله فلم يظفر به لفراره - وظفر بأخيه « مينا » فأجرقه
 بالنار عداوةً لليعاقبة ، لذلك لما ورد المسلمون مصر كان (بنيامين) هذا
 يكتب الى من في طريقهم من الأقباط ألا يهتموا بدفع العرب ولا
 حربهم . فكان عمرو لا يدافع أثناء مسيره من الفرما الى بابليون إلا
 بالشيء الخفيف .

يعلم مما تقدم ، كم عانى المصريون من المحن والاهوال في سبيل معتقداتهم
 الدينية .

(ب) الحالة السياسية

استولى الرومان على مصر سنة ٣٠ ق. م فأصبحت كملك خاص للامبراطرة ، وفي عهدهم تحولت العناية الى الزراعة فكانت كأنها مخزن غلال لرومة تفي بحاجتها من الحبوب ، فدرست آثارها وانحطت درجة العلم التي كانت بها .

وكانت الدولة الرومانية وثنية النزعة ، وفي عهد هادخل الدين المسيحي مصر كما ذكرنا فقاسى أتباعه الشدائد والمحن . وقد انتهت هذه الدولة (وهي الدولة الرابعة والثلاثون) بقيام طيوروسيس (٣٧٨ - ٣٩٥ م) وتقسيمه المملكة الرومانية بين أولاده سنة ٣٩٥ م . (١)

ومن عهد هذه الدولة (وهي الخامسة والثلاثون) انتشرت الفتن الدينية . وكان أفضع الفتن التي حلت بمصر في القرن الذي قبل الهجرة ، ففيه تفاقم النزاع بين الملكية واليعاقبة .

وكثيراً ما سببت هذه الفتن النحس للأهالي فقد زاد القيصر (نيرون) المال المقرر على البلاد المصرية فأصاب الأهالي من جراء ذلك محن ثقيلة ، فكثرت الفتن وظهر العصيان وقام الأهالي في الأزقة والحارات

(١) نقل قسطنطين عاصمة الدولة من رومة الى (بيزنطية) سنة ٣٣٠ م . وسميت من ذلك الحين بالقسطنطينية نسبة الى قسطنطين الاكبر . وبعد وفاة قسطنطين قسمت الدولة بين أولاده الثلاثة ثم اتحدت ثم انقسمت مرة أخرى الى ان تم تقسيمها النهائي سنة ٣٩٥ م . الى قسمين : الدولة الغربية وعاصمتها رومة والشرقية وعاصمتها القسطنطينية

وكثرت الحرائق في كثير من الجهات واضمحل الأمن في القرى وكثر قطاع الطرق ، ولم يكن لكل هذه البلايا من سبب سوى الاختلافات الدينية .

كانت مصر محرومةً من الحقوق الرومانية ، وقد منع أغسطس الأسكندريين من الوصول إلى هيئة مجلس الشيوخ فوقف ذلك المنع حجر عثرة أمام كل كفاءة تسمح لهم بتقلد الوظائف الرومانية العالية في إدارة المالية والنيابة عن العامة والقضاء والقنصلية ، إلا أنه في عهد سبتيم سيفير (١٩٢ - ٢١١ م) منح الاسكندريون مجلساً للشيوخ وأنشأ الأمبراطور مجلساً بلدياً في بعض مدن أخرى . وبهذه المنحة خفف على المصريين ذلك الضغط فأصبح في الاسكندرية نواب وتبوا أسكندريون في رومة مقاعد أعضاء مجلس الشيوخ . وفتح تباعاً لذلك الوصول إلى الوظائف العالية التي كانت محرومة على الاسكندريين الحاصلين على الحقوق السياسية الرومانية .

وقد حدث انقلاب أشد خطورة من الانقلابات التي حصلت من قبل حين أعطي (كراكلا) جميع رعايا الدولة الحقوق الوطنية ، فشمّل هذا المنح المصريين ، إلا أنهم لم ينحوا سلطة عليا ولم يسند إليهم عمل مما يمهّد لأعضاء مجلس الشيوخ .

فتحت أمام الأسكندريين أو بالحرى اليونانيين الذين كانوا يكونون السواد الأعظم من السكان أبواب المناصب العالية بينما حرم غيرهم من المصريين الوصول إلى هذه الوظائف ، مما قضى عليهم بالضعف والتمول

وزاد سخط المصريين على الحكم الروماني ، بينما رفعت عن عواتقهم (اليونان) بعض الضرائب مما كان يدفعه المصريون ، وقد زادت الضرائب في عهد الرومان زيادة فاحشة حتى لم يعد شيء من الاشياء يخلو من ضريبة مفروضة عليه .

وقد أثقلت هذه الضرائب كاهل الناس فقد شملت كما قال المؤرخ (ملن) الأشخاص والأشياء . فكانت على الرؤوس والصناعات على اختلاف أنواعها ، وعلى الماشية والأرضين ، ولم تكن مقصورة على أنواع خاصة من البضائع بل كانت تجبى على المارة رجالا ونساء - تجارا وغير تجار - وما معهم من سائر الاشياء حتى الموتى . ومن صناعات السفن ، ومن العاهرات ، ومن زوجات الجنود ، وعلى تذاكر المرور ، ولحتم التذاكر ، وعن أثاث المنازل ، وعن شراعات السفن ، وعلى الصارى ، وعن كل جنازة تخرج إلى الصحراء . ولم يقتصر الأمر على هذه الضرائب الى كانت تدفعها الأهالى الذين أصبحوا في شر ما يكون من الفاقة بل كانت هناك تكاليف أخرى غير مألوفة رزح تحتها المصريون ، وأخصها إيواء الموظفين الملكيين والعسكريين حين مرورهم في الكور ، وتقديم ما يلزم لهم من الحاجيات وتوفير وسائل الانتقال ليتسنى لهم بذلك إتمام سفراتهم . ولقد أثقل هؤلاء الموظفون على الأهالى وحملوهم من الكلفة ما أثوا منه كثيراً . وفي السنين الأخيرة من الحكم البيزنطي كان على المصريين أن يقوموا بغذاء الجنود (١) وكان للتقسيمات الدينية التي حدثت في الكنائس المسيحية في مصر

أهمية سياسية لا يستخف بها ، فقد كانت هذه الاختلافات الدينية فاتحة للاختلافات الكثيرة التي انتهت بفصل كنيسة رومة عن كنيسة القسطنطينية ، وكان من نتائجها ضم السلطتين الروحية والزمانية في شخص (أبوليناريس) المتقدم ذكره . وكان من نتائج الاختلافات الدينية التي قامت بمصر دخول هذه البلاد تحت حكم الفرس فترة قصيرة من الزمن ثم تحت حكم العرب وضياعها من الروم إلى الأبد . (١)

هجرة مصر ازاء ما طالع بين الروم والفرس فيها

هدد الفرس الروم أثناء القرن السادس كله ، وظلوا يتقدمون نحو حدود الدولة الرومية في جموع كثيفة . وشعر الناس بخطر هذه التقدم في البلاد المصرية في الوقت الذي آل فيه الملك لهرقل (٦١٠ - ٦٤١ م) فان الجيوش الفارسية بينما كانت تتقدم نحو الغرب كان أهل سورية وفلسطين يغادرون أوطانهم زرافات ووحداً فراراً من وجه المغيرين ملتجئين إلى مصر ، ولما وصل الاعتداء إلى الدلتا وأغاروا عليها آوى المهاجرون إلى الاسكندرية للاعتصام بها ، فلم تلبث تلك المدينة أن اكتظت بشعوب مختلفة لا مرزق لها إلا ما يوجد به أهل الخير من الصدقات ، فكان من الصعب لكثرتهم تدبير أمر غذائهم في وقت قد تهددها فيها القحط عقب سنة قل فيها المحصول بحيث أصبح غير كاف لغذاء الوطنيين أنفسهم ، فلم ير القائد الرومي « نيكيتاس »

(١) على أن كل هذه الآلام لم تكن قاصرة على المصريين إنما كانت شاملة لجميع أجزاء الأمبراطورية ، وهي من الأسباب التي سهلت سقوطها وفتح العرب إياها .

بدأ من ترك مصر للفرس سنة ٦١٥ م (١).

استولى الفرس على مصر فرحب بهم المصريون ورضوا عن طيب خاطر بحكمهم ، ولم ير الفلاحون وهم السواد الاعظم من السكان في ذلك إلا تغييراً في شخص الحاكم . ويقول « ملن » ص ١٤٤ انهم فضلوا حكومة شرقى على حكومة اغريقى . ولا وجه لهذا الاحتمال بالنسبة للمصريين إذا عرفنا أنهم قاسوا الامرين من حكومة الروم واشتد عليهم البلاء من فداحة الضرائب واستبداد الحكم ، فأروا ان حكم الفرس قد يكون أخف وطأة من حكم الروم .

وفى أثناء حكم الفرس لم يكن في مصر من الامور ما يكدر صفاء المصريين بعد أن أطلقت حرية معتقداتهم التى جرت عليهم المحن والأهوال فى غضون حكم الروم ، فمين فى عهدهم البطريق (بنيامين) بطريقاً للديار المصرية فأذعن لسلطانة اهل البلاد قاصيها ودانيها فتمكن من ارجاع الكنيسة الى حالتها القديمة من حيث النظام والعظمة وعاش فى الاسكندرية آمناً مطمئناً أثناء حكم الفرس .

غير ان حكم الفرس لم يدم فى مصر اكثر من عشر سنوات ، فان قيام العرب بعد أن جمع الاسلام كلمتهم ، حرم الدولة الفارسية من خيرة جنودها ، وهياً الفرص للروم لاسترداد بعض اقاليمهم المفقودة فى الشرق ، فقد سار « هرقل » مخترباً البلاد السورية الى مصر وطرده أعداءه الفرس فغادر البلاد معهم البطريق بنيامين الذى كان قد جلس على كرسيه .

فَعَكَّرَ طُمَأْنِينَةَ الْمَصْرِيِّينَ طَرْدُ الْفَرَسِ مِنْ مِصْرَ وَعُودَةُ الرُّومِ إِلَيْهَا ، فَعَقَدَ بَنِيَامِينَ مَجْمَعًا عَامًّا لِلْقَسَسِ وَالرَّهْبَانِ وَأَوْصَاهُمْ بِالصَّبْرِ وَالْجَلْدِ وَالْإِعْتَصَامِ فِي الْجِبَالِ ، ثُمَّ هَرَبَ فِي كَنْفِ اللَّيْلِ إِلَى وَادِي النَّطْرُونِ (١) وَمِنْ ثَمَّ عَادَتْ مِصْرُ إِلَى حُكْمِ الرُّومِ وَتَوَلَّدَتِ الْإِخْتِلَافَاتُ الدِّينِيَّةُ مِنْ جَدِيدٍ ، فَاتَّخَذَهَا هِرْقْلُ وَسِيلَةً لِإِضْرَامِ نِيرَانِ الْحَقْدِ وَالِاتِّقَامِ الَّتِي كَانَتْ تَتَأَجَّجُ فِي صَدْرِهِ مِنْ جَرَاءِ تَرْحِيهِمِ بِالْفَرَسِ وَرِضَائِهِمْ حُكْمَهُمْ (٢) ، فَاحْلَبَّ بِهِمْ هِرْقْلُ كُلَّ صُنُوفِ الظُّلْمِ وَالِاضْطِهَادِ لِقَبُولِ مَذْهَبِ خَلْقُدُونِيَّةٍ ، وَمِنْ أَبِي عُذْبٍ وَضُرِبَ بِالسِّيَاطِ حَتَّى الْمَوْتِ

وَأَنَا إِذَا كَرُونُ حَادِثَةَ « مِينَا » أَخِي « بَنِيَامِينَ » فَقَدْ مَثَلُوا بِهِ أَشْنَعُ

(١) بطرل ص ١٨٤

(٢) يخالف بطرل (ص ٨٣- ٨٧) بعض المؤرخين مثل « شارب » و « ملن » في ذلك ويقول أن المصريين لم يرحبوا بالفرس بل بالعكس لاقوا الأمرين من حكمهم لأنهم أجهزوا على الاسكندرانيين وقتلوا الآلاف من الأهاليين في الوجيين القبلي والبحري - وبرهن على صحة دعواه بالإشارة إلى أن « الانبا شنوده » قد تسمياً بمأسوف يحمل بالاهاليين من جراء غزوة الفرس . وإن خلف « الانبا شنوده » قد أثبت هذا التنبؤ عندما كتب تاريخ حياة سلفه . وإن الراهب « بيزنطيوس » فر من وجه المغيريين بالوجه القبلي وأعلن استيائه الشديد لما حل ببلاده من المصائب وماحق بقومه من الظلم . ونحن نستبعد ذلك لأن الفرس لم يتعرضوا للديانة المصريين ، فأثبتوا بطريقهم . وبعد وفاته عينوا (بنيامين) خلفاً له . ولم يتعرضوا لشيء من المباني بل زادوا عليها .

تمثيل حيث أوقدوا المشاعل واحرقوه بها حتي تساقط الدسم من جنبه
على الأرض، ولما وصل به التعذيب الى هذا الحد لم يزد إلا اعترافاً بمذهبه
فاقتلعت أسنانه، ثم وضع في حقيبة ملأى بالرمل وحمل الى الشاطىء،
وعرضت عليه حياته ثلاث مرات اذا اعترف بمذهب خلقه دونية فاني
ثلاث مرات، فاغرق في البحر (١). وهكذا أصبح قتل البطارقة علما
يعرف به الروم.

وبعد هذه الشدة التي دامت عشر سنين أصبح كل أمل في الصلح
والسلام بين الفريقين محالا، وقد علم المصريون بانتشار الاسلام وقيام
العرب وفتحهم الشام فتمنوا الخلاص مما هم فيه على أيدي المسلمين،
وظنوا أن قدومهم مصر إن هو الاّ ولاء أنزله الله لأعدائهم الروم
الظالمين (٢). والى هذا الحد المحزن ساء حكم الروم في مصر، فهيثوا
بذلك للعرب الأسباب لفتح هذه الديار التي تقم أهلها على الحكم الرومي
وودوا الخلاص منهم، وبهذا أتيح لعمر بن العاص فتح مصر بجيشه القليل
من هذا يعلم أن مصر كانت قد فقدت كل شخصية سياسية،
وأصبحت أبعد ما تكون من الاعتماد على نفسها أو محاولة التخلص من
الأجنبي، واقامة حكومة وطنية، وانما كان كل ما ترجوه هو أن يغير
عليها مغير آخر يطرد الظالم ويقوم مقامه. فسوء سيرة الروم، وضعف
المصريين كانا كما سنرى من أهم الأسباب التي سهلت على عمرو فتح
مصر ولننظر كيف سلك عمرو سبيله الى هذا الفتح.

الباب الثاني

عمرو وفتح مصر

(١) كيف عرضت لعمرو ففكرة فتح مصر وكيفيته مسيره البرا

لما كانت سنة ثمان عشرة (١) من الهجرة (٦٣٩ م) وقدم عمر بن الخطاب الجابية قام اليه عمرو بن العاص نخلابه فقال : يا أمير المؤمنين إئذن لي أن أسير الى مصر ، وحرصه عليها إنك إن فتحتها كانت قوة للمسلمين وعوناً لهم ، وهي أكثر الأرض أموالاً وأعجزهم عن القتال والحرب ، فتخوف عمر بن الخطاب على المسلمين وكره ذلك ، فلم يزل عمرو يعظم أمرها عند عمر ويخبره بحالها ويهون عليه فتحها حتى ركن الى ذلك عمر ، فعقد له على أربعة آلاف رجل كلهم من عك (٢) ويقال على ثلاثة آلاف وخمسمائة . فقال عمر : سر وأنا مستخير الله في مسيرك وسيأتي كتابي اليك سريعاً ان شاء الله تعالى ، فان أدركك كتابي وأمرتك فيه بالانصراف عن مصر قبل ان تدخلها أو شيئاً من أرضها فانصرف ، وان أنت دخلتها قبل أن يأتيك كتابي فامض لوجهك واستعن بالله واستنصره . فسار عمرو في جوف الليل ولم يشعر به أحد من الناس ،

(١) يقول ابن الاثير (ج٢ ص ٢٧٧) وابن خلدون (ج٢ ص ١١٤) ان

عمرو بن العاص سار الى مصر عقب فتح بيت المقدس سنة ٢٠ أو سنة ٢٢ أو سنة ٢٥ من الهجرة وهو خطأ ، بدليل التخصيط الظاهر في ذكر السنين

(٢) عك بلد في اليمن واسم قبيلة أيضاً

واستخار عمر الله فكأنه تخوف على المسلمين في وجههم ذلك . فأدرك الكتاب عمراً وهو برفح . اهـ (١)

ونحن نستبعد مسير عمرو في نفس اليوم الذي أذن له فيه عمر ، لأن عمرو بن العاص لم يسر إلى مصر إلا بعد فتح قيسارية وهزيمة قسطنطين ، وكان ذلك بعد فتح بيت المقدس بأكثر من سنة .

وقد أخرج ابن عبد الحكم والمقرئ أن عمرو بن العاص كان بفلسطين ، فتقدم عمرو وأصحابه إلى مصر بغير إذن ، فلما فقد أمراء الأجناد واستنكروا الذي فعل ورأوا أن قد غرر رفعوا ذلك إلى عمر بن الخطاب . ثم إن عثمان بن عفان رضى الله عنه دخل على عمر بن الخطاب فقال عمر : كتبتُ إلى عمرو بن العاص يسير إلى مصر من الشام . فقال عثمان : يا أمير المؤمنين إن عمراً مجرؤ وفيه اقدام وحب الأمانة . فأخشى أن يخرج من غير ثقة ولا جماعة فيعرض للمسلمين للهلاك رجاء فرصة لا يدرى تكون أم لا . فندم عمر بن الخطاب على كتابه إلى عمرو اشفافاً مما قال عثمان . فكتب إليه : إن أدركك كتابي قبل أن تدخل مصر فارجع إلى موضعك ، وإن كنت دخلت فأمض لوقتك . اهـ (٢)

ولا ريب أن مسير عمرو بن العاص كان بأذن أمير المؤمنين عمر بن

(١) فتوح مصر وأخبارها لابن عبد الحكم ص ٥١ م الخطط للمقرئ

(ج ١ ص ٢٨٨) م كتاب الولاة والقضاة للكندي ص ٨٧ م وحسن المحاضرة في

تاريخ مصر والقاهرة للسيوطي (ج ١ ص ٤٦)

(٢) فتوح مصر لابن عبد الحكم ص ٥٢ م ايرفنج ص ١٠٧

الخطاب ، ونحن نؤيد الرواية القائلة بأن المسير كان عند أمر أمير المؤمنين .
ونرى أن عمر بن الخطاب أذن لعمر بن العاص بالمسير لفتح مصر .
فلما علم عمر بمسير عمرو ندم بعد أن أبان له عثمان خرج مركز عمرو لقلة
من معه فيعرض المسلمين للهلكة ، وكان عمر أحرص الناس على حياة
المسلمين كما هو معروف .

لم يكن عمرو بن العاص من البساطة والبله بالمكان الذي يدفعه إلى
تخطي أمر الخليفة والافتيات عليه فيركب المركب الوعر باقتطاع فريق من
جند المسلمين بلا عهد من الخليفة ، يزج بهم في بلاد مترامية الأطراف
ويهجم بهم على بلاد مصر - وما كان جند المسلمين الذي يطيع أميراً لم يؤيده
الخليفة ولا بالذي يتوجه إلى بلاد بغير أمر من الرئيس الأعظم - ولو فعل
عمرو ذلك لوجد من عمر سلطاناً يحسن تأديبه ويرده إلى الطاعة والجماعة .
ولم يرد في أي تاريخ عبارة أو إشارة إلى غضب عمر عليه في افتيات كان منه .
أدرك الكتاب عمرًا وهو برفح فتخوف إن هو أخذ الكتاب
وفتحه أن يجد فيه الانصراف ، فلم يأخذ الكتاب من الرسول ودافعه
وسار حتى نزل قرية فيما بين رفح والعريش ، فسأل عنها فقيل : إنها من
أرض مصر ، فدعا بالكتاب فقرأه على المسلمين . فقال عمرو لمن معه :
أستم تعلمون أن هذه القرية من مصر ؟ قالوا : بلى . قال : فإن أمير المؤمنين
عهد إليّ وأمرني أن لحقني كتابه ولم أدخل أرض مصر أن أرجع ، ولم يلحقني
كتابته حتى دخنا أرض مصر ، فسيروا وامضوا على بركة الله وعونه . (١)

والذى نراه أن عمر بن الخطاب لم يكشف لرجال شوره نيته فى فتح مصر إلا بعد مسير عمرو ، فلما علم عثمان بذلك حذر عمر سوء عاقبة مسير عمرو بجيشه القليل ، فكتب اليه عمر كتابه الآنف الذكر ووعد به بامداده إن كان قد دخل أرض مصر . وكان عمرو يوجس خيفة من أن يكون الكتاب يصرفه عن وجهه ، فدافع الرسول حتى يكون بأرض مصر ويوجد له العذر إذا مضى لطلبته

والذى يثير العجب أنه كيف جرأ عمرو بن العاص على المسير إلى أرض مصر بجيش لا يزيد عن أربعة آلاف مقاتل يريد أن يهزم بهم جند الروم؟ سؤال يسهل الجواب عليه اذا علم الانسان أن عمرو بن العاص كان محباً للأمانة ذات نفس عالية لا ترضى إلا الجليل من الأعمال مهما قام فى سبيلها من العقبات - يدلك على ذلك ما قاله عثمان رضى الله عنه « ان عمرًا لمجرؤ وفيه اقدم وحب للأمانة »

وقد بلغ من حب عمرو للأمانة أنه حين أراد أن يعقد أبوبكر الألوية لحرب الشام كلم عمرو بن العاص عمر بن الخطاب أن يخاطب أبا بكر فى تأميره على جيوش المسلمين بدل أبى عبيدة ، وقد قدمنا أن عمرًا كان أميراً على أبى بكر وعمر وأبى عبيدة وغيرهم أيام النبى صلى الله عليه وسلم . قال رفيق بك العظم فى كتابه « أشهر مشاهير الإسلام »

ومن تصفح تاريخ حياة عمرو بن العاص ووقف على أعماله سواء فى الفتح والأمانة أو فى دخول غمار الفتنة علم أنه رجل فذ قل أن تنجب بمثله الأمهات لولا طمع فيه ربما أخذ عليه أحياناً . على أنه لم يكن فى

دنيات الأمور، بل في أبعدها غاية وأعصاها على غيره منالاً. وأى قائد غير عمرو بن العاص يقدم على دخول مصر ويرغب في تدوين أرض الفراغة بجيش يقلّ عن أربعة آلاف مقاتل يريد أن يقهر به أمة يربو عددها عن عشرة الملايين ! وكان في البلاد من حامية الروم وحدها اضعاف مامعه من المقاتلة يحمون ذمارها ويذبون عنها . اهـ (ج ٢ ص ٥٧٤)

والذي نراه أيضاً أن عمرّاً انما رغب في فتح مصر لأنه وقف بنفسه على أحوالها عند قدومه اليها في الجاهلية ، وعرف مقدار ثروتها وخيراتها وأيقن أن دولة الروم قد دالت ، وقد تولى جنودهم الضعف واستولى على نفوسهم اليأس ، وان قبط مصر قد ملوا حكم الروم لظلمهم وجورهم . كل هذه الأسباب لم تخف عمرّاً بل حبيت اليه فتح مصر ، أضف إلى ذلك ما جبل عليه من الشجاعة والأقدام ، ودرايته بأساليب الحرب ، وحبّه للقتال ، وعلمه أنه سوف ينال الجزاء الحسن من الله . وجل لانفراده بهذه المأثرة العالية ، مأثرة فتح مصر .

ويرى حضرة أستاذنا « الشيخ عبد الوهاب النجار » أن عمرو بن العاص رأى ما كان من تزجية أبي بكر للجيش التي وجه بها لفتح سورية على قتلها ، فلما صاروا مع جموع الروم وجهاً لوجه ، تابع عمر بن الخطاب الأمدادات اليهم حتى كثروا دم ونالوا الظفر ، فلم يرد أن يثقل على عمر بن الخطاب في أول الامر بطاب جيش كبير يغير به على مصر ، واثقاً بأنه متى صار مع الروم وجهاً لوجه في أرض مصر واحتاج إلى الجنود بعث بها إليه عمر بن الخطاب على الصعب والذلول ، ولا يمكن أن يخذله . اهـ .

(ب) شروع عمرد في الفتح واستبهره على العريش :

سار عمرو بن العاص بجنده مخترقاً رمال سيناء حتى دخل أرض مصر على نحو ما ذكرنا ، فوصل إلى العريش (١) حيث أدركه النحر فضحى عن أصحابه يومئذ بكبش (١٠ ذى الحجة سنة ١٨ هـ - ١٢ ديسمبر سنة ٦٣٩ م) وفتحها بدون عناء . (٢)

والذى ساعد على استيلاء العرب على العريش أمور منها :

- (١) عدم منعة حصونها ، والظاهر أنه قد تطاول عليها العهد فوهنت .
 - (٢) عدم وجود حامية رومانية بدليل أن الحاميات الرومانية هي التي قاتلت العرب وصبرت على قتالها طويلاً في الامكنة الأخرى ، كما سيأتى عند الكلام على قتال العرب بالفرما وبليس وأم دنين وبالبليون وغيرها .
- وقد ذكر ابن عبد الحكم أن بطريق القبط كان إذ ذاك بالاسكندرية واسمه (أبو ميامين) وهو يخالف ما ذكرناه من قبل أن (بنيامين) قد فرّ من وجه الروم إلى أحد الأديرة ، وأن الروم تعقبوه فلم يظفروا به ،

(١) يقول بطر ص ١٩٧ (نقلا عن كتاب البلدان لليعقوبي) :

ان المسافرين فلسطين الى مصر يسير الى الشجرتين على حدوده صر ثم الى العريش وفي قسم الحدود ، ثم إلى قرية البقارة ثم الى الورداء الواقعة وسط التلال المرملة ثم الى الفرما ، وهى اول مدينة مصرية يصل اليها . ثم الى مدينة الجريز ثم الى جيفة ثم الى القسوط

(٢) فتوح مصر لابن عبد الحكم (ص ٥٣) ما الخطط المعقريزى (ج ١

ص ٢٨٩) ما حسن المحاضرة (ج ١ ص ٤٦)

بل ظفروا بأخيه (مينا) فقتلوه عداوة لليعاقبة (١)

(ج) اسفهم عمرو على الفرما :

غادر عمرو العريش وما حوالها من حراج النخيل متجهاً نحو الغرب على بعد من الشاطئ مجتازاً صحراء جرداء يكتنفها في بعض الامكنة قري ومواضع يجري فيها الماء . وكان هذا الطريق الموصل إلى بلاد مصر منذ الاحقاب المتطاولة هو الطريق الذي سار فيه المهاجرون والفاتحون ، فهو طريق ابراهيم ويوسف ومميزوالأُسكندر ، كذلك كان طريق التجار والسائحين والحجاج في كل العصور ، بل وطريق القوافل الذي يصل آسيا بأفريقية - ولم يشترك مع جند الروم في قتال - حتى وصل إلى الفرما (بيلوز) وهى مدينة قديمة العهد ذات حصون قوية وكنائس وأديرة . وكان لها ميناء على البحر يصل إليها جدول ماء من النيل ، وكانت الفرما بمثابة مفتاح مصر ذات أهمية كبرى .

حاصر عمرو هذه المدينة نحواً من شهر (٢) وأخيراً استولى المسلمون على أحد أبواب المدينة ، بينما كان جند الروم مشغولين برد حملة العرب ، فوقعت المدينة في أيدي المسلمين .

(١) فتوح مصر لابن عبد الحكم (ص ٥٣)

(٢) وقد ذكر ياقوت في معجمة أن القتال ظل شهرين وهو يخالف ما ذكره المقرئى وابن عبد الحكم والسيوطى وابن الاثير وغيرهم من أن النضال دام نحواً من شهر

وكان من المحتمل استيلاء عمرو عليها في أقل من شهر ، لولا قلة جنده . ولم يدم جيش الفرس في الزمن السابق على حصارها طويلاً بعد أن صدّع جوانب أسوارها وخرب معظم كنائسها . ولا بد أن يكون قد رمم الروم ما دمره الفرس أثناء غزوتهم لمصر ، فعادت هذه الأسوار منيعة على المغيرين . لذا نرى أن عمراً قد عمد إلى حصارها ، وبحسن صبر المسلمين وجلدهم تمكنوا من هزيمة الروم والاستيلاء على المدينة .

وكان استيلاء المسلمين على الفرما حوالى منتصف يناير سنة ٦٤٠ م على ما رواه (بطر) وكان أول المحرم سنة ١٩ هـ (يوافق ٢ يناير سنة ٦٤٠ م) وقد ذكر (بطر) أن المقرئى وأبا المحاسن (الذى نقل من الأول) قرّرا أن القبط كانوا للعرب أعواناً وهم على حصار الفرما . وقد أجاب بأن هذا القول لا أساس له من الصحة . وبرهن على صحة ما يقول بما ذكره « يوحنا أسقف نقيوس » من أن القبط لم يمدوا يد المساعدة للمسلمين إلا بعد استيلائهم على إقليم الفيوم ، على أن هذه المساعدة كانت جزئية ومحدودة . اهـ وتقدم عمرو لا يدافع إلا بالامر الخفيف حتى أتى بلبيس ، وتبعه عن مصر بنحو ثلاثين ميلاً ، فقاتلوه بها نحواً من شهر حتى فتح الله عليه ونصره نصراً عزيزاً .

هذا ما ذكره لنا ابن عبد الحكم والمقرئى وغيرهما من المؤرخين المشهورين عن استئناف مسير عمرو من الفرما إلى بلبيس واستيلائه عليها . وهو كما لا يخفى قول مقتضب يحتاج إلى كشف الطريق الذى اجتازه عمرو وهل هو الطريق الذى سلكه الفاتحون من قبل ، أم هو غير هذا الطريق ؟

وما هي المدن التي مر عليها عمرو واستولى عليها في طريقه ؟
هذا ما أردنا ان نقف عليه ، وقد كفانا « بطلر » مؤونة البحث
الكثير فنقول :

ومن هذه البقعة الريفية المغطاة بالملح التي تحيط بالفرما ، مر عمرو
على أرض مفروشة بقشور الصدف البيضاء التي استحات إلى رمال حتى
وصل الى مجدل (١) نحو الجنوب والغرب ، ومن ثم الى الجهة المعروفة الآن
بالقنطرة على قناة السويس حيث يتغطي سطح تلك الأرض الصحراوية
بمحصى كثير صاب ، وفي خلالها يقع أرض خضراء وبعض مستنقعات
ملحة ينمو على جوانبها القصب .

ثم أخذ في السير الى الصالحية أو القصاصين ، ومن ثم اتجه منحرفاً
نحو الجنوب مجتازاً نلال وادى الطميلات (٢) (رأس الوادى) على مقربة
من التل الكبير الآن وقريبا من بليس

وقد اتخذ معظم الفاتحين الاقدمين طريقا غير هذا مثل قبيلز الذى
سار من الفرما متجها نحو الغرب الى سنهور وتنيس (صان) ، ومن ثم الى
بابيس ، ولكن في هذا الوقت (أى حين الفتح الاسلامى) انتشرت المستنقعات
حول بحيرة المنزلة بحيث جعلت هذا الطريق على عمرو أشق مما كان على غيره
إذ لم يكن لدي عمرو وجنده (وكانوا فرساناً) من الوسائل ما يكفل لهم

(١) مجدل مدينة قديمة تلى الفرما وواقعة في الصحراء على مقربة من شاطئ

البحر

(٢) وموقعه بقرب التل الكبير

إقامة القناطر والجسور .

ونرى أن عمرا لو اتخذ غير الطريق الذى اتخذه لنفدت قوته قبل أن يصل الى حصن نابليون وهو بيت القصيد ، لأن هذا مما يعيق سيره ويتطلب بذل مجهود كبير للاستيلاء على المدن واحدة فواحدة ، وترك قوة في كل منها حتى لا يقطع الروم عليه خط الرجعة لو أرغم على الارتداد . وقد كان الارطوبون (١) قائد الروم في بيت المقدس بالامس قائدهم في بلبس اليوم . ولا بد أن يكون قد عول على الثبات والمقاومة ما استطاع الى ذلك سبيلاً . أراد أن يوقع داهية الروم بالعرب ويهزم داهيتهم عمراً ، فأخذ المسلمين على غرة ودام معسكرهم في جنح الليل ، ولكن أبى الله إلهزيمة الأرطوبون حيث قطع المسلمون قوته إرباً ، ولكن ما فتئت بلبس ممتنعة على عمرو شهراً كاملاً لم ينقطع فيه القتال حتى استولى عليها بعد أن لحقت بجنده بعض الخسائر ، ولكن خسارة الروم كانت فادحة إذ قتل منهم ألف مقاتل وأسر ثلاثة آلاف ، وكان ذلك سنة ٦٤٠ م وسنة ١٩ هـ . وبهذا أصبح عمرو على مسيرة يوم واحد من رأس الدلتا .

(٥) استيلاء عمرو على أم دنين (٢)

وبعد استيلاء عمرو على بلبس تقدم حتى أتى (أم دنين) شمال بابليون .

-
- (١) وقد فر الأرطوبون إلى مصر قبيل تسليم بيت المقدس على يد عمر بن الخطاب .
 (٢) أم دنين (بضم الدال وفتح النون وياء ساكنة ونون) : موضع بمصر ذكر في أخبار الفتوح - قيل هي قرية كانت بين القاهرة والنيل اختلطت بمنازل ربض القاهرة . وكان اسمها قبل الفتوح « تندونياس » التي سماها العرب فيما بعد المقدس ، وقد ذكر هذا الاسم الرومانى « بطر » نقلاً عن « يوحنا اسقف نقيوس »

وقد ذكر هذا الموضع كل من ياقوت والمقريزى وابن عبد الحكم ، أن
أم دين هي المقس وكانت واقعة على النيل ، وتقع فيها حديقة الازبكية
الآن تقريباً (عند جامع أولاد عنان) وفي هذه الجهة نشب القتال بين
المسلمين والروم . وكان هؤلاء قد أعدوا للقتال عدته وعولوا على الثبات في
هذا الموقع الحصين بما فيه من المرفأ والسفن مما جعل له الأهمية
الحربية العظمى .

وقد احتدم القتال بين الفريقين عدة أسابيع وأبطأ على عمرو والفتح ،
فكتب الى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب يستمده فأمدّه بأربعة آلاف
مقاتل ، وفيهم الزبير بن العوام وعبادة بن الصامت والمقداد بن الاسود
ومسلمة بن مخلد (١)

وقد كان مركز عمرو حين حصاره لأم دين من أخرج المراكز ،
إذ استولى اليأس على قلوب المسلمين إن كان يقتل منهم كل يوم . أجل
كبد المسلمون الروم الخسائر الفادحة ، ولكن كانت خسارة المسلمين كبيرة

(١) كان الاربعة القواء العظام الذين اعتبر عمر كلا منهم بألف رجل : الزبير بن
العوام ، والمقداد بن الاسود ، وعبادة بن الصامت ، ومسلمة بن مخلد ، من نخبة
الصحابة رضى الله عنهم . ومن شهد فتح مصر من الصحابة أيضاً غير عمرو بن
العاص ، خارجة بن حذافة ، وعبد الله بن عمر بن الخطاب ، وقيس بن ابى العاص السهمى ،
وعبد الله بن سعد بن أبى مروح ، وشرحبيل بن حسنة . وابناء عبد الرحمن وربيعة ،
ووردان . مولى عمرو بن العاص ، ومحمد بن مسلمة الانصارى وأبو الدرداء ، وعبد
الله بن عمرو بن العاص ، وابورافع مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم . وغيرهم
من مشاهير الصحابة وصناديد العرب .

لقتلهم ، وخسارة الروم قليلة بالنسبة لكثرتهم ، وإن كانت في نفسها عظيمة .
لهذا بعث عمرو الى عمر ياح في ارسال المدد على جناح السرعة ، ولبت يتحين
قدومه على غير جدوى .

قال « بطلمر » : فرأى عمرو أن يحول وجهه شطر الفيوم فيستولى
على هذا الاقليم اه

ولكن لم تكن همة عمرو العالية وعزيمته الماضية بالى تتأثر الى هذا
الحد ، فآلى على نفسه أن لا يجعل لليأس سبيلا الى قلبه ، فلا يطمع العدو
فيه ، فقوى نفوس المسلمين ، ولم تكن الا عشية أو ضحاها حتى اقتحموا
الحصن وغابوا الروم على أمرهم واستولوا على سفنهم التي أفادتهم بعد
فائدة تذكر .

(و) عمرو وغزو الفيوم وواقعة عين شمس

إضطربت كلمة المؤرخين في ترتيب وقائع الفتح الأسلامى لمصر
اضطرابا لا يقل عنه في ترتيب وقائع الشام ، وأغفل بعضهم ذكر بعض
الوقائع الهامة ، ومن ذكرها منهم فقد مر عليها مسرعا بطريقة لا تشفى
الغلة ولا تكشف الاثام عن كنه الحقيقة ، ولا يتيسر لنا بذلك الاقرار
بصح ما ذكره أو دحض ما قالوه ، وللأسف لم يقتصر هذا الامر على
مؤرخي العرب فحسب ، بل تعدا الى غيرهم من الفرنجة . ولكنه عند هؤلاء
أخف وطأة منه عند العرب وقد رأينا أن نأتي بما ذكره بعض هؤلاء
المؤرخين عن ترتيب هذه الوقائع ، ثم نأتى برأينا ونؤيده بالاسباب التي
حملتنا على هذا الاقرار . وليكن كلامنا على غزو الفيوم وواقعة عين شمس

اللتين هما جوهر الخلاف بين المؤرخين فنقول :

من المؤرخين من ذكر وقائع مصر على هذا الترتيب : العريش .
الفرما . بليس . أم دين . بابليون . وهم ابن عبد الحكم والمقرىزى والسيوطى .
والظاهر أن هؤلاء استقوا تواريخهم من مصدر واحد وهو ابن عبد
الحكم (وهو أقدم مؤرخي مصر) إذ العبارة واحدة لا تختلف حتى في
اللفظ - وزاد عليهم (بطر) أن غزو الفيوم وموقعة (هليوبوليس) كانتا
قبل حصار بابليون أو قصر الشمع .

وقد ذكر الواقدي ورفيق بك العظم هذه الوقائع على الترتيب
السابق عدا واقعة أم دين فقد أغفلت ، وكذلك واقعة عين شمس .

وذكر الطبرى وعنه أخذ ابن خلدون الوقائع مرتبة على هذا النمط :

الفرما . بليس . عين شمس . قد زعم أن استيلاء عمرو على عين شمس
حيث كان جمع الروم (والذي نراه انهما يقصدان بابليون) ومنها أرسل
أبرهة بن الصباح الى الفرما ، وبعث عوف بن مالك الى الاسكندرية في
آن واحد ، وهذا خطأ كما سيظهر من أن عمرأ هو الذى توجه بنفسه الى
الاسكندرية عقب حصار حصن بابليون ، ومع ذلك فلا يبعد أن يكون
قد أرسل بعض الجنود لمشاغلة الروم قرب الاسكندرية ولينهم من
إرسال المدد الى بابليون . وان كنا لم نعثر فيما رأيناه من التواريخ على
رأي يؤيد ذلك . ولم يذكر (ايرفنج) و (موير) غير واقعتي الفرما
وبابليون . وأطلق الاخير منهما على واقعة بابليون - (هليوبوليس) كما فعل
الطبرى وابن خلدون .

يعلم من ذلك مبلغ اختلاف هؤلاء المؤرخين ومن سار على أسلوهم، وإذا وفقنا بين ابن عبد الحكم ومن أخذ عنه، وبين (بطلر) (عداغزو الفيوم) أصبحت وقائع الفتح الاسلامى مرتبة على هذا الترتيب : -
العريش . الفرما . بليس . أم دنين . هليوبوليس . قصر الشمع .
والآن نتكلم بإيجاز عما ذكره (بطلر) عن غزو الفيوم وواقعة عين شمس . ثم نؤيد رأينا بالبراهين الدالة على صحة ما ذكره « بطلر » أو دحضه فنقول :

(١) غزو الفيوم^(١)

لما استولى عمرو على أم دنين الواقعة على النيل أصبح تحت إمرته سفن كثيرة، ولما رأى أن مامعه من المقاتلة لا يكفي لفتح حصن بابليون ولم يكن قد وصل اليه المدد بعد، أراد أن يشغل جيشه بعمل ريثما يأتيه المدد، فخرج في القوارب الى الفيوم ماراً بمدينة « منف » الواقعة على الشاطئ الغربى للنيل تجاه حصن بابليون فاستولى عليها، واستأنف مسيره حتى صار على نحو عشرة أميال من مدينة الفيوم على مقربة من مدينة اللاهون

(١) قال « بطلر » مؤيداً قوله بما نقله عن يوحنا اسقف نقيوس الذى يعتبره أكبر حجة فى سرد ووصف وقائع فتح مصر : ولا ريب كما يلوح لى أن غزو الفيوم حدث فى الوقت وعلى الترتيب الذى ذكرته وأن هذا الترتيب لم يذكره أى مؤرخ من مؤرخى العرب اه . وهذا حقيقى كما يظهر مما ذكرناه عند كلامنا على اختلاف روايات المؤرخين فيما يتعلق بترتيب الوقائع - وهذا يخالف ما ذكره السيوطى (حاص ٦٢) ان عمرو بن العاص لم يتم له فتح الفيوم الا بعد سنة، وكذلك البلاذرى فى كتاب (فتوح البلدان) فانه ذكر ان الفيوم والوجه القبلى عموماً قد فتحت بعد استيلاء العرب على حصن بابليون

الواقعة على بحر يوسف حيث عسكر بها الروم .

فتقدم عمرو إلى البهنسا واستولى عليها فافتنى « يوحنا » قائد الروم أثره بقوة صغيرة مؤلفة من خمسين مقاتلا من الروم لاستطلاع حركات المسلمين على أن هذا القائد شعر بخطورة مركزه فعرج على معسكره في « أبواب » (١) فأدركه عمرو وقتل الروم في هذه الجهة عن آخرهم .

لا يمكننا أن نفهم ما يقوله « بطر » من أن عمرو بن العاص يزاول موقعه ويترك البلاد التي افتتحها ورسخت أقدامه فيها ويترك العريش والفرما وبليس وأم دنين ويذهب إلى الفيوم والبهنسا، وإذا كان فعل ذلك فأى مانع للروم من أخذ هذه البلاد وإعادة أهلها إلى حكمهم وشحنها بالمقاتلة وقتال المدد الذي يأتي إلى عمرو عن كل شبر من الأرض، فيفت ذلك في عضدهم . على أن حدوث وقائع البهنسا ونحوها من بلاد الصعيد لم تقف عليه في كتاب يقام له وزن . والذي يغلب على ظننا أن « بطر » وقف على بعض الفصوص الموضوعة على الخيال . فذكر البهنسا ووقائع المسلمين فيها ورأى العامة من المسلمين يعتفدون أن لهم شهداء، فلم يجد طريقا للجمع بين الأخبار الصحيحة وبين ذلك إلا بأن يذكر ذهاب عمرو بجنده إلى الفيوم والذي يكاد يكون اعتقادنا أن الشهداء بالبهنسا إنما هم شهداء الإقباط الذين قتلوا في عهد الاضطهاد . فلما غلب الإسلام وكان اسم الشهداء غالبا دعوهم بغير سلطان أتاهم .

(١) يقول أملينو : ان هذه المدينة بمديرية بنى سويف قريبة من بوصير وواقعة شرقي حجر اللاهون تماما .

ولما سمع « تيودور » قائد الروم بما حل بجنده في هذه الواقعة سقط في يده واستدعى جميع جند الروم من كافة أرجاء الديار المصرية ليعزز بهم حصن بابليون، وفي هذا الوقت انسحب عمرو من البهنسا مركز قيادته من غير أن يتغلب على مدينة الفيوم (١) ولكنه تمكن من ضرب الروم في عدة وقائع وأمن الاخطار التي قد تحدث به لوبقى في أم دنين حيث شغل جيشه في مكان أبعد خطراً ريثما يأتي اليه المدد . وسار عمرو في الليل على جناح السرعة ليلحق بالمدد الذي علم بدنوه من عين شمس حيث التقى بأربعة آلاف مقاتل (٢) مدداً من عمر بن الخطاب وعليهم الزبير بن العوام وقد ابتدأت غزوة الفيوم على ما ذكره « بطار » في نحو أوائل

(١) بطر ص ٢٢١ - ٢٢٩ باختصار

(٢) اختلف المؤرخون في هذا العدد . فذكر ابن عبد الحكم أنهم كانوا أربعة آلاف تمام ثمانية آلاف وعنه اخذ (جبون) وأخرج ابن عبد الحكم أيضاً أن عمر بن الخطاب بعث الزبير بن العوام في اثني عشر ألفاً وذكر السيوطي والمقرئ أنهم كانوا أربعة آلاف على كل ألف منهم رجل بمقام ألف بحيث أصبح جيش عمرو على هذا الزعم اثني عشر ألفاً . وذكر البلاذري أنهم كانوا عشرة آلاف أو اثني عشر ألفاً . وقال ياقوت : وقيل إن المدد كان اثني عشر ألفاً . وذكر الكندي والسير (وليم موير) أن جند عمرو أصبح بعد وصول المدد خمسة عشر ألفاً وخمسمائة . وذكر « يوحنا اسقف ققيوس » ان المدد كان أربعة آلاف . ولا يمكننا الاهتداء الى رأي قاطع لاختلاف هذه الروايات ، انما نرجح أن المدد لم يزد عن أربعة آلاف ، ادلا يعقل أن يسير عمرو افتتح مصر بأربعة آلاف مقاتل ثم يمدد عمر بضعف هذا العدد . وربما بلغ المدد اثني عشر ألفاً بالتدريج .

مايو سنة ٦٤٠ م ، واستغرقت عدة أسابيع كانت نتيجتها في مصلحة المسلمين . وفي ٦ يونية وصل المدد الى (هليوبوليس) أو عين شمس التي اتخذها عمرو مركزاً لقيادته ، وشرع يعد للموقعة الدانية عدتها .

(٢) رافعة هليوبوليس :

أما « تيودور » قائد الروم فقد عوّل على أن يسير بعشرين ألفاً من جند الروم يريد أن يزحزح بهم جند المسلمين عن (هليوبوليس) ، على أن هذا الرأي كان ولا ريب في مصلحة عمرو بن العاص الذي رغب في أن يشتبك مع الروم في العراء حيث يسهل عليه كسرهم أكثر مما لو تحصنوا في حصن بابليون المنيع . فزحف « تيودور » على عين شمس فوضع عمرو كميناً في موضع خفي من الجبل الأحمر (١) وآخر في النيل قريباً من أم دنين ولاقى (تيودور) بالفريق الأكبر من الجيش . ونشب القتال في منتصف المسافة بين الجيشين تقريباً في حي العباسية الآن . وقد أيقن الفريقان أن على النجاح في هذا الميدان يتوقف حظ مصر ، فحُمي وطيس القتال بين الفريقين ، ولما بلغ أشده خرجت قوة خارجة بن حذافة من الجبل وانقضت كالصاعقة على ساقة الروم . فاختل نظام جندهم وعرجوا الى الغرب نحو أم دنين . فقاتلتهم قوة العرب وأصبحوا بذلك بين جيوش العرب الثلاثة التي سحقتهم سحقاً فلم يبق منهم سوى عدد قليل سار بعضهم في النيل وفر البعض الآخر رجالاً الى بابليون (٢)

(١) شرقي العباسية

(٢) ستانلى لين بول ص ٥٥ ، بطارص ٣٢٠ - ٣٢٣

وقد ذكر « تاريخ مصر الى الفتح الاسلامى » المقرر تدريسه بالمدارس الثانوية أنه لم يبق من جند الروم عقب هزيمتهم فى واقعة عين شمس سوى ٣٠٠ مقاتل . وقد أخذ هذا من كتاب (بطر) الذى يقول : إن العرب المنتصرة استولوا ثانية على أم دين ، وقد قتل جميع حامىة الروم فى هذا الحصن فى المعركة إلا ٣٠٠ مقاتل ، ويؤيد ذلك أيضاً ما ذكره « لين پول » : واحتل المسلمون تندونياس (أم دين) التى هلكت حاميتها الا ٣٠٠ مقاتل .

لأنه لا يعقل أن يفقد الروم تسعة عشر ألفاً وسبعمائة مقاتل من جندهم ، وعدده لم يزد على عشرين ألف مقاتل .

إعتمد (بطر) على تاريخ (يوحنا أسقف نقيوس) فيما يتعلق بغزو الفيوم وواقعة عين شمس مرجحاً ما ذكره هذا المؤرخ على غيره من مؤرخى العرب الذين لم يرد فى تواريخهم ذكر لغزو الفيوم ، اللهم إلا ما ذكره بعضهم سيما « السيوطى » أن فتح الفيوم لم يتم إلا بعد سنة : أى بعد حصن بابليون .

وقد استدلل « بطر » على ترجيح « غزو الفيوم » قبل فتح حصن بابليون بأن عمرأ تأكد أنه لا يتسنى له أن يقتحم الحصن بجنده القليل ، فرأى أن يشغل جنده فى جهة بعيدة الخطر كلفيوم ، فافت فى عضد العدو بانتصاره عليه فى سلسلة وقائع جزئية . على أنه فات « بطر » أن هذا مما كان يجعل جند عمرو فى أخرج المرا كز ، إذ يتسنى بذلك للروم أن يستردوا ما استولى عليه عمرو من المدن ، فتضيع منه العريش

والفرما وبليس وأم دينن وغيرها ، فيقطعون عليه خط الرجعة . أضف الى ذلك أن مسير عمرو إلى الفيوم كان في النيل الذي يشرف عليه حصن بابلون ، فيتسنى للروم أن يلحقوا بالمسلمين خسارة فادحة أثناء مرورهم في النيل . وعلى هذا يضطر المدد لاسترداد هذه المدن من الروم أثناء مسيره إلى (هليوبوليس) فتاحق به خسارة كبيرة في طريقه . ولم يثبت ممارأناه من التواريخ أن هذا المدد قد لاقى أية مقاومة قبل وصوله إلى (هليوبوليس). والظاهر أن بطر قد اعتمد على ما رآه في بعض التواريخ عن شهداء البهنسا التي حدثت فيها موقعة بين الروم والمسلمين على ما رواه عن يوحنا أسقف نقيوس ، فتوهم أن هذا حدث عند غزو الفيوم التي استولى عليها العرب بعد حصن بابلون من غير حرب أو قتال . ولعل هذا الحادث يرجع إلى قتل الروم لليعاقبة ، فأطلق على القتلى الذين استشهدوا بالبهنسا « شهداء البهنسا » فتوهم البعض أن هذا كان وقت الفتح الأسلامى ، وليس ببعيد أن يكون عمرو قد وقف على حصار حصن بابلون حتى وصل إليه المدد ، فشرع يعمل لفتحه .

أما عين شمس فكان من السهل أن يستولى عمرو عليها قبل حصاره حصن بابلون ، لأنه لم تكن بها حامية كبيرة من جهة ، ولأنها كانت في طريقه . وربما استولى عليها قبل أم دينن ثم نشب بينه وبين الروم القتال بعد وصول المدد إليه من عمر على أثر تقهقره إلى هذه المدينة حيث رأى من مصلحته الحربية أن يستدرج الروم إلى العراء فيضعف حامية الحصن فلا تقوى على المقاومة طويلا

(٢) مصارع عمرو و لمحسه بابليون :

وقبل أن نطرق هذا الباب يحسن أن نعرف من المقوقس :

(١) المقوقس :

إتفق المؤرخون على أن المقوقس لقب لرجل كان له شأن كبير عند الروم وقت فتح مصر ، وأنه هو الذى صالح العرب عليها . ولكن اتفاقهم وقف عند هذا الحد ، فاختلّفوا فى اسمه وجنسه ووظيفته والعمل الذى عمله ، ومعنى اللقب الذى عُرف به . وقد كثّر الجدل فى هذه المسائل الآن ، وللأسف لم تؤد هذه المناقشات إلى رأى قاطع يمكن أن نتخذه حجة دامنة بحيث يكفى الغير مؤونة البحث .

ومن المؤرخين الذين عُنوا باستطلاع خبر المقوقس عناية خاصة الدكتور (بطر) فى كتابه (فتح مصر والاسكندرية) (ص ٥٠٨ - ٥٢٦) حيث أفرده باباً خاصاً ، والمسيو (أميلينو) الذى كتب مقالة شائقة فى المجلة الأسبوعية فى نوفمبر سنة ١٨٨٨ م تقع فى أكثر من عشرين صحيفة (ص ٣٨٩ - ٤١٠)

وقد اتفق هذان المؤرخان على أن المقوقس كان عاملاً على مصر من قبل الروم ، وبطريقاً ملكياً ، أى على خلاف مذهب السواد الأعظم من المصريين وهو اليعقوبى . أما مؤرخو العرب فقد خبطوا فى هذا الموضوع خبط عشواء . وقد رأينا أن ننقل بعض ما ذكره (بطر) وغيره من أقوال كثيرين من المؤرخين الأوربيين المحدثين فنقول :

قال المؤرخ « فون رانكى » إن المقوقس كان والياً على مصر وأنه من القبط . و « دى غويه » الذى قال : يظهر أن مؤرخى العرب خلطوا أحياناً بين المقوقس وفيرس بطريق الأسكندرية مع أنهما شخصان مختلفان كانا يشغلان مركزين متباينين . والمستر « ملن » الذى قال في كتابه « مصر في عهد الرومان » ان المقوقس هو « جريج بن مينا » الذى ذكره « يوحنا أسقف نقيوس » وقال إنه كان والياً على أثريب ، وأنه هو الذى أدلى بمقاليد مصر إلى العرب (ص ٢٢٤) و « ستانلى لين پول » (ص ٦) يميل إلى رأى المستر « ملن » ، فيما يتعلق باسمه بالرغم مما ذكره مؤرخو العرب وهو أنه كان والياً على ديار مصر من أقصاها إلى أقصاها ، ولكنه اتفق مع هؤلاء على أنه كان من القبط وقال الأستاذ « بوى » في كتابه (الأمبراطورية الرومانية في عهدها الأخير) انه كان والى مصر كلها وكان من القبط .

ونحن نزيد على ما نقلناه عن مؤرخى الأفرنج ما قاله « جيون » (ج ٩ ص ٢٦٨) وهو أن المقوقس كان مصرياً وثرياً نبيلاً ، وما قاله « أيرفينج » (ص ١٠٨) وهو أنه كان والى مصر ، وكان من عنصر مصرى (أعنى قبطياً) وفي مرتبة الأمراء أو النبلاء ، وأنه كان منافقاً عظيماً وكان يعقوبى المذهب . ولننقل ما قاله بعض مؤرخى العرب المعدودين في هذا الصدد فنقول :

(١) قال البلاذرى في « فتوح البلدان » (ص ٢٢٢ - ٢٢٣ - ٢٢٨) ان المقوقس صالح عمرأ ولم ينقض الصلح مع القبط حين رفضه (هرقل) وأنه اعتزل أهل الأسكندرية حين نقضوا ، فأقره عمرو ومن معه على أمرهم الاول . وذكر بعض الرواة أنه كان قد مات قبل مجيئ (منويل)

لاسترداد الأسكندرية . ويظهر من هذا أن البلاذرى لم يسم لنا المقوقس .
(٢) وقال الطبرى (ص ٢٢٧) : فلقبهم هنالك (أمام حصن بابليون)
أبو مريم جاثليق مصر ومعه الاسقف ، بعثه المقوقس لمنع بلادهم ، وقال في
مكان آخر إنه (المقوقس) صاحب الأسكندرية .

(٣) وقال سعيد بن البطريق (١) : إن المقوقس كان ملكياً وكان
عامل الخراج على مصر من قبل (هرقل) ، وكان يعقوبياً فى الباطن ملكياً
فى الظاهر ، وكان أيضاً قد أقطع أموال مصر حين حاصر الفرس
القسطنطينية .

(٤) وقال (ساويرس بن المقفع) (٢) أسقف الأشمونين فى كتابه

(١) هو سعيد بن البطريق بطريق الأسكندرية . قال فى « دعيون الأنباء » إنه
من أهل فسطاط مصر وكان طبيباً نصرانياً مشهوراً عارفاً بعلم صناعة الطب
وعمله . ولد سنة ٢٦٣ هـ وجعل بطريقاً على الأسكندرية وسمى « أوتيوخوس »
وعمره نحو ستين سنة ، وبقي فى الكرسي والرئاسة نحو سبع سنين وستة أشهر
ومات سنة ٣٢٨ للهجرة . وله كتب كثيرة فى الطب والتاريخ .

(٢) قال (بطر) إنه أسقف قبطى كتب تاريخ البطارقة . ويوجد من كتابه
ثلاث نسخ معروفة ، واحدة فى المتحف البريطانى وهى من القرن الخامس عشر ،
واحدة فى مكتبة باريس من القرن الرابع عشر ، والثالثة قدم منهما ، وهى عند
مرقس سميكة بك (باشا) فى القاهرة . وكانت فى القرن العاشر للميلاد ، وفى
نسخة باريس مقدمة لمحبوب بن منصور أحد شمامسة الأسكندرية كتبها فى
النصف الأخير من القرن الحادى عشر .

« سير البطارقة » : ولما ملك (هرقل) أقام الولاية في كل موضع ، وأنفذ إلى مصر (فيرس) ليكون والياً وبطريقاً . فلما وصل إلى الأسكندرية أعلم الابا بنيامين ملاك الرب به وأمره أن يهرب هو ومن معه ههنا لأن شدائد عظيمة تنزل عليهم ثم قال عن سنى الاضطهاد : وهي السنين التي كان فيها هرقل والمقوقس مسلطين على ديار مصر ... وقال أيضاً : فلما تمت عشر سنين من مملكة هرقل والمقوقس ، وأيضاً : خاف (بنيامين) الكافر وهو كان والى الأسكندرية وبطريقها . وأخيراً يخاطب بنيامين نفسه عن سنى الاضطهاد « الذي نزل بي لما طردنى المقوقس » . فيتبين مما يقوله ساويرس أن بنيامين قد طرد من كرسى البطيرقية بمجرد وصول (فيرس) ، فبناء على ما ذكره ساويرس هذا يكون فيرس هو المقوقس .

وبعد موت ساويرس مرت حقبة من الدهر لا تقل عن قرنين حتى جاء :

(٥) ابن الاثير فقال : فأخذ المسامون (باب إليون) وساروا إلى مصر فلقاهم هناك أبو مريم جاثليق مصر ومعه الأسقف بعثه المقوقس لمنع بلادهم ثم قال : فلما التقى المسامون والمقوقس بعين الشمس واقتتلوا ، وسار عمرو إلى الأسكندرية فوجد أهلها معدين لقتاله فأرسل المقوقس إلى عمرو يسأله الهدنة إلى مدة فلم يجبه إلى ذلك . وقال : لقد لقينا ملككم الا كبر (هرقل) فكان منه ما بلفكم ، فقال المقوقس لأصحابه

صدق . . . (١) إلى غير ذلك من الخطب الكثير ولا سيما فيما رواه عن تنسيق الحوادث التي وقعت في أوائل الفتح .

(٦) وقال أبو صالح الارمني (٢) . وكان محمد صلى الله عليه وسلم قد سير حاطب بن أبي بلتعة من لحم إلى المقوقس صاحب الاسكندرية (في السنة السادسة للهجرة أي سنة ٦٢٧ م) . وقال في الكلام عن دير في الصعيد : وكان يأوى بنيامين مختفياً في ملك هرقل الخلقدونى المذهب وجريج بن مينا المقوقس بمصر إلى انقضاء مدة عشر سنين خوفاً منهما كما أوحى إليه الملاك . ثم استرسل أبو صالح في الكلام فقال : وهذه كانت مدة عشر سنين الاضطهاد وهى المدة التى قاسى منها الارثوذكسيون (القبط) صعوبات جمة . وقال أبو صالح : انه وجد في كتاب الجناح : وكان الاسقف من الروم بمصر والاسكندرية يسمى فيرس .

(٧) وقال ياقوت في معجمه : ان أمير الحصن كان وقت الفتح المندفور من قبل المقوقس بن قرقب اليوناني الذى كان ينزل الاسكندرية . (٨) وقال المسكين (٣) ان المقوقس كان إلى مصر من قبل هرقل

(١) الكامل لابن الأثير (ج ٢ ص ٢٧٨ - ٢٧٩)

(٢) كان معاصراً لابن الأثير أو سابقاً له فقد قال في أول كتابه : نبتدى بعون الله وإرشاده أن فى عصرنا هذا فى ابتداء سنة أربع وستين وخمسمائة كان بناء الكنيسة التى على اسم مارى يعقوب بناحية البساتين

(٣) هو جرجس المسكين بن العميد النصراني بن أبى المسكارم ، اختصر تاريخ الطبرى ثم كمله ، وتوفي بدمشق سنة ٦٧٢ هـ الموافقة لسنة ١٢٧٣ م

وانه صالح عمرًا هو وكبار القبط .

(٩) وقال ابن خلدون : ان المقوقس كان من القبط .

(١٠) وقال ابن دقاق : ان المقوقس كان نائب هرقل وكان رومانياً .

(١١) وروى المقرئى : ثم أحاط المسلمون بالحصن وأميره يومئذ المندفور الذى يقال له الاعيرج من قبل المقوقس بن قرقب اليوناني . وكان المقوقس ينزل الاسكندرية وهو فى سلطان هرقل غير أنه كان حاضراً الحصن حين حاصره المسلمون . وتابع المقرئى ابن عبد الحكم فى ابقاء المقوقس الى زمن فتنة « مانويل » وتابع ياقوت فى وصفه المقوقس بأنه ابن قرقب اليوناني . وقال أنه كان للقبط بطرق فى الاسكندرية اسمه « أبو ميامين » ، وان المقوقس صالح العرب ، لكن هرقل أرسل اليه يقبح رأيه .

(١٢) وقال الواقدى : ان ملك القبط كان يومئذ المقوقس بن راعيل .

(١٣) وذكر أبو المحاسن أن بنيامين كان بطرق القبط بالاسكندرية

وأن أمير الحصن يومئذ « المندفور » الذى يقال له الأعيرج من قبل المقوقس وهو ابن قرقب اليوناني .

وكان المقوقس ينزل الاسكندرية وهو فى سلطان هرقل ، غير

أنه كان حاضراً الحصن حين حاصره المسلمون . ونقل عن « ابن كثير » أن جاثليق مصر كان أبا مريامين .

(١٤) أما السيوطي فلم يخالف أبا المحاسن فيما قاله .

ويظهر المتأمل لما ذكره مؤرخو العرب مبلغ الخلط الذى وقعوا فيه من حيث تعدد الاسماء التى أطلقت على المقوقس والاختلاف الكثير في معرفة وظيفته ومذهبه وغير ذلك . ولكن يستخلص من التواريخ العربية أن هناك ثلاثة رجال وهم : المقوقس ، وأبو مريم ، والأعرج .

١ — الأعرج والأعرج :

لقبه ياقوت « بالمندفور » ولعل النساخ حرفوها عن « المندطور » : أى الأمير . وتابعه أبو المحاسن والسيوطى وزاد الأخير في تحريف هذه الكلمة فجعلها « المندفول » . وقد رأى (بطر) أن (الأعرج) تحريف كلمة (جريج) وأن اسم أمير الحصن كان « جريج » و « جورج » . ويرى « لين پول » أن الأعرج أو الأعرج ربما يشبه (أرطبون)

٢ — أبو مريم :

قال « لين پول » إنه جاثليق مصر ، ومعنى جاثليق بطريرك . وقد ذكره أولاً بهذا اللقب الطبرى لأنه لقب لبطارقة الكنائس النسطورية والأرمنية ، وكان مألوفاً عنده لاتصاله ببلاد الفرس . وقال الطبرى إنه كبير بطارقة النصاري ، وكناهه بأبي مريم . ومعلوم أنه كان فى مصر فى زمن الفتح بطرقان (قيرس) و (بنيامين) : فابن مريم لا يصح أن يكون محرفاً من قيرس ولكن يصح أن يكون محرفاً من بنيامين ، وزاد تحريف الاسم فى زمن ابن الأثير فصار « أبو مريم » وسماه السيوطى « أبا ميامين » وواضح أن بنيامين حرف فصار أبا ميامين ثم أبا مريم .

٣ - المقوقس :

إن المؤرخين الأقدمين الذين أشرنا إليهم كالبلاذرى والطبرى وساويرس أسقف الأشمونين وابن الاثير لم يكنوا المقوقس . وأول من قال إنه ابن مينا ، أبو صالح الارمنى . وقال ياقوت : إنه ابن قرقب اليونانى . وقد خطأ (بطر) الطبرى لقوله إن المقوقس كان عظيم القبط وإنه كان في الحصن عند استيلاء العرب عليه ، أعنى أنه لم يكن يعقوبياً ولم يكن حاضراً في الحصن عند اقتحام العرب له ؛ وكذلك خطأ « أوطيخا » (وكان ملكياً) لقوله إن المقوقس كان يعقوبياً ، لكى لا تقع على الملكيين تبعة ما فعله .

ثم قال (بطر) : ولا يكشف ما غمض من أمر المقوقس إلا ساويرس أسقف الأشمونين . وقد ألف كتابه من كتب كثيرة كانت محفوظة في المكتبة في دير مقاريوس في مجاميع خاصة . ولا شك في أنه تصعب قراءة مؤلفه لعدم ضبطه وإتقانه . ومع ذلك فالمعلومات التى وجدتها في كتابه حجة لا توجد في المؤلفات القديمة الى اطلمت عليها . وهذا ما يقوله (ساويرس) : أقام هرقل قيرس والياً على مصر بعد أن استردها الروم من الفرس ليكون بطريقاً للأسكندرية وأنه أقام عشر سنين اضطهد الكنيسة القبطية فيها اضطهاداً شنيعاً . وهذه المدة يثبتها بنيامين « بال عشر سنين التى أقام فيها هرقل والمقوقس مسليطين على ديار مصر » ويلقب قيرس بالكافر الذى كان والياً وبطريقاً للأسكندرية من قبل الروم . ويقول عن سنى الاضطهاد « الاضطهاد التى نزل بي لما طردني المقوقس » . . . ولم يبق إذذاك

أدنى شك في أن ساويرس جعل المقوقس هو « قيرس » وميزه من « بنيامين »
ثم أقام بطلر الأدلة على أن الأسقف ساويرس مصيب فيما ذكره
وأن ما ذكره مؤرخو العرب خطأ محض .

والذى يظهر لنا مما ذكرناه أن مؤرخى العرب متفقون على المركز
الذى كان يشغله المقوقس ، وهو أنه كان والياً على مصر من قبل هرقل ،
وبطريقاً للاسكندرية ، وأنه هو الذى صالح العرب . ولكن لم يتفقوا
على حقيقة اسمه ، بل شاع الخطأ بينهم وكذلك بين الأفرنج ومنهم أميلينو
الذى قال إن (قيرس) لا بد أن يكون قد ترك مصر فى سنة ٦٣٩ م ،
ويحتمل أن يكون المقوقس قد اختير ليحل محل (قيرس) حتى يغلب على
الظن أنه (المقوقس) كان عدو (قيرس) . وبعد أن رجح « أميلينو »
كون المقوقس ملكياً فى مقاله الذى نشره فى المجلة الاسيوية عارض نفسه
فقال : إذا كان هذا صحيحاً (كون المقوقس ملكياً) فكيف يتأتى لمؤرخى
القبط الذين أرخوا تواريخهم بالعربية مثل أوطيخا والمكين وأبى الفرج
أن لا يقولوا شيئاً عنها؟ (١)

أما خلاصة ما ذكره أميلينو عن المقوقس فهي كما يأتى :

(١) ان المقوقس كان يسمى جورج بن مينا وابن قرقب ، وينبغى أن
يكتب ابن قرقب

(٢) ان المقوقس كان قبطى الجنس من جهة واحدة إن لم يكن من

(١) رد (بطلر) على هذا بقوله إن أبأ الفرج لم يكر قبطياً البتة ولا مصرياً
وكذلك أوطيخا ، أما المكين فقد قال إنه مؤرخ وليس من وراء تاريخه فائدة كبيرة

جهتين ، وكان في خدمة الامبراطور (هرقل) وكان في الاصل ملكي المذهب .

(٣) وأنه كان بطريقاً ملكياً ، ولا يمكن أن يُعلم تاريخه إلا من باب الحدس والتخمين .

(٤) إن لفظ المقوقس كان كنيةً مشتقةً من (كوكيون باليونانية) ، اسم نوع من النقود . وكذلك قال (بيريرا) ولم يصوب (بطر) هذا الرأي ، بل قال إن اللفظ الحبشي لهذه الكلمة هو المقوقس (بفتح القاف الثانية) وأن هرقل نقل (قيرس) إلى مصر من بلاد القوقاز ، فلا يبعد أن يكون لقب في مصر بالقوقاسي وهي (أوقواسيوس) باليونانية ، و (بكوخيس) بالقبطية ، ولا يبعد أن تكون الكلمة القبطية حُرِفَتْ في نقلها إلى العربية فصارت (مقوقس) أو قدمت عليها الميم للنسبة (كالمصر لمن أقام في مصر) أما الامر الذي يهمننا بحثه وإبداء رأينا فيه بنوع خاص ، فهو مذهبه ، وهل كان المقوقس ملكياً أو يعقوبياً فنقول :

قد أورد أصحاب المقتطف (الجزء الثامن والعشرين سنة ١٩٣٣ من ص ٢٣٢ - ٢٣٦) خلاصة ما ذكره (بطر) عن المقوقس . وقد علتوا على ترجمة هذا الباب بقولهم : ويظهر لنا أنه (بطر) حل عقدة غامضة من عقد التاريخ ، وأبان أن البحث الدقيق يحلوا أغمض المسائل . اهـ

أما نحن فنعترف للدكتور بدقة البحث وإصابة الرأي ، ولكن لبيتة حل حقيقة هذه العقدة أو تلك العقد المرتبطة باسمه وجنسه ومذهبه ، فأنها لا تزال مستعصية عليه كما شاهدنا .

ونحن نذكر ما عسى أن يكون له أساس بما ذكره (بطلر) خاصاً
بمذهب المقوقس ، أيعقوبياً كان أو ملكياً ، وإذا كان ملكياً فلم صالح
العرب وساعدتهم ؟

مما تقدم يعلم أن « بطلر » اعتمد على مارواه ساويرس أسقف
الاشمونين من أن المقوقس كان ملكياً ، فجزم بصحة ما ذكره ساويرس
وأنه طرح كلام مؤرخي العرب والافرنج جميعاً ، بعد بحث طويل ومجهود
كبير ، وأن ما ذكره سواه خطأ محض ، فبنى حكمه على ما قرأه في كتاب
هذا الأسقف . ولكن للأسف قرر بطلر في سياق مدحه له أنه يستحيل
على القارئ قراءة كتاب ساويرس لنقص في الاتقان ، وكيف يجزم بطلر
بصحة ما ذكره ساويرس وكتابه مهمل عديم التنسيق ؟

فاذا سلم بطلر بأن (أوطيخا) الملكي المذهب قد جعل المقوقس يعقوبياً
الكي لا تقع على الملكيين تبعة عمله ، فلم لا يظن أيضاً أن (ساويرس)
اليعقوبى المذهب قد جعله ملكياً لانه خان البلاد وصالح العرب عليها كما
عدّ غيره من المؤرخين عمل المقوقس خيانة عظيمة ومن بينهم بطلر ؟

وإذا كان المقوقس رومانياً ملكياً محبباً للروم لا يخشى سوءاً إذا
احتفظ بمصر فلم التف حوله القبط وتابعوه وصالحوا العرب لصالحه لهم
وهو ملكي ؟ وقد قدمنا أن اليعاقبة كانوا يعتبرون مجرد الاشتراك مع
الملكيين في أى عمل خيانة عظيمة لا تغفر .

وإذا كان المقوقس ملكي المذهب وأنه هو الذى نكل بالقبط عشر
سنين فكيف يعقل أن يكون القبط في صفه وأن تتركه الروم وشأنه

ولم ينقض الصلح مع القبط ، بينما استمر الروم في الدفاع عن البلاد الى النهاية ؟
لهذا لا نوافق (بطرل) ولا غيره من المؤرخين الذين رأوا أن المقوقس
كان ملكياً ، ونميل الى القول بأن المقوقس كان قبطياً يعقوبى المذهب من
أصل يونانى ، عينه (هرقل) لما رأى فيه من الحزم والنبيل واحترام القبط له
وما اشتهر به من جميل الخصال وكريم الافعال . واذا كان ملكياً فى الظاهر
ولكنه اعتنق المذهب اليعقوبى سرا كي لا يعلم بذلك (هرقل) فينقم عليه
ويصب عليه هام غضبه ، وإذا قيل إن البطريق (بنيامين) فر من وجه
المقوقس نفسه حين علم بعودته الى مصر قبيل الاضطهاد الذي دام عشر
سنين ، فلا يبعد أن يكون المقوقس نفسه هو الذى أشار على (بنيامين)
بالالتجاء إلى أحد الاديرة كي ينجو من ظلم الروم .

والظاهر أن المقوقس لم يكن له من النفوذ والسلطان ونفاذ الكلمة
ما يكفل له وقف هذه المذابح التى قام بها الروم حتى لا تنكشف حقيقة
أمره فيمثل به (هرقل) رواية الغدر ، لان الروم كانوا يقتفون أثر من اشتهر
بمخالفة مذهب خلقدونية أو عرف بالميل الى اليعاقبة أعداء هذا المذهب
ولا يبعد أن يكون (قيرس) والمقوقس شخصين مختلفين كما رأى أيضاً
دى غويه ، فكان للاول السلطة العسكرية ، والثاني السلطة المدنية . وكان
(قيرس) ملكياً متعصباً لمذهبه فقام بهذه الاضطهادات فى جميع أنحاء
الديار المصرية ، ولم يكن للمقوقس وهو الحاكم الملكى للبلاد من النفوذ
والقوة بحيث يتمكن من إيقاف تلك المذابح البشرية والاضطهادات
المريعة . فلما رأى المقوقس توغل العرب فى قلب مصر ، وأن البلاد واقعة

لأحالة في أيديهم ، وأن سلطان الروم أصبح قاب قوسين أو أدنى من الزوال ، شرعان ما اتجه بقلبه وقلبه الى العرب ، وعمد الى ممالأتهم هو والقبط ، لانه كان له نفس طموحة .

هذه كلها فروض نفرضها ، ولكننا لا نستطيع أن نزعم صحتها لنقص الأدلة التاريخية .

حصار عمر و الحصن بابليون

ورسالة المقوقس عمرا بشأنه الصالح

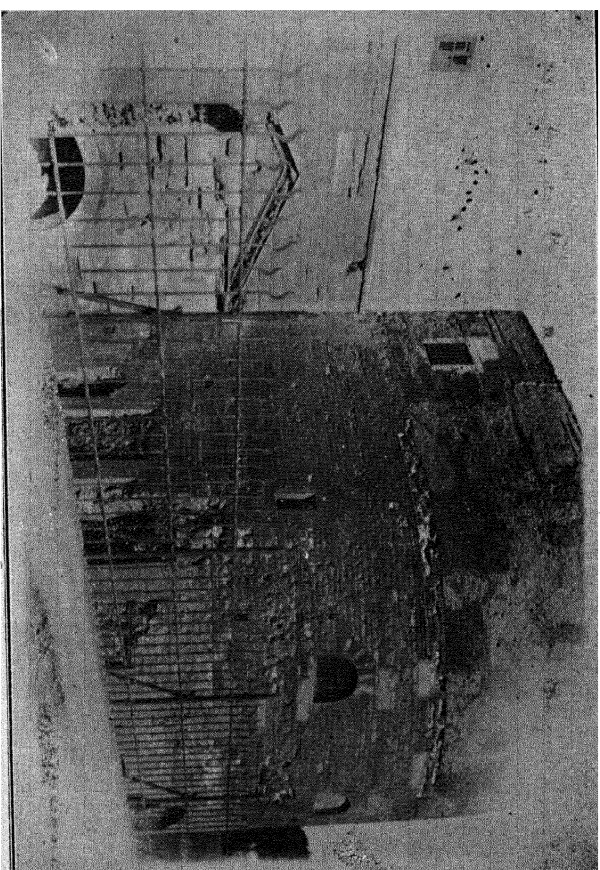
لما تم للمسلمين النصر على الروم في واقعة عين شمس (هليوبوليس) سار لحصار حصن بابليون أو قصر الشمع في أوائل سبتمبر سنة ٦٤٠ م وسنة ٢٠ هـ : أى زمن فيضان النيل . وكانت أسوار الحصن المتينة وأبراجه الشائخة يحيط بها النيل ، وقد ارتفع ماؤه فامتلاً الخندق الذى حوله . وكان العرب مفتقرين لمعدات الحصار بل وغير قادرين على استعمالها استعمالاً يكفل لهم أن ياحقوا بالروم خسارة كبيرة . كل ذلك أطال أمد الحصار حتى بلغ سبعة أشهر كما اتفق المؤرخون على ذلك .

ولما حاصر المسلمون (بابليون) أو (بابليون) كان بالحصن حاكم مصر المقوقس وكان قائد الحامية رجل يقال له الاعرج . ولم تكن قوته بأكثر من خمسة آلاف أو ستة آلاف مقاتل على مارواه (بطر) ولكننا نشك في صحة هذا العدد ونرجح أن يكون أكبر من هذا بكثير لورود الفالة اليه بكثرة عقب الوقائع المتقدمة .

صف عمرو جند المسلمين حول الخندق ووضع عليه المنجنيق . وهو أعظم آلات الحصار إذ ذاك ، وقد جعل الروم للخندق أبواباً وجعلوا حسك الحديد (الأهرام الفارغة) موتدة بأفنية الابواب ، وظل القتال بين الفريقين شهراً كاملاً . ولما رأى المقوقس الجد من العرب ، وصبرهم على القتال ، وأنهم سوف يقتحمون الحصن ، خرج هو ونفر من قومه من الباب القبلى حتى لحقوا بالجزيرة . حيث أرسل المقوقس الى عمرو ابن العاص :

إنكم قوم قد ولجتم فى بلادنا وألحتم على قتالنا وطال مقامكم فى أرضنا وأنتم عصابة يسيرة . وقد أظلتكم الروم وجهزوا إليكم ومعهم العدة والسلاح وقد أحاط بكم هذا النيل . وانما أنتم أسارى فى أيدينا ، فابعثوا إلينا رجالاً منكم نسمع من كلامهم فلعله أن يأتى الأمر فيما بيننا وبينكم على ما تحبون ونحب ، وينقطع عنا وعنكم القتال قبل أن تغشاكم جموع الروم فلا ينفعنا الكلام ولا تقدر عليه . ولعلكم تندمون ان كان الأمر مخالفاً لطلبتكم ورجائكم ، فابعثوا إلينا رجالاً من أصحابكم نعاملكم على ما نرضى نحن وهم به من شئء اه .

وقد أخطأ المقوقس فى فهم عمرو بن العاص ، فخفى عليه أنه لا يؤتى بالتهديد والتخويف فأرسل إليه مع رسله هذه العبارة التى تشتم منها راحة الارهاب والتهديد إذ توهم أن جموع الروم وما معهم من العدة والسلاح تحول دون تنفيذ إرادة عمرو أو تؤثر فيما أوتيه من صدق الأيمان وحسن اليقين وعدم المبالاة بالموت ابتغاء مرضاة الله ونصرة الإسلام .



حصن بابليون والباب الذي خرج منه المقوقس أثناء الفتح
رسم حضرة محمد أفندي يوسف مهندس بتنظيم مصر

فلما أتت عمرو بن العاص رسل المقوقس أبقاهم عنده يومين حتى خاف عليهم المقوقس فقال لقومه : أترون أنهم يقتلون الرسل ويستحلون ذلك في دينهم ؟ ولم يدر المقوقس أن عمرًا إنما أبقاهم ليروا حال المسلمين . وبعد انقضاء اليومين رد عليهم عمرو قائلًا : إنه ليس بيني وبينكم إلا إحدى ثلاث خصال :

(١) أما إن دخلتم في الاسلام فكنتم إخواننا وكان لكم مالنا وعليكم ما علينا .

(٢) وإن أيتتم فأعطيتم الجزية عن يد وأتم صاغرون .

(٣) وأما إن جاهدناكم بالصبر والقتال حتى يحكم الله بيننا وبينكم وهو أحكم الحاكمين .

سر المقوقس بقدم رسله وسألهم عن حال العرب فأجابوا :

رأينا قومًا الموت أحب إليهم من الحياة ، والتواضع أحب إليهم من الرفعة - ليس لأحد في الدنيا رغبة ولا نهمة ، وإنما جلوسهم على التراب وأكلهم على ركبهم وأميرهم كواحد منهم ، ما يعرف ربيعهم من وضيعهم ولا السيد فيهم من العبد ، وإذا حضرت الصلاة لم يتخلف عنها منهم أحد ، يغسلون أطرافهم بالماء ويخشعون في صلاتهم .

فأرهب المقوقس هذا الكلام وعلم أن قومًا هذه حالهم سوف يقتحمون الحصن وينتصرون عليهم . وأشار على قومه باغتنام فرصة الصلح قبل فواتها . فأجيب إلى طلبه ، فأرسل إلى المسلمين أن يبعثوا رسلًا منهم يتداعى معهم إلى ما عسى أن يكون فيه صلاح للفريقين .

فبعث عمرو بن العاص إليهم عشرة رجال عليهم عبادة بن الصامت، وأمره عمرو أن يكون متكلم القوم - وأن لا يجيبهم إلا إلى إحدى هذه الخصال الثلاث - فلما دخلت رسل المسلمين إلى المقوقس ، هاب هذا عبادة لسواده وفراط طوله ، وأراد أن يتقدم إليه غيره ليكلمه فقال المسلمون : إن هذا الأسود أفضلنا رأياً وعاماً وهو سيدنا وخيرنا والمقدم علينا ، وإننا نرجع جميعاً إلى قوله ورأيه وقد أمره الأمير دوناً بما أمره به . اهـ

ونحن نرى أن المقوقس قد توهم أن عمرراً أمر عبادة - هذا الأسود - أن يكون متكلم القوم تصغيراً للشأن المقوقس ، وإلا فإن المقوقس لم يعدم أن يكون في قصره العشرات من العبيد .

فلم ير المقوقس بداً من محادثة ومفاوضة عبادة . وابتدأ هذا الحديث وقال : إنما رغبنا وهمتنا الجهاد في الله ، وليس غزونا عدونا ممن حارب الله لرغبة في دنياً ولا طاب الاستكثار منها ، إلا أن الله عز وجل قد أحل لنا ذلك ، وجعل لنا ما نغنمنا من ذلك حلالاً . وما يبالي أحدنا إن كان له قطار من ذهب أو كان لا يملك إلا درهماً ، لأن غاية أحدنا من الدنيا أكلة يأكلها يسدها جوعه ليله ونهاره ، وشملة يلتحفها ، فإن كان أحدنا لا يملك إلا ذلك كفافه ، وإن كان له قطار من ذهب أنفقه في طاعة الله واقتصر على هذا الذي بيده . إنما النعيم والرخاء في الآخرة ، وبذلك أمرنا الله وأمرنا به نبينا وعهد الينا أن لا تكون همة أحدنا من الدنيا إلا ما يمسك جوعته ويستر عورته ، وتكون همته وشغله في رضوانه وجهاد عدوه . اهـ باختصار .

فأَمَّنَ المقوقس على كلام عبادة وأراد أن يسلك طريق الأَرهاب
 المصوغ في قالب النصيحة فقال : أيها الرجل قد توجه إلينا لقتالكم من
 جمع الروم ما لا يحصى عدده ، قوم معرو فون بالنجدة والشدة ما يبالي أحدكم
 من لقي ولا من قاتل ، وإنا لنعلم أنكم لن تقدرُوا عليهم وإن تطيقوهم
 لضعفكم وقلتكم ، وقد أقمتم بين أظهرنا شهراً وأنتم في ضيقتي وشدة من
 معاشكم وحالكم ، ونحن نرق عليكم لضعفكم وقلتكم وقلة ما بين أيديكم ،
 ونحن تطيب أنفسنا أن نصالحكم على أن نفرض لكل رجل منكم دينارين
 دينارين ولأَميركم مائة دينار وخليفتم ألف دينار ، فتقبضونها وتنصرفون
 إلى بلادكم قبل أن يغشاكم ما لا قوام لكم به . اهـ

فقال عبادة : يا هذا لا تفرَّغ نفسك ولا أصحابك ما تخوفنا به من
 جمع الروم وعددهم وكثرتهم وأنا لا نقوى عليهم ، فلعمري ما هذا بالذي
 تخوفنا به ولا بالذي يكسرنا عما نحن فيه ان قتلنا عن آخرنا كان
 أمكن لنا في رضوانه وجنته ، وما من شيء أقر لا عُيننا ولا أحب إلينا من
 ذلك . وإن الله عز وجل قال في كتابه (كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة
 باذن الله والله مع الصابرين) وما من رجل الا وهو يدعو ربه صباحاً ومساءً
 أن يرزقه الشهادة وأن لا يرده الى بلده ولا الى أرضه ولا الى أهله وولده ،
 فانظر الذي تريد فيبينه لنا فليس بيننا وبينكم خصلة نقبلها منك ولا نجيبك
 إليها إلا خصلة من ثلاث خصال ، فاختر أيها شئت ولا تطمع نفسك في
 الباطل . اهـ

فألح المقوقس على عبادة وأصحابه أن يجيبوه الى خصلة غير هذه الثلاث

الخصال . فرفع عبادة يديه وقال : لا ورب هذه السماء ورب هذه الارض ورب كل شيء ، ما لكم عندنا خصلة غيرها فاختاروا لأنفسكم . فقال المقوقس لمن حوله : أجيئوني وأطيعوا القوم إلى خصلة من هذه الثلاث فوالله ما لكم بهم طاقة ، وإن لم تجيبوا إليهم طائعين لتجيبهم إلى ما هو أعظم منها كارهين (١) . اهـ

رجع المقوقس وأصحابه إلى الحصن حيث عقد اجتماعا يعرض عليه حالهم وحال المسلمين إزاءهم ، فأبوا أن يذعنوا لسلطان العرب وخالفوا المقوقس وقبحوا رأيه وعولوا على مواصلة القتال .

ومن هنا ظهر الخلاف بين روايات المؤرخين ظهوراً بيناً بحيث يصعب أن نقف على ما كان بين المسلمين والروم قبل أن يعقد المقوقس مع عمرو الصلح ويكتب بذلك إلى هرقل .

(١) ذكر ابن عبد الحكم والمقرئى : أن شروط عمرو قد رفضت فألح المسلمون عند ذلك بالقتال حتى ظفروا بمن في القصر وقتلوا منهم خلقاً كثيراً . ولما رأى المحاصرون ذلك قبلوا ما كان قد حملهم عليه المقوقس وأذعنوا بالجزية . (٢)

(١) راجع فتوح مصر لابن عبد الحكم (ص ٥٩ - ٦٣) م والخطط للمقرئى (ج ٢ ص ٢٩٠ - ٢٩٣)

(٢) ذكر مؤرخو العرب أن الحصار انتهى إلى هذا الحد وأن المسلمين استولوا على الحصن ، وأن المقوقس أبرم شروط الصلح مع عمرو نفسه عن القبط ، وهو يخالف ما ذكره بطر (ص ٢٦٤) أن هرقل استدعى المقوقس إلى القسطنطينية حيث أنبه واتهم بالخيانة ونفاه وهدده بالقتل .

(٢) وقد ذكر السيوطي : أنه بعد انصراف عبادة بن الصامت نصح المقوقس لأصحابه أن يعملوا برأيه فيؤدوا الجزية للعرب فرضوا بذلك وطلب المقوقس الاجتماع بعمره وبعض أصحابه فاجتمعوا واصطلحوا على أن يكتب بذلك للملك الروم فان قبل ذلك ورضيه أجازوه ، وإلا رجعوا الى ما كانوا عليه . ولما رفض هرقل الصلح لم ينقض المقوقس عهده .

(٣) واتفق أبو المحاسن مع ابن عبد الحكم والمقریزی ، ولكنه زاد على أن المقوقس أذعن للصلح عن نفسه وعن القبط معه ، ولكنهم رفضوا ذلك فألح عليهم المسلمون بالقتال حتى هزموهم واستولوا على الحصن وأرغموهم على دفع الجزية .

(٤) وذكر ياقوت في معجمه ما ذكره السيوطي وزاد عليه : أن اجتماع المقوقس وعبادة كان بعد استيلاء العرب على الحصن .

وبالرغم من تناقض هذه الأقوال فالتناقض منها على أربعة أمور :

(١) أن الاجتماع حصل بالفعل وقت فيضان النيل في شهر أكتوبر :

(٢) وأنه أذى الى الرفض واستئناف القتال :

(٣) وأن القتال كان وبالا على الروم فغيروا رأيهم :

(٤) وأن معاهدة الصلح دونت بالفعل وأن تنفيذها أرجى الى ما بعد

موافقة الامبراطور .

يستنتج مما تقدم أن ما ذكره ابن عبد الحكم والمقریزی وأبو المحاسن

ان فتح حصن بابليون كان عقب رفض الروم شروط الصلح مباشرة خطأ

محض . لانه لم يكن قد انقضى على الحصار الا شهر واحد (أعنى زمن ارتفاع النيل) وقد انفق المؤرخون على أن الحصار دام سبعة أشهر ، فلا يعقل أن يكون استبلاء العرب على الحصن إلا وقت انخفاض النيل
(ج) . معاهدة الصالح بين عمرو والمفوقس :

وإنا إذا كرون ماورد في معاهدة الصالح بين عمرو والمفوقس نقلا
عن الخطط للمقرئى (ج ١ ص ٢٩٢) :

إصطاح عمرو والمفوقس على أن يفرض لهم (للمسلمين) على جميع
من بمصر أعلاها وأسفلها من القبط ديناران ديناران على كل نفس شريفهم
ووضيعهم ممن بلغ منهم الحلم ، ليس على الشيخ الفانى ولا على الصغير الذى
لم يبلغ الحلم ولا على النساء شئ ، وعلى أن للمسلمين عليهم النزل بجماعتهم حيث
نزلوا ، ومن نزل عليه ضيف واحد من المسلمين أو أكثر من ذلك كانت
لهم ضيافة ثلاثة أيام مفترضة عليهم ، وأن لهم أرضهم وأموالهم لا تعرض
لهم فى شئ منها . اه .

وأحصوا عدد القبط يومئذ ممن بلغ الجزية وفرض عليهم الديناران
فكان جميع من أحصى يومئذ بمصر أعلاها وأسفلها ستة آلاف ألف نفس
(ستة ملايين) فكانت فريضتهم يومئذ إثني عشر ألف دينار (إثني
عشر مليوناً) (١) .

(١) أما قول أبى المحاسن (ج ١ ص ١٩) أن عدد من فرضت عليهم الجزية
من القبط بمصر أعلاها وأسفلها ستة آلاف ألف نفس فكانت فريضتهم إثني عشر
ألف دينار فقول مردود ، لان القبط كانوا كما لا يخفى يكونون السواد الاعظم
من السكان .

ولا يعقل أن يكون من بلغ الحلم من المصريين من الرجال وحدثهم ستة ملايين . ولو كان عدد من بلغ الحلم ربع سكان المصريين ، للزم أن يكون عددهم أربعة وعشرين مليوناً من الأنفس - وهو بعيد عن الحقيقة . يدل ذلك على ذلك ما رواه البلاذري في « فتوح البلدان » : « جى عمرو بن العاص خراج مصر وجزيته ألفى ألف . وجباها عبد الله بن سعد بن أبي سرح (في خلافة عثمان) أربعة آلاف ألف . فقال عثمان لعمره : ان اللقاح بمصر يمدك قد درت ألبانها . فقال عمرو : ذلك لأنكم أعجمتموها . والذي يمكن أن يفهم أن الاثنى عشر مليوناً إنما كانت مجموع الخراج والجزية ، لا الجزية خاصة .

(د) رفض هرقل الصلح واستئناف القتال بين المسلمين والروم :

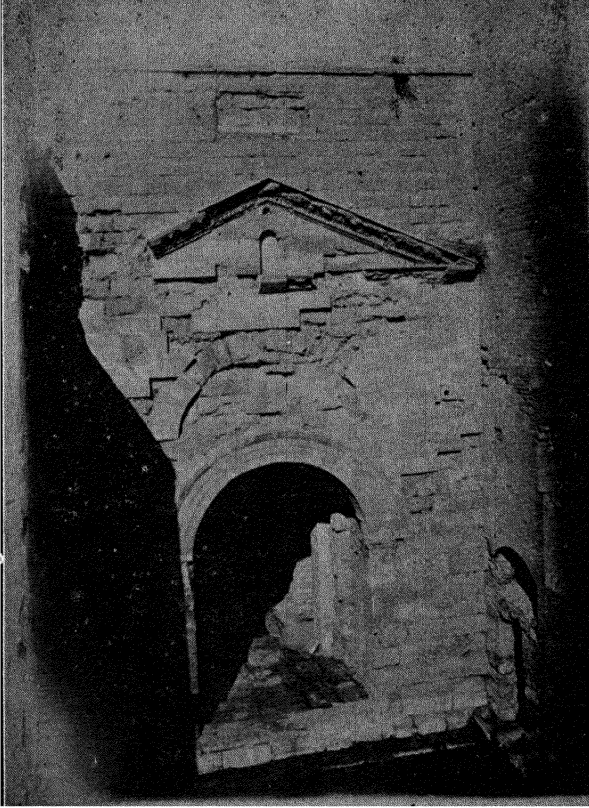
لما تعاهد عمرو والمقوقس على ما تعاهدا عليه ، شرط المقوقس للروم على أن يخيروا بين الرضى بما رضى به القبط وبين اللحاق ببلاد الروم ، وكتب الى (هرقل) بما تم عليه الصلح فكتب اليه كتاباً يوبخه فيه على التسليم ويحتقر قوة المسلمين . وكتب بمثل ذلك الى قواد الروم فأعادوا الكرة على المسلمين ونبذوا صلحهم . أما المقوقس فلم يعبأ بقول هرقل بل أقبل على عمرو وأعلمه أنه لم يخرج عما عاقده عليه ، وأن القبط متمون له على ما صالحهم عليه . فطلب منه عمرو أن يضمنوا له الجسرين جميعاً ويقيموا لهم الانزال والضيافة والاسواق والجسور بين القسطنطينية والأسكندرية ، وصارت لهم القبط أعواناً (ابن عبد الحكم ص ٦٤) وقد عد مؤرخو الفرنج أن هذا العمل خيانة من المقوقس ، ولكن اذا ثبت

لنا أن جند الروم قد بلغوا من الضعف بحيث لم يتمكنوا من رد العرب وهم عصابة قليلة ، فلم يمكنهم التغلب عليهم ، وقد دوخوا الفرس وقهروا هرقل ، وقد سئم المصريون حكم الروم لظلمهم وعسفهم ، وبلغهم أن المسلمين لم يتعرضوا لأهالى البلاد التى افتتحوها فأطلقوا لهم حرية الفكر والدين . إذا ثبت كل ذلك جاز أن ناتمس له عذراً فيما فعل .

والتأمل لعهد الصالح بين عمرو والمقوقس يرى أنه شمل قبط مصر كلهم ، مع أن عمرأ لم يفتح بعد بقية البلاد التى استعصت عليه فى القتال . فهل نقض القبط عهد الصالح ؟ أم حامية الروم فى البلاد هى التى ناوت عمرأ العداء . ووقفت فى وجهه مدة طويلة ؟ والذي يلوح لنا ترجيح الأمر الثانى ، وإذا كان بعض القبط قد اشتركوا مع الروم فلم يشتركوا فى الأمرين (هـ) اقتحام الحصن :

حال ارتفاع مياه النيل دون اقتحام حصن بابليون ولم يكن لدى عمرو من الوسائل ما يكفل له اقتحامه سوى الاعتصام بالصبر ديثما تفيض مياهه . ولم يرد لحامية الحصن من الأنباء ما يخفف عنهم ما كانوا فيه من ضيق وشدة ، إلا أنهم تحملوا مشاق الحصار طويلا ونابروا على الدفاع بصبر وجلد . وفى شهر مارس سنة ٦٤١ م (٢٠ هـ) سمعوا فى معسكر المسلمين صياحاً عالياً علموا منه بموت هرقل . (١)

(١) ذكر السيوطى (ج ١ ص ٥٢) وابن عبد الحكم (ص ٩٦) أن هرقل مات سنة ١٦ هـ ، وأخرج كل منهما عن الليث بن سعد أنه مات سنة ٢٠ هـ ، فكسر الله بموته شوكة الروم . وهذا بعيد لأن موت هرقل كان فى ١١ فبراير سنة ٦٤١ م (٢٠ هـ) ولم يكن العرب فى هذا الوقت قد شرعوا فى حصار الاسكندرية .



الباب العمومي لحصن بابليون وهو الباب الذي خرج منه المقوقس
رسم حضرة محمد افندي يوسف مهندس بتنظيم مصر

فسلبهم هذا الحادث المحزن شجاعتهم وحمتهم وهياً للسرب سبيل الانتصار عليهم . أما اقتحام الحصن فقد كان على يد الزبير بن العوام . ذلك أنه لما أبطأ الفتح على عمرو قال الزبير بن العوام (على ما رواه ابن عبد الحكم) : إني أهب نفسي لله تعالى وأرجو أن يفتح الله بذلك على المسلمين ، فوضع مسلماً إلى جانب الحصن من ناحية سوق الحمام (١) ثم صعد وأمرهم إذا سمعوا تكبيره أن يجيبوه جميعاً فاشعروا إلا والزبير على رأس الحصن يكبر ومعه السيف ، وتحامل الناس على السلم حتى نهام عمرو خوفاً من أن ينكسر ، وكبر الزبير تكبيره فأجابه المسلمون من الخارج ، فلم يشك أهل الحصن أن العرب قد اقتحموا جميعاً فهربوا ، وعمد الزبير بأصحابه إلى باب الحصن ففتحوه واقتحم المسلمون الحصن ، فلما خاف قائد الروم على

(١) أجمع المؤرخون كابن عبد الحكم والمقرئ وأبو المحاسن والـيوطى وياقوت على أن الزبير اقتحم الحصن من الموضع الذي كان يعرف بسوق الحمام بعد ذلك . ولكن ليس من السهل أن ندل بالضبط على الموضع الذي وضع الزبير فيه السلم فقال (بطر) نقلاً عن « أوتينخوس » أن سوق الحمام كان جنوبى الحصن . ومن سار على هذا الرأي أيضاً البلاذرى ، وأضاف إليه أن الزبير أتى من الشمال إلى الجانب المقابل : أعنى الجنوب ويرى (بطر) أن هجوم العرب كان من الجنوب الشرقى للحصن حيث لا يزال السور قائماً إلى الآن . وذكر ياقوت أن هذا السلم كان بسوق وردان وظل باقياً في منزل من المنازل فاختنق عقب احتراق هذا المنزل سنة ٣٩٠ هـ (١٠٠٠ م) وروى ابن عبد الحكم أن شراً حيل بن جحّة المرادى نصب سلماً آخر من ناحية الزمامرة اليوم

نفسه ومن معه سأل عمرو بن العاص الصالح فأجابه عمرو إلى ذلك ، وكان مكثهم على القتال حتى فتح الله عليهم سبعة أشهر (١) اهـ

وكان انتهاء أمد الحصار واستيلاء المسلمين على حصن بابليون في شهر إبريل سنة ٦٤١ م (٢٠ هـ) على ما رواه « بطر » ، أما كون المقوقس هو الذى عقد الصالح مع عمرو بعد سقوط الحصن وتسليم الحامية بعد سبعة أشهر على ما ذكره مؤرخو العرب فلا يمكن تصديقه ، لأن المقوقس كان إذ ذاك خارج الديار المصرية . وإنما يحتمل أن عمرا صالح حامية الروم بعد تسليمها إليه . هكذا قال بطر وهو بعيد ، إذ صار المقوقس بالصالح مع العرب بعيد عن أن تناله يد (هرقل) . وكان يجب على عمرو بمقتضى شروط الصالح أن يحميه من كل سوء ، لأنه لم يعتزل الروم إلا بعد أن تحقق لديه أن العرب لا محالة منتصرون عليهم

وقد روى بطر عن المقرئ (ج ١ ص ٢٩٤) أن المسلمين قتلوا من الروم اثني عشر ألفاً وثلاثمائة عقب استيلائهم على الحصن . وهو خطأ ، لأن المقرئ تناول الكلام على عدد جيش عمرو بن العاص وأنه كان خمسة عشر ألفاً عند حصاره لهذا الحصن (أخرج هذا عن يزيد بن أبي حبيب) ، وأخرج عن عبد الرحمن بن سعيد بن مقلاص أن الذين جرت سهمانهم في الحصن من المسلمين اثني عشر ألفاً وثلاثمائة بعد من أصيب

(١) أصبح المقوقس مع العرب بعد شهر واحد من حصار حصن بابليون ولا بد أن تكون الحامية الرومية هي التى صالحت عمرا بخلاف ما ذكره ابن عبد الحكم وغيره

منهم في الحصار بالقتل والموت ، اهـ

مسير عمرو الى الاسكندرية واسمها في ذلك الوقت :

(١) اسمها ، عمرو على كوم سربك واسطيس والكبرونه :

كانت الاسكندرية عند استيلاء العرب على مصر قصبة الديار المصرية وثانية حواضر الامبراطورية الرومانية الشرقية . وقد أيقن امبراطور الروم أن سقوط هذه المدينة في أيدي العرب يؤدي حتما الى زوال سلطانه من مصر زوالا لا رجوع بعده ، فبعث اليها بالجيوش الجرارة ، واستجاشت الروم وأغلقوا أبواب المدينة وتحصنوا فيها .

وبعد أن استولى عمرو بن العاص على حصن بابليون سار بجيشه الى الاسكندرية ، وخرج معه رؤساء القبط وقد أصلحوا لهم الطرق وأقاموا لهم الجسور والاسواق وصارت لهم القبط أعوانا على ما أرادوا من قتال الروم ، فلم يلق عمرو أحداً حتى بلغ (طرنوط) (١) فلقى بها طائفة من الروم فقاتلوه قتالا خفيفاً فغلبهم على أمرهم .

روى « بطلمس ٢٨٢ ٢٨٤ » أنه بعد أن ترك عمرو مدينة (طرنوط) وقعت بين الروم والعرب موقعة هائلة في مدينة نقيوس التي قامت على أطلالها قرية شبشير الواقعة الى الشمال والغرب من منوف ،

(١) قال المرحوم على مبارك باشا في خطته : الطرانة مدينة تذكر كثيراً في كتب القبط وتعرف في الكتب القديمة : باسم (طرنوطيس) وسماها ابن حوقل والأدريسي وثورخو بطارقة الاسكندرية (طرنوط) وهى واقعة على الشاطئ الغربى لفرع رشيد ومنها الى القاهرة نحو ٤٠ ميلا والى الاسكندرية نحو خمسة أيام ، وكان يجرى النيل في وسطها

انتصر فيها عمرو على الروم انتصارا مبيناً . وقد عزا « يوحنا » أن انكسار الروم كان من جراء ما أصاب قائدهم من الفزع والهلع حين علم بدنو جند المسلمين ففر مسرعاً الى الأسكندرية وطرح من تحت إمرته من الجند سلاحهم وقذفوا بأنفسهم في الماء فلم يعثروا على قواربهم وقد ولى فيها الملاحون الأدبار حين شعروا بدنو الخطر منهم لينجوا بأنفسهم حتى لحقوا بقراهم . وفي هذه الاثناء انقض المسلمون على الروم العزل في الماء ووضعوا السيف في رقابهم ، وعلى أثر ذلك دخل العرب المدينة بلا مقاومة ، حيث لم يبق من جند الروم على قيد الحياة أحد ، وأن العرب قتلوا كل من لجأ الى الكنائس أو صادفوه في شوارع المدينة رجالاً ونساء وأطفالاً (١)

وهذا محض افتراء لأن العرب لم يعلم عنهم أنهم تعرضوا للأهالى البلاد التي افتتحوها وهم عزل من السلاح غير قادرين على القتال . بل بالعكس كانوا يؤمنونهم على أموالهم وعيالهم في حين خلودهم الى السكينة وجنوحهم الى السلام ورغبتهم في استتباب الأمن والنظام .

وقد ذكر المقرئى (ج ١ ص ١٦٧) أن أول موضع قوتل فيه عمرو هو (مربوط) مع أن المسافة بين مربوط وطرنوط بعيدة جداً ، ولعل هذا الخطأ ناشئ من عدم دراية النساخ بالمواقع الجغرافية .

أرسل عمرو بن العاص شريك بن سمي لتعقب جيش الروم المرتد على

(١) وقد ذكر (بطر) أن مؤرخى العرب لم يتعرضوا لذكر هذه الموقعة وأن المصدر الوحيد الذى استقى منه هذه الواقعة مفصلة هو (يوحنا أسقف ققيوس) . وقد بحثنا كثيراً عن كتابه فى المكتبة السلطانية ، وفى مكتبة الجامعة المصرية وفى غيرهما من المكاتب الشهيرة فلم نعث عليه

أعقابه فأخذ يطاردهم حتي أدركهم عند كوم شريك (١) فأحاطت به الروم، فلما رأى ذلك شريك بن سمي أمر أبا ناعمة مالك بن ناعمة الصدفي فجداً في السير فلم تدركه الروم حتي أتى عمرأ فأخبره ، فأقبل بجنده وسمعت به الروم فانصرفت بعد قتال دام بينهم وبين شريك ثلاثة أيام على مارواه ابن عبد الحكم ، ثم التقى عمرو بالروم بسططيس (٢) فهزمهم وبعدهم مسيرة عشرين ميلاً التقى بالروم في الكريون (٣) وكانت آخر حلقة في سلسلة الحصون التي بين بابلين والاسكندرية.

تخصّن « تيودور » في حصنها المنيع وقاتل المسلمين قتلاً شديداً دام بضعة عشر يوماً ، فأيد الله المسلمين بالنصر وولى الفالة الأدبار حتي وصلوا الى الاسكندرية .

وكان عبد الله بن عمرو بن العاص على المقدمة ، وحامل اللواء وردان مولى عمرو ، فأصاب عبد الله جراحات كثيرة فقال : يا وودان لوتقهقرت

(١) هذه المدينة واقعة على بعد ستة عشر ميلاً شمالى طرنوط بمديرية البحيرة بمرکز النجيلة .

(٢) هذه المدينة واقعة على ستة أميال جنوبى دهنهور في منتصف المسافة بين كوم شريك والكريون .

(٣) ذكرها المرحوم على مبارك باشا في خطظه فقال : كانت هي المحطة الاولى التي ينزل فيها السياحون بعد السفر من الاسكندرية . وقدر بعضهم تلك المسافة بمسيرة مرحلة . وقال « كتر مير » إن هذه المدينة موجودة الآن وتعرف باسم (كريون)

قليلا نصيب الروح . فقال وردان : الروح تريد الروح أمامك وليس خلفك .
فتقدم عبد الله فجاءه رسول أبيه يسأله عن جراحه فقال :
أقول لها اذا جشأت وجاشت رويدك تحمدى أو تستريحي
فرجع الرسول الى عمرو وأخبره بما قاله عبد الله . فقال عمرو : هو
ابنى حقاً .

وقد استغرق عمرو في مسيره إلى الأسكندرية وانتصاره على الروم
في الوقائع التي ذكرناها اثنين وعشرين يوماً على ما رواه « جبون » ج ٨
ص ١٧٠

(ب) عمرو وفتح الاسكندرية :

كانت مدينة الأسكندرية ثانية عواصم الأمبراطورية الرومانية
الشرقية كما قدمنا، وأول مدينة تجارية في العالم . لذا عنى الرومان والبطالسة
من قبلهم بتحصينها لتقوى على رد غارات المغيرين وصدهجمات الفاتحين ،
ولوقوعها على بحر الروم كان يتدفق عليها المدد من امبراطور الروم . ولم
يكن لدى عمرو من السفن ما يمنع المدد من أن يصل إلى المدينة .
وكانت حامية الروم لا تقل عن خمسين ألف جندي ، مزودين بالمؤن
الوفيرة . ولم تكن دربة العرب كافية في استعمال آلات الحصار (وقد
استولوا على كثير منها عقب انتصاراتهم على الروم في الوقائع السابقة
ولم يتمكنوا من نقلها) . لذلك عولوا على الاستمسك بالصبر وعمل الحيلة
في الأعداء حتي يختم الله لهم بالنصر ، كما فعلوا في حصارهم لدمشق
وحلب وقصرية من مدن الشام . وكانت قوة عمرو ضئيلة اذا قورنت

بحامية الروم ، لانه لا بد أن يكون قد فُقد من جنسده أثناء الوقائع السابقة عدد غير قليل . واذا كانت قوة عمرو قد بلغت خمسة عشر ألفاً وخمسمائة أثناء حصاره لحصن بابليون ، فلم يزد عددهم عن اثني عشر ألفاً وهو على حصار الأسكندرية . وعندنا أن هذا العدد لا يكفي مطلقاً لاقتحام حصون المدينة التي لا ترام ، فلا بد أن يكون جيش عمرو أكثر من هذا العدد بكثير ، سيما إذا ذكرنا أن القبط كانوا للعرب أعواناً ، وأن عدداً كبيراً منهم انضم تحت لوائه ومهد له بمضهم سبيل الاستيلاء على المدينة . نزل المسلمون (١) ومعهم رؤساء القبط يدونهم بما احتاجوا إليه من الأطعمة والعلوفة ، فأقاموا شهرين (وكان ذلك في أوائل يونيه تقريباً) يردون غارات الأعداء .

وقد أخرج ابن عبد الحكم عن الليث بن سعد أن هرقل مات سنة ٢٠ هـ ، وعن يحيى بن أيوب وخالد بن حميد أن العرب أستأسدت عند ذلك وألحت بالقتال على أهل الاسكندرية وقاتلوهم قتالاً شديداً ، وكذلك ذكر المقرئ والسيوطي ، وهذا يخالف ما قدمناه من أن موت هرقل كان والمسلمون على حصار بابليون ، لأن العرب لم تكن حين موته

(١) لا يمكن بالضبط تعيين الموضع الذي نزل فيه المسلمون . وقد زعم (بطر) أنه كان بالشرق أو الجنوب الشرقي ، لأن المدينة محاطة بالبحر من الشمال وبحيرة مريوط من الجنوب وبقناة دراغون من الغرب . وكان نزول عمرو بعيداً عن أسوار المدينة تفادياً مما تلحقه بالمسلمين مقتذوفات آلات الروم وسهامهم . وقال السيوطي أن نزولهم كان ما بين حلوة إلى قصر فارس .

(١١ فبراير سنة ٦٤١) قد استولت بعد على الحصن . إذ لم يتم لهم ذلك إلا حوالى أواخر مارس أو أوائل إبريل من تلك السنة . وقد أخرج ابن عبد الحكم عن الليث بن سعد أنه خرجت من باب الحصن شرذمة من الروم وحملوا على المسلمين فقتلوا رجلاً من مهرة واحتزوا رأسه وانطلقوا به . فأبى المهيرون أن يدفنه إلا برأسه ، فقال لهم عمرو بن العاص : تنغصبون كأنكم تنغصبون على من يبالي بفضيكم ! أحمّلوا على القوم إذا خرجوا فاقتلوا منهم رجلاً ثم ارموا برأسه يرمونكم برأس صاحبكم . فخرج الروم إليهم فاقتلوا فقتلوا من الروم رجلاً من بطارقهم فاحتزوا رأسه ورموا به إلى الروم فرمت الروم برأس المهري صاحبهم إليهم . فقال عمرو : دونكم الآن فادفنوا صاحبكم . اهـ

هذه الحادثة على سذاجتها تبين لنا بداهة عمرو النادرة وقدرته على درء ما عسى أن يؤثر في جنده أو يشغلهم عن الجهاد من جراء مثل هذه الحادثة التي تشبث فيها المهيرون بضرورة دفن صاحبهم مع رأسه . فلهذا عمد عمرو بدعائه وحسن سياسته على تهدئة خواطر أصحابه بهذا الرأي الصائب والنظر الثاقب . ولا غرو فعمرو بن العاص رجل فذ لا يبالي بما يصادفه من العقبات فيعمل على تذليلها وتمهيد السبيل للقضاء عليها

قال « جيون ج ٩ ص ٢٧١ » : إن نفوس الالهيين كانت تتوق لهلاك هؤلاء الظالمين وطردهم من بلادهم ، فلم يألوا جهداً في مد يد المعونة إلى عمرو ، مادية كانت تلك المعونة أو عسكرية . وقد لاحظ البطريق « أو تيخوس » أن شجاعة العرب في القتال كانت كشجاعة الأسود ، (ورد

هذا الوصف في تاريخ ابن عبد الحكم (فردوا هجمات الروم المتواصلة وكانوا يقابلون هذه الهجمات بالمثل، فيحملون على أسوار المدينة وأبراجها . وفي كل هذه الحملات كنت ترى سيف عمرو ولواءه يتلألأان في مقدمة المسلمين . اهـ

باغ القتال ذات يوم أشده بين الفريقين حتى اقتحم المسلمون الحصن وقالوا الروم فيه إلا أن هؤلاء، حملوا عليهم (على المسلمين) حملة منكرة فأخرجوهم من الحصن الأربعة بينهم عمرو بن العاص ومسامة بن مخلد، فالتجأوا إلى ديماس من حمايتهم فدخلوا فيه فأمر الروم رجلاً منهم يكلمهم بالعربية فقال لهم : قد صرتم بأيدينا أسارى فاستأسروا ولا تقتلوا أنفسكم، فامتنعوا عليهم ثم قال لهم : إن في أيدي أصحابكم من أرجال أسروهم ونحن نعطيكم العهود نفادى بكم أصحابنا ولا نقتلكم ، فأبوا عليهم، فلما رأى الرومى ذلك منهم قال لهم : هل لكم إلى خصلة وهى نصف ، إن غلب صاحبنا صاحبكم استأسرتم لنا وأمكنتمونا من أنفسكم ، وإن غلب صاحبكم صاحبنا خليتنا سبيلكم إلى أصحابكم .

فرضوا بذلك وتعاهدوا عليه وتداعوا إلى البراز، فبرز رجل من الروم وقد وثقوا بنجدة وشدة، وأراد عمرو أن يبرز فنعه مسامة وقال : ما هذا تخطئ مرتين ، تشذ من أصحابك وأنت أمير وإنما قوامهم بك وفلوبهم معلقة نحوك لا يدرون ما أمرك حتى تبارز وتعرض للقتل ؟ فأن قتلت كان ذلك بلاءً على أصحابك ، مكانك وأنا أكفيك إن شاء الله . فقال عمرو : دونك فربما فرجها الله بك . فبرز مسامة للروم فأعانه الله عليه

فقتله ، فوفى لهم الروم بما عاهدوهم عليه فخر جوا ولا يدرى الروم أن عمرًا فيهم حتى بلغهم ذلك فأسفوا كل الأسف على ما فاتهم (١) اه بتصرف
هكذا ذكر ابن عبد الحكم والمقرئزى ، ونحن نشك في صحة هذه الحادثة ، بل نقول إنه يستحيل أن تكون صحيحة ، وإنما هي أساطير نشأت بعد الفتح تمجيداً للفاتحين وقائدهم .

ظل عمرو على حصار الأسكندرية أربعة عشر شهراً (٢) فأقلق هذا

(١) وقد ذكر « أيرفنج » أن عمرو بن العاص لما وقع أسيراً في الاسكندرية ووقف بين يدي حاكمها فنسى عمرو الحالة التي كان فيها وتكلم كلاماً يدل على الشجاعة وسمو المركز ، فاشتبه فيه الحاكم وأمر بقتله وكان وردان بجانبه فصفعه على وجنته وقال له : صه أيها الكلب لا تتكلم امام رؤسائك ، وهم مسلمة بالكلام وقال للحاكم : ان الخليفة بعث لعمرو بن العاص يأمره بالكف عن الحصار ومصالحة الروم ، وطلب من الحاكم أن يتوسط بينه وبين عمرو فخلى سبيله

(٢) روى الكندي (ص ٩) أن الحصار دام ثلاثة أشهر ، وعن الليث أنه دام ستة أشهر ، وقال المقرئزى (١٦٥ ص ١٠) وابن عبد الحكم (ص ٧٢) والسيوطى (١٠ ص ٥٣) وجبون (م ٩ ص ٢٧٢) وأيرفنج (ص ١١١) أن حصار المسلمين دام أربعة عشر شهراً . وقال البلاذرى (ص ٢٨٨) إنه دام ثلاثة أشهر . ونحن نرجح أن الحصار دام أربعة عشر شهراً ، لانه لا يعقل أن يظل حصار المسلمين لهذه المدينة ذات الحصون المنيعة والمؤن الوفيرة والمواصلات مع الخارج ثلاثة أشهر أو ستة ، مع أن المؤرخين أجمعوا أن قتال الروم بالاسكندرية كان أشد قتال

أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه وساورته الريب في سبب هذا الأبطاء ، فبعث لعمر بن العاص كتاباً يلومه فيه ويأمره أن يقرأه على المسلمين ليستنهض بذلك همهم ويحضهم على القتال ويرغبهم في الصبر وأن يكونوا يداً واحدة وقلباً واحداً . فقرأ عمرو الكتاب وعقد لعبادة ابن الصامت وولاه قتال الروم ، ففتح الله على يديه الأسكندرية وهزم الروم براً وبحراً .

وكان فتح الأسكندرية عنوة فجلهم عمرو ذمة على أن يخرج من يخرج ويقيم من يقيم باختيارهم .

وقد أخرج المقرئ عن ابن لهيعة أن عمر أجي جزية الأسكندرية ستمائة ألف دينار (٦٠٠ ٠٠٠) لأنه وجد ثلثمائة ألف من أهل الذمة فقدر عليهم دينارين ، فكانت مصر صلحاً كلها بفريضة دينارين على كل رجل . (١)

قال (بطر) : والذي عقد صلح الأسكندرية هو المقوقس فقد عاد إلى مصر من منفاه بعد موت هرقل . واليك هذه الشروط على مارواه « بطر » عن « يوحنا أسقف نقيوس » :

(١) دفع من فرضت عليهم الجزية دينارين كل سنة .

(١) ذكر المقرئ أن عمر لما فتح الاسكندرية كتب الى عمر بن الخطاب أن فيها أربعة آلاف حمام وأربعمائة ملهى للملك واثنى عشر ألف بقال يبيعون البقل الاخضر وسبعين ألف يهودى ، وكان بالاسكندرية مائتا ألف من الروم

(٢) المهادنة أحد عشر شهراً تنتهي في ٢٨ سبتمبر سنة ٦٤٢ م . (١)
(٣) وعلى العرب الاحتفاظ بمرأزهم أثناء أمد الهدنة وأن لا يباشروا أعمالاً حربية ضد الأسكندرية . وعلى الجنود الرومية أن تكفّ عن الاعمال العدائية .

(٤) وأن تبجر حامية الأسكندرية وكل الجيوش التي بها وأن يحملوا معهم كل ما يملكون من أموال وأمتعة ، وعلى الجنود الذين يرحلون عن مصر برأ أن يدفعوا الجزية عن شهر عند رحلتهم .

(٥) وأن لا يعود أو يحاول استرداد مصر جيش رومى .

(٦) وأن لا يتعرض المسلمون للكنائس بسوء وأن لا يتدخلوا بأى حال فى أمور المسيحيين .

(٧) وأن يبقى اليهود فى الأسكندرية .

(٨) وأن تكون لدى المسلمين من الروم ١٥٠ من العسكريين و٥٠٠ من الملكيين بمثابة رهينة لتنفيذ المعاهدة .

والفقرة الأولى مؤداها إعطاء الأمان على أرواحهم وأموالهم وكنائسهم وأن تطلق لهم حرية الدين :
وهؤلاء هم أهل الذمة (٢) . اهـ

(١) والظاهر أن هذه الهدنة كما قال ابن الأثير كانت إلى أن يرد كتاب

عمر باقرار شروط الصلح بين عمرو والمقوقس

(٢) وكانت هناك قرى ناصرت الروم على العرب وهي بلهيب وسلطيس

وسخا وقرطيا ، فسبوا أهلها وفرقت سباياهم بالمدينة فردهم عمر بن الخطاب إلى

ومن الغريب أن ابن عبد الحكم وغيره من المؤرخين المحدثين قد ذكروا أنه قتل من المسلمين وهم على حصار الأسكندرية إلى أن فتحت ، إثنان وعشرون مقاتلاً ، وهو يخالف ما ذكره « جيون » أنه فقد من المسلمين ثلاثة وعشرون ألفاً . وعندنا أن كلا العددين مبالغ فيه . لأنه لا يعقل أن يفقد المسلمون اثنين وعشرين مقاتلاً وهم على حصار الأسكندرية ذات الحصون المنيعه والأبراج العديدة التي كانت تصلهم ناراً (١) حامية مع طول أمد الحصار ، وهو شئ قليل جداً يزيد عليه عدد من يموت حتف أنفه من الجيش أضعافاً كثيرة .

ولا يمكن أن نستسلم للرأى القائل بأن المسلمين قد فقدوا ثلاثة وعشرين ألفاً ، لأن جند عمرو عند شروعه في حصار المدينة لم يبلغ هذا العدد هكذا تم لعمرو بن العاص فتح الأسكندرية أغنى مدن العالم وأوفرها ثروة وأوسعها تجارة ، وأخرج الروم منها أذلة وردهم على أعقابهم حين حدثهم أنفسهم باستردادها .

ولا يسعنا إلا الأقرار له بالفضل والبرغم بالثناء عليه لما حازه من الانتصار المبين ، فزال سلطان الروم في هذه الديار على يديه ، فأذعن أهلها بالطاعة ودان السواد الأعظم منهم بالأسلام على مر السنين وتوالى الأجيال .

قرايم وصيرهم وجماعة القبط أهل ذمة .

(١) هذه العبارة كناية عن شدة الحرب .

(ح) عمرو ونسبة حريق مكتبة الاسكندرية اليه :

لفظ بعض المتأخرين من المؤرخين في مسألة إحراق مكتبة الاسكندرية الشهيرة . وناقش هذا الخبر كثير من علماء الأفرنج مثل « جبون » و « بطر » و « سديو » و « چوستاف لیبون » وغيرهم فلم يمكنهم الجزم بأن عمرو بن العاص هو الذى أحرقها حقيقة بأمر الخليفة عمر بن الخطاب كما زعم بعضهم ، بل ارتابوا في صحة هذه الدعوى التى تنافى التقاليد الإسلامية ولا يؤيدها أحد من المؤرخين المعاصرين للفتح الإسلامى ، مثل « أوتيوخوس » الذى وصف فتح الاسكندرية بأسباب ، فلم يرد لهذا الخبر ذكر البتة في تواريخهم . والذى يدل على اختلاق هذا الخبر أيضاً أنه لم يرد في تواريخ المتقدمين كالطبرى والكندى واليعقوبى والبلاذرى وابن عبد الحكم ، ولا عن أحد منهم من المتأخرين كالمقرئى والسيوطى . لذلك طرحت هذه الأقوال الآن جانبا لأنها ليست قائمة على أساس متين .

وأول من نسب حريق مكتبة الاسكندرية إلى عمرو بن العاص عبد اللطيف البغدادى الذى توفي سنة ١٢٣١ م ، بخلاف ما ذكره المؤرخون المحدثون أن أبا الفرج الملقب (١) كان أول من ذكر هذه الحادثة ، لأنه عاش

(١) هو غريغوريوس أبو الفرج بن أهرون المعروف بابن العبرى ، ولد سنة ١٢٢٦ م . وكانت ولادته في مدينة ملطية قاعدة أرمينية الصغرى . جده من صغره في الحفظ وأقبل على ارتشاف العلم فدرس أولا اليونانية والسريانية والمربية ثم اشتغل بالفلسفة واللاهوت . فرَّ به والده إلى انطاكية سنة ١٢٤٣ م

من سنة ١٢٢٦ الى سنة ١٢٨٦ ب. م : أى بعد عبد اللطيف البغدادي ،
أما أبو الفرج فقد نسب هذا الحريق إلى عمرو في كتابه « مختصر الدول »
وتناقل هذه المسألة عنه كتاب الافرنج إلى هذه الغاية .

وإليك رواية أبي الفرج عن كيفية حريق هذه المكتبة على يد عمرو
ابن العاص . قال :

فاختار أبو الفرج هنالك طريقة الزهد والنسك وانفرد في مغارة بالبرية . ولم
يلبث غريغوريوس برهة في المغارة حتى شخص إلى طراباس الشام وأكمل قراءة
البيان والطب مع رفيق له يسمى صليبا . وفي تلك الاثناء إستدعاه البطريق
أغناطيوس سابا إلى انطاكية وراقه في العشرين من سنه إلى أسقفية جوباس من
أعمال ملطية ، ونصّب رفيقه أسقفاً على كنيسة عكاء . وما زال يرتقى في المناصب
الكبرى حتى كانت سنة ١٢٦٤ م فانتخبه البطريق أغناطيوس الثالث مغريانا
(مغريان كلمة سريانية معناها المثمر . وكان منصب المغريان عند اليعاقبة من أكبر
المناصب بعد البطريركية وهو بمقام كبير رؤساء الاساقفة) على جهات الشرق أي
نواحي ما بين النهرين الشرقية والعراق المعجمي ، فقام بمهام منصبه وأتى في مغريانيته
أعمالاً خطيرة وآثارا مشكورة . وعمر أبو الفرج ستين سنة وتوفي سنة ١٢٨٦ م
وكان ابن العبري رجل كد وعمل ولم تنقطع حياته كلها عن المطالعة والتأليف ،
فأنه ألف ما يزيد على الثلاثين كتاباً بالعربية والسريانية في الفلسفة وعلم الهيئة
والطب والتاريخ والنحو والشعر وغيرها . أما تأليفه لكتاب « تاريخ الدول »
فأنه نقله من السريانية إلى العربية في أواخر حياته وضمنه أمورا كثيرة لا توجد
في المطول السرياني ، ولا سيما فيما يتعلق بدولة الاسلام والمغول وتراجم العلماء
والأطباء . اهـ بإيجاز عن كتاب مختصر الدول ص : ح . د . هـ . و . (موجود
بالمكتبة السلطانية نمرة ١٢٢٤ قسم التاريخ)

كان في وقت الفتح رجل اكتسب شهرة عظيمة عند المسلمين يسمى «يوحنا النحوى» كان قسيساً قبطياً من أهل الاسكندرية ، وفي هذا الزمان اشتهر بين الاسلاميين يبجي المعروف عندنا (بنجرماطيقوس) أي النحوى . وكان اسكندرياً يعتقد اعتقاد النصارى اليعقوبية ويشيد عقيدة (ساورى) . ثم رجع عما يعتقد النصارى في التثليث .

فاجتمع إليه الأساقفة بمصر وسألوه الرجوع عما هو عليه فلم يرجع فأسقطوه من منزلته ، وعاش إلى أن فتح عمرو بن العاص مدينة الأسكندرية . ودخل على عمرو وقد عرف موضعه من العلوم فأكرمه عمرو وسمع من ألفاظه الفاسفية الى لم تكن للعرب بها أنسة ماها له ففتن به . وكان عمرو عاقلاً حسن الاستماع صحيح الفكر فلازمه ، وكان لا يفارقه ثم قال له يبجي يوماً : إنك قد أحطت بمجاول الأسكندرية وختمت على كل الأشياء الموجودة بها . فمالك به انتفاع فلا أعارضك فيه ، وما لا انتفاع لك به فنحن أولى به . فقال له عمرو وما الذى تحتاج إليه ؟ قال : كتب الحكمة التى فى خزائن الملوكية فقال له عمرو : لا يمكننى أن أمر فيها إلا بعد استئذان أمير المؤمنين عمر بن الخطاب . وكتب إلى عمر وعرفه قول يبجي ، فورد عليه كتاب عمر يقول فيه : وأما الكتب التى ذكرتها فأن كان فيها ما يوافق كتاب الله ، ففى كتاب الله عنه غنى ، وإن كان فيها ما يخالف كتاب الله ، فلا حاجة إليه فتقدم بأعدامها . فشرع عمرو بن العاص فى تفريقها على حمات الأسكندرية وإحراقها فى مواقدها . فاستنفدت فى ستة أشهر ، فاسمع ماجرى واعجب . اهـ

وإذا حللنا حكاية أبي الفرج تحليلاً دقيقاً وجدناها عبارة عن محض اختلاف واقتراء لا أساس لهما .

وقد فنّدها كل من « جيون » و « بطر » و « سديو » وكذلك شبلى افندى النعمانى و « چوستاف ليبون » وغيرهم فقال « جيون » فى تاريخه :

بعد ما نُقل كتاب أبى الفرج إلى اللاتينية وتناقل خبر تلك المكتبة الكتابُ تأسفوا كلهم اضياع كثير من العلم والأدب . وأما أنا (يعنى نفسه) فأنى شديد الميل إلى إنكار الحقيقة وما ترتب عليها من النتائج . والغريب أن هذه الرواية يذكرها رجل من أطراف بلاد ماضى (الفرس) بعد فتح الأسكندرية بستائة سنة ، ولا يكتبها مؤرخان مسيحيان من مصر وأقدمهما البطريق «أوتيوخوس» الذى أسهب فى فتح الأسكندرية ، على أن تعاليم الإسلام تخالف هذه الرواية ، إذ ترمى إلى عدم التعرض للكتب الدينية اليهودية والنصرانية المأخوذة فى الحرب فلا يجوز إحراقها . وأما كتب الفلاسفة والطب والتاريخ والشعر وسواها من العلوم غير الدينية فإنه يجوز أن ينتفع المسلمون بها . ولا أرى داعياً لتكرار ما حلّ بمكتبة الأسكندرية وما أصابها من الحريق عند ما كان « يوليوس قيصر » محاصراً بالأسكندرية (سنة ٤٧ ق . م) وما أضمره النصارى من الكراهية للوثنيين فلم تأل (النصارى) جهداً فى استئصال الوثنية من ديار مصر . ولكن إذا تدرجنا من زمن أنطونين إلى عهد طيودوس علمنا من سلسلة الشواهد العديدة أن القصر الملكى وهىكل (سيرايس) لم يكونا حيوان

بعد ذلك الأربعمائة ألف مجلد أو السبعمائة ألف التي عُنِيَ بجمعها اللاجوسيون، وإذا كان ما أحرق من هذه الكتب في الحمايات من كتب المجادلات الدينية بين الأريوسيين وأصحاب الطبيعة الواحدة (أي اتباع مذهب خلقدونية)، فكل عاقل حكيم يضحك سروراً بأن ذلك حصل لخدمة البشر. اهـ (جبون ج ٩ ص ٢٧٤ - ٢٧٦)

ولا داعي لاستغراب جبون ذكر أبي الفرج لهذه الرواية لبعده عن مصر، وقد ذكرها قبله عبد اللطيف البغدادي الذي توفي سنة ١٢٣١ م. ولا يبعد أن يكون هذا قد رواها أيضاً عن غيره: أعني أن هذه الحادثة كان لها ذكر من قبله وغاية ما يقال في رواية أبي الفرج أنه يظهر فيها شيء من المبالغة والتهويل. أما احتمال إحراق كتب المجادلات الدينية وأنه حصل لخدمة البشر فانه يناقض ما يريد جبون إثباته وهو انكار الحقيقة وما ترتب عليها من النتائج.

قال حضرة أستاذنا الشيخ عبد الوهاب النجار: ولكن متى علمنا أن عبد اللطيف البغدادي الذي كان قبل أبي الفرج الماطي بزمان قليل قد ذكر أن عمرو بن العاص أحرق مكتبة الاسكندرية كانت التبعة عليه دون أبي الفرج، لاحتمال أن يكون أبو الفرج أخذ هذه المقالة عن عبد اللطيف البغدادي الذي رمى بهذه الجملة بغير سلطان أتاه، ولم يقل لنا من أي تاريخ أخذ ولا من أي مصدر استقى. والظاهر أنه حين علم بأنه كان في هذا المكان مكتبة عفي الزمان على أثرها، افترض أن الذي دمرها إنما هو عمرو بن العاص قائد المسلمين، وربما شجعه على ذلك أقوال العامة أو

نحو ذلك فظن الأمر حقيقة واقعة - وعلى الجملة فالخط الأكبر في نسبة
الأحراق إلى عمرو بأمر عمر واقع على عبد اللطيف لا على أبي الفرج . اه
وقال العلامة « سديو » : ذكر أبو الفرج (١٢١٦ - ١٢٨٦ ب . م)
وأبو الفداء (١٢٧٣ - ١٣٣١ ب . م) أن مكتبة السيرايوم الشهيرة
إحترقت عقب استيلاء العرب على الاسكندرية . وقد ناقش هذه الرواية
كثير من الكتاب ، ويظهر بادي ذى بدء أن هذه الرواية أخذت فراغاً
كبيراً من التاريخ . والمعلوم أن عمرأ هو الذى استشار الخليفة في موضوع
تلك المكتبة فأمره بأحراقها . ولم يذكر ذلك أحد من المؤرخين المعاصرين
للفتح الإسلامي . وإن صح هذا الأمر لاقتصر أثره على عدد قليل من
الكتب ، لأن المكتبة كان قد احترق بعضها في عهد القيصر « طيودوس »
سنة ٣٩١ م ، ولم يكن في الاسكندرية من هذه الدار الا حوائط لم يأمر
عمرو بهدمها إلا على أثر هياج السكان (ج ١ ص ١٥٥ - ١٥٦)

وقد طرحت هذه المسألة على بساط البحث في المجلة العالمية الفرنسية
فقال مسيو « لكلك » : نأسف اذا خالفنا مسيو سديو اذ من المحقق
ان هذه المكتبة لم تكن موجودة في ذلك الوقت (أى وقت الفتح
الإسلامي)

وقال الدكتور « چوستاف ايبون » نقلاً عن « لودفيك لالان » الذى
ناقش مسألة إحراق مكتبة الاسكندرية مناقشة علمية مختصرة : إن أول
مؤلف ذكر حريق العرب لهذه المكتبة هو عبد اللطيف الطيب العربى
البغدادى الذى توفي سنة ١٢٣١ م . أي بعد ٥٩١ سنة من وقوع تلك الحادثة .

اما من خصوص حريق مكتبة الأسكندرية المزعوم فانه همجية وعداوة للمدنية منافية لأخلاق العرب على خط مستقيم ، حتى إنه يمكن أن يسأل الإنسان نفسه كيف أن قصة كهذه قبلها منذ زمن طويل كثيرون من الذين يعتقد بعلمهم ؟ وقد كذب العلماء هذه القصة في زمننا مرات كثيرة فلا نرى حاجة في العودة إليها للتكذيبها . ولا أسهل من الاستشهاد على ذلك بإيراد أقوال كثيرة جلية تثبت أن المسيحيين كانوا أعدموا الكتب الوثنية التي بالأسكندرية قبل العرب بزمن طويل وكسروا كل التماثيل أيضاً ، ويفهم من ذلك أنه لم يكن بعد بالأسكندرية ما يُحرق . (ص ٢٠٨)

وروى المقرئ في خطه (ج ١ ص ١٥٩) : ويذكر أن هذا العمود (عمود السوارى) من جملة أعمدة كانت تحمل رواق (أرسطوطاليس) الذى كان يدرس به الحكمة وأنه كان دار علم وفيه خزانة كتب أحرقتها عمرو ابن العاص بأشارة عمر بن الخطاب رضى الله عنه . اهـ

أما عبد اللطيف البغدادى الذى كان فى الحقيقة أول من ذكر حريق العرب لمكتبة الأسكندرية فقد قال فى كتاب «الأفادة والاعتبار» : ورأيت أيضاً حول عمود السوارى من هذه الأعمدة بقايا صالحة بعضها صحيح وبعضها مكسور ، ويظهر من حالها أنها كانت مسقوفة ، والأعمدة تحمل السقف وعمود السوارى عليه قبة هو حاملها ، وأرى أنه كان الرواق الذى يدرس فيه أرسطوطاليس وشيعته من بعده وأنه دار العلم التى بناها الأسكندر حين بنى مدينته وفيها كانت خزانة الكتب التى أحرقتها

عمرو بن العاص بأذن عمر رضى الله عنه. (١)

وقال «أرفانيتاكي» : وهذه الحقيقة (أى حقيقة إحراق مكتبة الأسكندرية) مختلف فيها الآن . فقد قرر الكثيرون أن المكتبة الملكية وكذلك مكتبة السيرايوم كلاهما ما كانتا تنتظر غزو العرب لقصد إفنائها . وفرض هؤلاء أن عدداً كبيراً من الكتب المنسوخة بخط اليد كان قد نقل إلى بوزنطية حين حاصر عمرو الاسكندرية .

وذكرت دائرة المعارف الفرنسية (ج ٣ ص ٦٤٨) أن مجموعة المؤلفات التي كانت بالسيرايوم قد أحرقتها النصارى في القرن الرابع الميلادى ، أما الكتب التي كانت بالمتحف فقد أهملت وعبث بها أيدى الترك حين جاءوا الاسكندرية سنة ٨٣٨ م فخرّبوا كل الآثار وتطاوت أيديهم إلى ما كان بالمتحف من الكتب المهجورة المهمة . اهـ
وهو كلام لم يقم عليه دليل ولا يؤيده نقل ، ولعله يقصد القائلين بأمر الدولة الطولونية .

ومما ذكرنا يعلم أن عمراً وعمراً بريثان مما نسب إليهما وأن رواية أبي الفرج (وأذا عبد اللطيف البغدادي الذي مات ولابى الفرج خمس سنين ، ولكننا إذا ألقينا التبعة على أبي الفرج فن قبيل التساهل لقصد تفنيد روايته التي تحتوي على شئ كثير من التهويل والمبالغة ، لأنها فى اعتقادنا

(١) كتاب الافادة والاعتبار فى الامور المشاهدة والحوادث المعانية

بأرض مصر ص (٢٨)

عبارة عن أكاذيب وأضاليل) الذى عاش بعد فتح مصر بنحو ستة قرون ولم يسبقه إليها أحد من المؤرخين المعاصرين لهذا الفتح ولا من أتى بعده إن هي إلا محض افتراء ليس لها أساس من الصحة على الإطلاق .

يدلك على ذلك ما نقلناه عن المؤرخين المتقدمين وما نقله أيضاً عما ذكره شبلى افندى النعماني في رسالته في الرد على من قال بأحراق عمرو لمكتبة الإسكندرية ، وهى تلك الرسالة التى الفت باللغة الأوردية وترجمت إلى الانجليزية ، وكان بودنا لو ظفرنا بالترجمة الانجليزية إلا أننا عثرنا على ما خلصته عنه مجلة الهلال في سنها الثانية : قالت الهلال :

وخلاصة ما أراد إثباته (يعنى المؤلف) أن أول من نسب حريق مكتبة الاسكندرية إلى عمرو بن العاص مؤرخ اسمه أبو الفرج بن طيب يهودى اسمه قارون (أهرون) ولد سنة ١٢٢٦ م في ملاطية . . . وهو أول كتاب ذكرت فيه مسألة حريق مكتبة الاسكندرية وتناقلا عنه كتاب الافرنج حتى قام المؤرخ (جبون) الانجليزي فانتقد هذا الرأي (وهو الانتقاد الذى تقدم) وأظهر ارتيابه في صحته لعدم وجود الادلة عليه لانه كتب بعد فتح الاسكندرية بستائة سنة ولم يذكره أحد من قبل (وهو يناقض ما قدمناه) فانتبه مؤرخو الافرنج من غفلتهم وأخذوا يبحثون عن حقيقة هذا القول .

غير أن المجتهدين منهم فى خلع هذه التهم عن الأفرنج والباسها للعرب عادوا فقالوا : إن هذه الحادثة لم يذكرها أبو الفرج فقط وإنما ذكرها

المقریزی. (وقد قدمنا تأييداً لرأينا أن المقریزی مات بعد أبي الفرج بعدة طويلة) وعبد اللطيف البغدادی وحاجی خليفة من مؤرخی الأسلام حتى قال بعضهم إن ابن خلدون ذكرها أيضاً.

قالت الهلال : ثم أخذ صديقنا (أي المؤلف) في تفنيد هذه الأسانيد فقال : أما ابن خلدون فتاريخه متداول بيننا وكل من اطلع عليه يعلم أن لا ذكر لهذه الحادثة على الإطلاق .

أما المصادر الثلاثة الباقية فأثبت أولاً أنها لا تعتبر ثلاثة مصادر مستقلة ، لأن المقریزی ذكر المكتبة عن عبد اللطيف حرفاً حرفاً ، فيبقى عبد اللطيف وحاجی خليفة .

أما عبارة حاجی خليفة فلا ذكر فيها لمدينة الإسكندرية وإنما أشار إلى أن العرب في صدر الأسلام لتعلقهم بالوحى وخوفهم من تسلط العلوم الأجنبية على عقولهم كانوا (كما قيل) يحرقون الكتب التي يعثرون عليها في البلاد التي يفتتحونها : فيظهر من ذلك أن عبارة حاجی خليفة لا تفيد ما أراده : لأنه إنما يريد الإشارة إلى عدم اعتناء العرب بالعلم . ولكي يؤيد قوله ألمع إلى مسأله حريق الكتب وهو لم يذكرها كأنها حقيقة .

أما عبد اللطيف البغدادی فقد ذكر حرق المكتبة أثناء كلامه عن عمود السوارى ، وهذا نص عبارته (وقد سبق ان قدمناها) فيظهر من نص العبارة أنه ذكر مسألة المكتبة بطريق العرض وكانت أشبه بخرافة تتداولها الألسنة فذكرها على علاقتها . على أن عبارته هذه بجملة غير صحيحة كما ثبت بالبحث .

ثم أعقب المؤلف هذا التفنيذ بالأدلة على عدم إمكان احتراق مكتبة الاسكندرية بأمر عمر بن الخطاب أو غيره من الخلفاء أو الأمراء المسلمين وأثبت أنها إنما احترقت قبل الاسلام ، أحرق نصفها (يوليوس) قيصر الرومان ، وأتم على باقيها بطارقه الاسكندرية قبل الاسلام . اهـ

ومما يدل على اختلاق رواية أبي الفرج (ومن تقدمه) ما ذكره (بطر) إذ حل هذه الرواية تحليلًا لا يسع القارئ إلا أن يحكم ببراءة عمرو العاص مما نسب إليه والاعتراف بأن مكتبة الاسكندرية لا بد أن تكون قد فنيت قبل الفتح الاسلامي بمدة طويلة ؛ فذكر نقلاً عن « أميانوس مارسليينوس » أن السبع مائة ألف مجلد التي كانت تحتوى عليها مكتبة الاسكندرية قد أتلقت إتلافًا تامًا حين حوصر « يوليوس » قيصر الروم بالاسكندرية كما تقدم ، وممن أيد هذا الرأي أودازيوس (١) حيث اعتقد أيضاً أن هذه المكتبة قد دمرت في حريق يوليوس المذكور ، والأستاذ إسماعيل رأفت بك حيث قال : « قلنا أيضاً أنه في هذا الوقت (أي وقت فتح الاسكندرية) لم تكن دار كتب الاسكندرية موجودة وان قسماً كبيراً من قسمها أحرقت جنود « يوليوس قيصر » من غير قصد سنة ٤٧ ق . م (كما تقدم أيضاً) وان قسمها الثاني تلاشى كذلك بعد الزمن المذكور بنحو أربعة قرون أي في سنة ٣٩١ ب . م بأمر

(١) هو الذي زار الاسكندرية في القرن الرابع الميلادي ووجد جميع رفوف المكتبة خالية من الكتب كما قدمنا .

الأسقف « تيوفيل » ولا ندعش لهذا الأمر لأسباب أخصها أن الآداب والفلسفة الوثنية كلها كانت منعت وقضى عليها قضاء تاماً طول تلك المدة في كل مكان حتى أن « چوتنيانوس » أمر بأغلاق مدارس أثينا . اهـ

وأضاف « بطر » ومن سوء الحظ أن مثل جواب عمر قد ورد أيضاً بخصوص إحراق الكتب في فارس . وقد علق الاستاذ « برى » بقوله : إن شعور المسلمين نحو كتب الوثنيين الفرس قد يختلف اختلافاً تاماً عن شعورهم نحو كتب النصراني إذ كانوا يكرهون أن يعمروا لما فيه اسم الله اهـ وإذا سلمنا جدلاً بأن إحراق مكتبة الأسكندرية قد حصل فعلاً كما رواه أبو الفرج الذي ذكر أن الكتب قد وضعت في سلات وزعت على الأربعة آلاف حمام ، وأنها ظلت تسخن مياهها ستة شهور فإن هذا الخبر على ما يظهر لنا عبارة عن أكاذيب وأضاليل لا حقيقة لها أصلاً . إذ لو قصد تدمير هذه الكتب حقيقة لأمر بأحراقها في الحال ، ولم يكن عمرو بالرجل الساذج الذي يضع هذه الكتب تحت رحمة أصحاب الحمامات ، فلا يصعب بذلك على « يوحنا » أو أى انسان سواه أن يستولى على قدر عظيم من هذه الكتب بثمن بخس ، ولدى يوحنا وغيره من عشاق الكتب ما يكفي لتحقيق هذه الأمنية وهى انتشار عدد كبير منها من مخالب النيران . على أن ما جاء برواية أبي الفرج من أن هذه الكتب كفت الحمامات سبعة شهور ، مما يثير الدهشة والاستغراب فى نفوسنا ، لأنه لو قدر لكل حمام مائة مجلد فى اليوم (وهو قليل بصرف النظر عن أن حجم هذه المؤلفات كان صغيراً جداً) لبلغ هذا العدد الذى أحرق فى ذلك الوقت ٧٢٦.٠٠٠.٠٠٠

مجلد وهو ضعف عدد مجلدات المكتبة بنحو ١٠٣ مرة تقريباً . ويستدل بما ذكرنا أن السبعائة ألف مجلد لم تكن لتكفي الأربعة آلاف حمام ساعة واحدة لاستهـور .

وزاد على ذلك حضرة أستاذنا اسماعيل رأفت بك مؤيداً استبعاد وقوع هذا الأمر بقوله : مع أن الكاغد يقطع النظر عن الرق وإن كان يصلح لأيقاد النار ، إلا أنه لا يصلح لبقائها متقدة أصلاً (١) !!

وقد برهن (بطر) على أن يوحنا النحوى الذى ذكره أبو الفرج فى روايته لم يكن حياً يرزق وقت فتح الاسكندرية سنة ٦٤٢ م ، لأن يوحنا هذا كان قد اشترك مع « ديوسقوروس » و « جايوس » و « ساويرس . أسقف انطاكية » فى الكتابة ضد مجمع خلقدونية وظلوا حتى تولى چوستينيان (٥٢١ ب . م) ، ويكون قد عاش بضع سنين فى أوائل القرن السابع الميلادى : أى قبل سنة ٦٤٢ م . ولا بد أن يكون قد مات قبل دخول عمرو الاسكندرية بثلاثين أو أربعين سنة . وذكر أيضاً أن السيراييوم كانت دمرت سنة ٣٩١ م . (كما قدمنا) وبُنِى على أنقاضها كنيسة

(١) وافق بطر حضرة الاستاذ فقال : ان معظم الكتب التى كانت بالسيراييوم كانت من الكاغد الذى كان يفضل القبط كثيراً ، وختم كلامه بقوله : إذا كانت أوامر الخليفة قد حالت دون احراق هذه الكتب ، فإذا حدث إداً لكل الكتب المنسوخة بخط اليد ؟ واستدل من ذلك على أن هذا الخبر خرافة مضحكة ولا يسمع الانسان إلا أن يصنى ويمجب .

أو جملة كنائس مسيحية ولم يبق منها الا حوائط كما ذكر « سديو » .
فلا يبعد أن تكون أيدي النصارى قد تطاولت الى الكتب الوثنية
فأتلفوها كلها ، وحملوا الكتب العلمية الى القسطنطينية . ولا نستبعد
هذا الأمر إذا علمنا أن النصارى قد هشموا هيكل « سرايس » وأحرقوه
في الحال ولم يتركوا أي حجر من أحجار أشهر وأنعم معبود في العالم قائماً
ومن هذا نرجح أن الكتب قد ألتهمتها النيران التي أضرمت لأحراق
هذا الهيكل لا أن تكون قد حملت الى القسطنطينية . يؤيد ذلك ما ذكره
« اورازيوس » من أنه وجد رفوف المكتبة خالية من الكتب ، وذلك
قبل سنة ٤١٤ م ، وهي السنة التي كتب فيها عن زيارته لهذا المكان لاعت
إحراق مكتبة الاسكندرية .

وختم (بطر) كلامه عن حريق مكتبة الاسكندرية فقال : لا أزال
أقول إن إحراق العرب لتلك المكتبة غير محتمل جداً لهذا السبب ، لأن
العرب لم تدخل الاسكندرية إلا بعد استيلائهم عليها بأحد عشر شهراً ،
وقد ذكر في عهد الصالح أنه يجوز للروم أن يحملوا الى بلادهم كل أمتعتهم ،
وفي غضون هذه المدة كان البحر مفتوحاً ولم تكن أمامهم أية صعوبة
لحملها إلى بلادهم . وما كان يصعب على يوحنا (بفرض وجوده) وأمثاله
أن يقتنوا هذه الكتب قبل أن ترفع الاسكندرية نهائياً في أيدي العرب .
لقد أوردنا كثيراً من أقوال المؤرخين بشأن إحراق مكتبة
الاسكندرية لكي نثبت بعد فحص هذه الأقوال والآراء ، إن كان عمرو
ابن العاص هو الذي أحرقها بأمر الخليفة عمر أو أن هذه المكتبة لم تكن

موجودة حين الفتح الأسلامى ، فنرى بعد هذه الأقوال الجلية الكثيرة أنه لم يكن بالأسكندرية ما يحرق وقت الفتح . وعلى هذا لا يسعنا إلا تكذيب رواية أبى الفرج الذى نسب هذه التهمة إلى كل من عمرو وعمر وهما منها بريئان . يشهد بذلك ما ذكره من الأدلة القاطعة على دحض رواية أبى الفرج . وإليك هذه الأدلة التى نستنتجها مما مر من الأقوال لنعزز بذلك رأينا بإيجاز فنقول :

١ عند تحليل رواية أبى الفرج ظهر لنا لأول وهلة أنها عبارة عن أكاذيب وأضاليل وأنها أشبه شئ بخرافة طالما نعثر على أمثالها فى أسفار المتقدمين . من ذلك ان كتب هذه المكتبة قد كفت أربعة الآلاف حمام ستة شهور ، وقد أثبتنا أنها لم تكن تكفيها ساعة واحدة

٢ أما يوحنا الذى ذكره أبو الفرج فقد دل « بطر » بأجلى بيان على أنه لم يكن على قيد الحياة وقت فتح الاسكندرية ، وأنه توفي قبل استيلاء العرب عليها بثلاثين أو أربعين سنة على الأقل

٣ إن رواية أبى الفرج (وكذا عبد اللطيف) ظهرت بعد مرور نحو ستة قرون على هذه الحادثة المزعومة ، ولو سامنا جدلاً بصحة هذه الرواية لما مر عليها مؤرخان شهيران معاصران للفتح الأسلامى وهما « أوتيوخوس » الذى فصل خبر فتح الاسكندرية تفصيلاً مسهباً ، وكذلك « يوحنا أسقف ققيوس » وهو مؤرخ عاش أيضاً فى القرن السابع الميلادى وتاريخه عن فتح مصر من أهم المصادر التى يعتمد عليها ويركن إليها . ولم يذكر هذا الخبر البتة أحد من المؤرخين المتقدمين كالطبرى واليعقوبى والكندى

وابن عبد الحكم والبلاذرى ، حتى جاء أبو الفرج (وكذا عبد اللطيف) فذكرها في القرن الثالث عشر بعد الميلاد : أى بعد ستة قرون

٤ إن هذه المكتبة قد أصابها الحريق مرتين مرة في عهد يوليوس القيصر فأتلف كثيراً مما كان بها من الكتب ، ثم أحرقت أخيراً أبنامها في حكم ققيصر (طيودوس) بأمر الأسقف (تيوفيل) سنة ٣٩١ م بواسطة جماعة من المعتصبين للنصرانية ، ولم يبقوا على هيكل (سيرايس) وأحرقوا الكتب التى كانت بالسيرايوم أو نقلوها إلى القسطنطينية

٥ إن زيارة « أودازيوس » المتقدم الذكر للأسكندرية فى أوائل القرن الخامس الميلادى تثبت أنه لم يكن لهذه المكتبة وجود قبل دخول العرب فى الأسكندرية بنحو قرن ونصف قرن ، ولا أدل على هذا من قوله إنه وجد رفوف هذه المكتبة خالية من الكتب - وما ذلك إلا لأن المسيحيين كانوا أتلفوها فى نهاية القرن الرابع الميلادى

٦ إن التعالم الاسلامية تخالف رواية أبى الفرج (وعبد اللطيف) إذ ترمى إلى عدم التعرض للمكتب الدينية اليهودية والنصرانية وأنه لا يجوز إحراقها . أما غيرها من الكتب العلمية فيجوز أن ينتفع بها المسلمون . ومن هنا يتضح أن هذه الرواية منافية لأخلاق العرب الذين ما كانوا يتعرضون لما فيه ذكر الله .

٧ وإذا ثبت أن المسيحيين أحرقوا هيكل سيرايس ، فمن المعقول أن النيران تلتهم ما فيه من الكتب فلا تبقى عليها ولا تذر

٨ وفي غضون القرون الخامس والسادس والسابع : أى بعد حريق

هذه المكتبة لم يرد لها ذكر في الآداب إذ ذاك .

٩ ولو كانت مكتبة الأسكندرية لم تنزل باقية عند الفتح الإسلامي لما أحجم الروم عن نقلها إلى القسطنطينية ، وقد أجاز لهم عمرو حسب عقد الصلح والهدنة حمل ما يقدرون عليه من رخيص وغال ، ولديهم من الوقت ما يكفي لتحقيق هذا الغرض .

ففرى أن القول بأن إحراق مكتبة الأسكندرية كان بأمر عمرو بن العاص محض افتراء ، فإنه حصل إحراقها مراراً قبل دخول العرب مصر ، والمكتبة القديمة الموروثة عن الأعصر الخالية قد محتها أيدي النصارى . ومن المستحيل أن يبقى في هذه المكتبة مع توالى الحرق عليها والنقل منها ما اتصل إليه يد عمرو بالحرق .

(٤) (١) عمرو وتنة الفتح في مصر :

استولى عمرو بن العاص على العريش والفرما وبلبيس وأم دنين ، واستولى على هليوبوليس وقصر الشمع وما والاها ، وصالح المقوقس وفرض على المصريين الجزية ثم سار إلى الأسكندرية ، وأخضع في طريقه كلا من نقيوس وطرنوط وكوم شريك وسلطيس والكريون ، وأقام على حصار الاسكندرية حتى فتحها الله على يديه وفرض على أهلها الجزية كباقي مدن مصر ، وضرب عليهم الضرائب ، فانطفأ سراج الروم من هذه الديار .

ومما ذكرنا يعلم أنه لم تخضع لسلطان عمرو جميع البلاد قاصيها ودانيها ، وأن شروط الصلح قد شملت جميع المصريين وأصبحوا بحكم هذه المعاهدة

في حوزة العرب، إلا أنه كانت لا تزال أمامه مدن لا مندوحة له من الاستيلاء عليها ليتم له بذلك فتح مصر كلها .

أما كون هذه البلاد قد فتحت قبل استيلاء عمرو على بابليون أو بعده؛ أو بعد حصاره للاسكندرية، فأمر قد لفظ المؤرخون فيه . وكان بودنا أن نتمتع في البحث حتى نقف على جلية الأمر، وأى الرأيين أحق أن يتبع، إلا أننا لم نؤبه لذلك لأن هذه الوقائع ثانوية محضنة، أعنى أنه لم تتوقف عليها أهمية كبرى، أو أعقبتها نتائج خطيرة . ولندكر بعض هذه الوقائع بأيجاز حتى لا نركب الشطط، إذ لا تزال هناك أمور أحق بالاسهاب وأولى بالتفصيل وأجدر بالتعمق في البحث، نرجئها حتى يأتي حينها فنقول :

روى البلاذرى في فتوح البلدان (ص ٢٢٤) أن عمرو بن العاص لما فتح الفسطاط وجه عبد الله بن حذافة السهمي إلى عيز شمس فغلب على أرضها وصالح أهل قراها على مثل حكم الفسطاط، ووجه خارجه بن حذافة العدوى إلى الفيوم والاشمونين وأخميم والبشرودات (١) وقرى الصعيد ففعل مثل ذلك .

ووجه عمير بن وهب الجحى إلى تنيس ودمياط وتونة (٢) ودميرة (٣) وشطا ودقلة (٤) وبنا (٥) وبوصير (٦) ففعل مثل ذلك . ووجه عقبة

(١) لعلها البشرود (بالتحريك وضم الراء وسكون الواو والال مهملة) التي ذكرها ياقوت في معجمة فقال : كورة من كور بطن الريف بمصر من كور أسفل الأرض .

(٢) قال المرحوم على مبارك باشا في خطته : تونة : هي جزيرة من نواحي مصر

ابن عامر الجهني (ويقال وردان مولاه) إلى سائر قرى أسفل الأرض
ف فعل مثل ذلك . فاستجمع عمرو بن العاص فتح مصر فصارت أرضها
أرض خراج . اهـ

من فتوح عمير بن وهب . وبها جزيرة قرب دميرة .
(٣) قال ياقوت في معجمه : دميرة (بفتح اوله وكسر ثانيه وياء مثناة من
تحتها) قرية كبيرة بمصر قرب دمياط وهما دمرتان : احدهما تقابل الأخرى على
شاطئ النيل في طريق من يريد دمياط

(٣) ذكرها ياقوت في معجمه فقال : دقها : بلد بمصر على شعبة من النيل
بينها وبين دمياط أربع فراسخ وبينها وبين دميرة ست فراسخ ، ذات سوق
وعماراة ويضاف إليها كورة فيقال كورة الدقهلية . وذكرها المرحوم على مبارك
باشا في خططه فقال : هي قرية قديمة من مديرية الدقهلية بمركز فارسكور سميت
المديرية باسمها

(٥) ذكرها ياقوت في معجمه فقال : بلدة قديمة بمصر وتضاف إليها كورة
من فتوح عمير بن وهب ، قال أبو الحسن الممالي : من الفسطاط الي بنها ثمانية عشر
ميلا والي صنهاش ثمانية أميال والي مدينة بنها وهي مدينة جاهلية لها ارتفاع
جليل ومنها الي سمندود ميلان

(٦) قال المرحوم على مبارك باشا في خططه : بوصير (بكسر الصاد وياء
ساكنة وراء) اسم يشترك فيه أربعة بلاد بالديار المصرية فنها بليدة بكورة
السمنودية من الوجه البحري ومنها (بوصير) الميوم (بوصير) الجزيرة (بوصير)
الهنسا أما (بوصير) التي بالوجه البحري فتسمى بنا لقربها من قرية بنا الواقعة
على شاطئ النيل الغربي ، وبين بوصير هذه وبنا نحو فرسخين ، وهذه هي التي
توجه إليها عمير بن وهب وفتحها

الفيوم:

قال السيوطي (ج ١ ص ٦٢) : أقامت الفيوم سنة لم يعلم المسلمون بها ولا مكانها حتى أتاهم آت فذكرها لهم ، فأرسل عمرو معه ربيعة بن حبيش ابن عرفة الصدي فأتى أهل الفيوم بأيديهم من غير قتال .

دمياط :

ذكر المقرئ (ج ١ ص ٢١٣ - ٢١٤) أن الذي وجهه عمرو إلى دمياط هو المقداد بن الأسود ، وكان عليها رجل من أخوال المقوقس يقال له (الهاموك) فامتنع بدمياط واستعد للحرب وحارب المسلمين وقتل ابنه في الحرب فعاد إلى دمياط وجمع أصحابه فاستشارهم في أمره ، وكان عنده حكيم قد حضر الشوري فقال : أيها الملك إن جوهر العقل لا قيمة له ، وما استغنى به أحد إلا هده إلى سبيل الفوز والنجاة من الهلاك ، وهؤلاء العرب من بدء أمرهم لم ترد لهم راية وقد فتحوا البلاد وأذلوا العباد وما لأحد عليهم قدرة ، ولسنا بأشد من جيوش الشام ولا أعز وأمنع ، وأن القوم قد أيدوا بالنصر والظفر ، والرأي أن تعقد معهم صلحاً ننال به الأمن وحقن الدماء وصيانة الحرم فما أنت أكثر رجلاً من المقوقس ، فلم يعبأ الهاموك بقوله وغضب عليه فقتله . وكان له ابن عاقل وله دار ملاصقة للسور ، فخرج إلى المسلمين في الليل ودأبهم على عورات البلد فاستولى المسلمون عليها ، وبرز الهاموك للحرب فلم يشعر بالمسلمين إلا وهم يكبرون على سور المدينة وقد ملكوها .

فلما رأي « شطا » بن الهاموك المسلمين فوق السور لحق بهم ومعه

عدة من أصحابه ففتّ ذلك في عضد أبيه واستأمن للمقداد فتسلم المسلمون دمياط ، واستخلف المقداد عليها وسيّر بجبر الفتح إلى عمرو بن العاص اه
البرلس (١) والدميرة (٢) وأشعوم طناح (٣) وتنبس (٤) وشطا (٥)

(١) ذكرها المرحوم على مبارك باشا في خطه فقال : البرلس (يضم الموحدة والراء واللام المشددة وبعد سين مهملة) ثغر عظيم من ثغور مصر ، ويشتمل خط البرلس على جملة قرى متقاربة واقعة في الرمال التي بين البرلس وشاطئ البحر والبرلس مدينة كانت قاعدة هذا الخط ، وبلاذ البرلس الآن من مديرية الغربية (٢) دميرة واقعة على بحيرة المنزلة بالقرب من تنيس ، ذكرها ابن دقاق (ج ٥ ص ٧٩) عند كلامه على تنيس ودمياط فقال : قال الحافظ جمال الدين : وتنبس ودمياط يعمل القماش الرفيع وان كانت شطا وديق ودميرة وتونة وما قاربها من تلك الجزائر يعمل بها الرفيع من القماش ، ولا ند أن يكون العرب قد استولوا على هذه المدينة مع تنيس ودمياط .

(٣) ذكرها ابن دقاق فقال . اشعوم طناح وهي (يضم الالف وسكون الشين المبعجة وضم الميم وسكون الواو وفي آخرها ميم وقيل نون) تعرف بأشعوم طناح ، وأشعوم الرمان ، وهي قصبة كورة الدقهلية وهي مدينة ذات حمامات وأسواق وجوامع وفنادق ، وهي على خليج الميل الشرقى وهو البحر الذي حفره السلطان الملك الظاهر بيبرس البندقدارى الصالحى

(٤) وقد أطنب كل من المقرئى وابن دقاق بذكر تنيس فقال المقرئى : كانت تنيس مدينة كبيرة وكان أهلها مياسير أصحاب ثراء وأكثرهم حاكّة ، وكان يعمل بها الرفيع من القماش . وكان يصنع فيها للخليفة ثوب يقال له البدنة لا يدخل فيه من الغزل سداء ولحمه غير أوقيتين ، وينسج باقيه بالذهب بصناعة محكمة لا تتجوج الى تفصيل أو خياطة وقيمته الف دينار (٥) مدينة عند تنيس

ذكر المقرئ في خطه (ج ١ ص ٢١٤) : وخرج شطا وقد أسلم إلى البرلس والدميرة وأشموه طنح ، فحشد أهل تلك النواحي وقدم بهم مدداً للمسلمين وعوناً لهم على عدوهم ، وسار بهم لفتح تنيس ، فبرز لأهلها وقاتلهم قتالاً شديداً حتى قتل رحمه الله في المعركة شهيداً بعدما أنكى فيهم وقتل منهم ، فحمل من المعركة ودفن في مكانه المعروف به خارج دمياط . وكان قتله في ليلة الجمعة النصف من شعبان ، فلذلك صارت تلك الليلة من كل سنة موسماً يجتمع الناس فيها من النواحي عند شطا ويحيونها وهم على ذلك إلى اليوم

وكان على تنيس رجل يقال له « أبو ثور » من العرب المنتصرة ، فلما فتحت دمياط سار إليها المسلمون فبرز لهم نحو عشرين ألفاً من العرب المنتصرة والقبط والروم فكانت بينهم حروب آلت إلى وقوع أبي ثور في أيدي المسلمين ، وانهمزم أصحابه فدخل المسلمون البلد وبنوا كنيسة جامعاً وقسموا الغنائم . اهـ

أما أبو ثور الذي ذكره المقرئ وابن دقاق وغيرهما فيظهر لنا أنه اسم مختلف . والذي يؤيد ملاحظتنا إدعائهم أنه كان من العرب المنتصرة ، مع أننا لم نسمع بأن هؤلاء العرب قد اشتركوا مع الروم في مصر حين الفتح الاسلامي .

ودمياط واليهاتنسب الثياب الشطوية ويقال إنها عرفت بشطان بن الهاموك ، وكانت تعمل كسوة الكعبة بشطا

ومن الخطل أن نوافق هؤلاء المؤرخين فيما يختص بعدد الجند الذين جمعهم حاكم تنيس . ونرى أنهم ربما بلغوا ألفين لا عشرين ألفاً ، وذلك لسببين :

(١) : لأن تاريخ فتح مصر لم يدون إلا بعده (الفتح) بقرنين على الأقل .

(٢) : لا ننا لم نعثر في كتب مؤرخي القبط المعاصرين للفتح على ذكر « لابي ثور » ولا لعشرين ألفاً ، وممن أيد هذا الرأي أيضاً الدكتور « بطر » أما « شطا » الذي سميت المدينة باسمه فقد نقل « بطر » عن « يوحنا أسقف نقيوس » أن مدينة شطا كانت معروفة قبل الفتح الاسلامي بزمان طويل ، ومع ذلك فلا يبعد أن يكون من قواد القبط إعتنق الاسلام وحارب في صف العرب بحمية وبسالة .

هل فنحت مصر صلحاً أو عنوة :

يختلف المؤرخون في فتح مصر ففال قوم إنها فتحت صلحاً وقال آخرون إنما فتحت عنوة . ولم تؤد أذهالهم إلى نتيجة ما ، سوى سرد بعض الروايات وعدم تحييصها لكي يهتدوا بذلك إلى رأى قاطع في هذا الموضوع وقد قدمنا شروط الصالح التي كانت بين عمرو والمقوقس . ولندكر الآن بعض هذه الروايات المتباينة المتناقضة بأيجاز ليتسنى لنا بذلك ترجيح أحد القواين : أعنى كونها فتحت صلحاً أو عنوة .

والظاهر أن اضطراب المؤرخين راجع إلى أمور يعلم منها أن بعض مدن مصر فتح صلحاً والبعض الآخر فتح عنوة .

وإليك هذه الأمور :

١ - من الشروط التي كانت بين عمرو والمقوقس أثناء فيضان النيل (أى حين جنح المقوقس للصلح ودفع الجزية) يتضح أن عمراً عامل أهل مصر معاملة من فتحت بلادهم صلحاً . ولكن نظراً لرفض « هرقل » هذه الشروط واستمرار الروم في الدفاع عن الحصن حتى فتحه العرب عنوة ، يتضح أن هذا الفتح كان عنوة . ولكن إذا لاحظنا أن الحامية الرومية سامت بشروط الصلح السابقة الذكر ، وأن عمراً أجابهم إلى ذلك يتبين أن الحصن فتح صلحاً وأن هذا العهد شمل جميع المصريين ممن فرضت عليهم الجزية .

٢ - وأما ما يتعلق بمدينة الإسكندرية فيتضح أنها سامت قبل أن يتم لعمرو الاستيلاء على المدينة ، وأبى عمرو أن يقسم الغنائم أو يسبى أهلها فضرب عليهم الجزية . ولما نقض الروم الصلح عاد عمرو من بابلون واستردها ، وبذلك فتحها عنوة وأراد أن يجعل أموالهم فيئاً للمسلمين فأبى عليه عمر وأمره أن تكون كسائر بلاد مصر ، فأحصى من دخلوا في عهد الصلح من الأهالى فكانوا ثلثمائة ألف فضربت عليهم الجزية وأمروا بدفع الخراج .

٣ - على أن عمراً قد استولى بالفعل على قرى بلهيب (١) وسلطيس

(١) قال ياقوت في معجمه . بلهيب من قرى مصر كان عمرو بن العاص حين قدم مصر صالح أهل بلهيب على الخراج والجزية . إلا أن بلهيب وخيس وسلطيس وقرطيا وسخافانها أعانت الروم على المسلمين

وقرطيا وغيرها وسبى أهلها لأنهم ظاهروا الروم على العرب وفرقت سبباياهم حتى وصلت المدينة ، فردم عمر وصيرهم أهل ذمة .
وإذا أنعمنا النظر في هذه النتائج الغربية لفتح مصر ومبلغ الاختلاف في روايا - المؤرخين ، جاز لنا أن نؤكد أن هؤلاء المؤرخين كانوا معذورين في أعتقاداتهم وما وصلت إليه أفكارهم من الاضطراب والتشويش والتعقيد .

ولعل ذلك راجع لبقاء العربى مدة قرنين مكتفيا بسرد روايات الفتوح الإسلامية شفويا وعدم تدوين ما وقع من الحوادث كتابةً ليكون أدعى للبقاء ، وما كنا نقرأ أن زيدا الراوية روى عن خالد مثلاً أن مصر فتحت صلحاً أو عنوة .

فن هنا جاء التناقض وتولد الاختلاف ، وضاعت أكثر حقائق التاريخ وأصبح البحث عن هذه الحقائق شاقاً على النفس غير محتمل الوصول إليها إلا في القليل النادر . من ذلك أن بعض المؤرخين روى أن حصن بابليون فتح صلحاً ، وذكر بعضهم أنه فتح عنوة . وكذلك الحال فيما يتعلق بفتح الأسكندرية .

ومن المؤرخين الذين اتفقوا على أن مصر فتحت صلحاً : البلاذرى (ص ٢٢٢) عن عبد الله بن عمرو بن العاص . وابن عبد الحكم (ص ٧٦) عن الليث فقال ان مصر فتحت كلها صلحاً ما عدا الاسكندرية فأنها فتحت عنوة ، وعن هشام بن اسحق العامرى أن شروط الصلح بين عمرو بن العاص وأهل مصر ستة وهى :

(١) لا يخرجون من ديارهم

(٢) ولا تمتزج نساؤهم

(٣) ولا كنوزهم

(٤) ولا أراضيتهم

(٥) ولا يزداد عليهم

(٦) ويُدفع عنهم موضع الخوف من عدوهم (١)

فصارت الأرض بذلك أرض خراج، على أن يكون خراجهم وما صالح عليه القبط كله قوة للمسلمين، ولا يجعل المسلمون فيئاً ولا عبيداً ففعلوا. (ابن عبد الحكم ص ٧٦ - ٧٩ م والمقرئزي ج ١ ص ٢٩٤) ومن المؤرخين الذين ذكروا أن مصر فتحت عنوة، المقرئزي عن ابن لهيعة، وعن زيد بن أسلم أنه كان تابوت لعمر بن الخطاب فيه كل عهد كان بينه وبين من عاهدوه. فلم يوجد فيه لأهل مصر عهد؛ وابن عبد الحكم عن يحيى بن عبد الله بن بكير أنه خرج أبو مسلمة ابن عبد الرحمن يريد الأسكندرية في سفينة فاحتاج إلى رجل يجذف فتسخر رجلاً من القبط فكلم في ذلك فقال: انما هم بمنزلة العبيد إن احتجنا إليهم.

وقد ذكر المقرئزي أن عمرو بن العاص قال: لقد قعدت مقعدى هذا وما لأحد من قبط مصر على عهد ولا عقد. وعن يحيى بن بكير

(١) والشرط السادس لم يذكره ابن عبد الحكم ولكنه ورد في كتاب معاوية

لعقبة بن أبي سفيان حين سأله هذا أرضاً يسترفق فيها عند قرية عقبة

أن مصر كان فتح بعضها بعهد وذمة وبعضها عنوة فجعلها عمر بن الخطاب جميعاً ذمة .

ولكن إذا عرفنا أن مصر فتحت بالسيف واستولى عليها العرب بعد أن طردوا الروم منها وهم المسلطون عليها ، فلا نحجم عن القول بأنها فتحت عنوة ، وإن المؤرخين الذين ساروا على هذا الرأي قد نظروا إلى الفتح من الوجهة العسكرية وهو صحيح ، بدليل قول عمرو بن العاص « لقد قعدت متمدى هذا وما لأحد من قبض مصر على عهد ولا عقد » والظاهر أن الذين يميلون إلى القول بأن مصر فتحت عنوة يستدلون بما كن من الحرب بالفرماو بلييس وأم دينين والاسكندرية ، وكون هذه البلاد لم تفتح إلا بعد جهاد ونضال .

ولكن لا نغفل نص الصلاح الذي كان بين عمرو والمقوقس وهو متداول معروف رواه أكثر المؤرخين المعدودين كاطبرى وابن عبد الحكم والبلاذرى والمقرئى والمسعودى ، ومنه يعلم أن عمرأبى أن يقسم الغنائم قبل أن يكتب لعمر بن الخطاب ، فكتب إليه عمر يأمره بأجابه المصريين إلى دفع الجزية والخراج .

وهذا يدل على سياسة رشيدة من جانب كل من عمرو وعمر ، الذي لا بد أن يكون قد اقترح على أمير المؤمنين أن يعامل المصريون معاملة من فتحت بلادهم صلحاً لكي يتألف بذلك قلوبهم . وهذا يحدث كثيراً عقب فتوح البلاد فيتجاوز الفاتحون عن بعض أمور في مصلحة البلاد المحكومة لكي يستقر بذلك ملكهم على أهون سبيل .

يدالك على ذلك قول عمر لعمر « واعلم أن ما قبلك من أرض مصر ليس فيها خمس وإنما هي أرض صلح وما فيها للمسلمين في »
أما كون أبي مسامة بن عبد الرحمن قد تسخّر رجلاً من القبط يجذف له وأنه اعتبر القبط كالعبيد ، فإن هذه الحادثة الفردية لا تدل بأى حال على أن مصر فتحت عنوة .

ولا يمكننا أن نسلم بذلك من أجل حادثة كهذه ، إذ قد يكون هذا القبطي قد تطوع للقيام بما طالب منه عن طيبة خاطر ، وأن عمل هذا الرجل لا يصلح أن يكون حجة على أمة بأسرها ، ولا ناقضاً لأقوال الآخرين الذين ذكروا أن أهل مصر إنما هم أهل صلح .

أما قول يحيى بن خالد أن مصر فُتحت بعضها صلحاً وبعضها عنوة وأن عمر جعلها كلها ذمة ، فهو القول الذي نميل إليه ونرغب في ترجيحه ، وهذا ما يمكن أن نستنبطه بعد بحث وتمحيص أقوال المؤرخين المتباينة . ومادام عمر رضى الله عنه قد أمر أن تعامل البلاد جميعها معاملة الصلح فيدفع أهلها الجزية والخراج ، لا أن تكون ممالك الفاتحين يتصرفون فيها كيف شاءوا فيستولون على أراضيها وأموالها ويسبون نساءها ، فأنا نرجح أن مصر فتحت عنوة ، ولكن عمر عاملها معاملة البلاد التي فتحت صلحاً ليتألف بذلك قلوب المصريين .

(٥) عمرو وفتح بيت الفتح :

(١) عمرو وفتح برفز وطرابلس :

لم تقف همة عمرو العالية وعزيمته الماضية عند حد القناعة بفتح مملكة

الفراعنة وإخراج الروم منها وضياع سلطانهم على يديه ، بل طمع إلى ما هو أبعد غاية . وهى بلاد المغرب . ومما دعاه إلى القيام بهذا العمل شغفه بالفتح ورغبته فى نشر لواء الأسلام ، وميله إلى القضاء على سلطان الروم من البلاد الواقعة غربى الديار المصرية ، ليأمن على مصر من هجماتهم إذا حدثتهم أنفسهم باستردادها .

فلما فتح عمرو الاسكندرية سار فى جنده يخرق الصحراء حتى بلغ برقة (١) . وإقليمها هو حد مصر من الغرب ، وتسمى أنطابلس كما قال ابن دقاق والسيوطى . إفتحها عمرو وصالح أهلها على الجزية وقدرها ثلاثة عشر ألف (٠ و ١٣) دينار يؤدونها إليه . ومن هنا يستدل على أنها فتحت صاحباً لا عنوة .

وقد أيد رأينا السيوطى (ج ١ ص ٦٣) وابن دقاق (ج ١ ص ١٤) وغيرهما .

ووجه عمرو بن العاص عقبه بن نافع حتى بلغ زويلة وصار لما بين برقة وزويلة للمساميز ، ثم سار عمرو حتى نزل أطرابلس (٢) فى سنة ٢٢ للهجرة

(١) قال المرحوم على مبارك باشا فى خططه : إن برقة تسمى فى لغة الروم (بنطابوليس) يعنى الخمس مدن . لأن (بنطا) معناها خمسة و (پوليس) : معناها مدينة ، وبرقة واقعة فى صحراء حمراء هى دائمة الرخاء كثيرة الخير ، وأكثر ذبائح أهل مصر منها ، ويحمل الى مصر منها العسل والقطران .

(٢) ذكرها البلاذرى وابن دقاق (أطرابلس) وذكرها على مبارك باشا (طرابلس) فقال : ومعنى (طرابلس) ثلاث مدن ، فان (طرا) معناها ثلاث

(يونه سنة ٦٤٣ م) على ما ذكره البلاذري (ص ٢٣٣) والكندي (ص ١٠) وبطلر (ص ٤٣٨) ، وكانت حصونها أقوى من حصون برقة وحاميتها أكثر عدداً فامتنعت عن العرب شهراً كاملاً (١) .

ولما أنهك أهلها الجوع وشدة القتال تمكن العرب من الاستيلاء على المدينة من جهة البحر لأنه لم يكن لها سور من جهته ، فغزوا أهل المدينة وجندوها بحراً ودخلها عمرو بجنده ، ومن ثم عاد إلى برقة حيث أذعنت لطاغته قبيلة لواته التي كانت تسكن معظم هذه البلاد .

وكتب عمرو إلى أمير المؤمنين : إنا قد بلغنا أطرابلس وبينها وبين افريقية (تونس) تسعة أيام فإن رأى أمير المؤمنين أن يأذن لنا في غزوها فعل ... فكتب إليه عمرينها عنها وأمره بالوقوف عند هذا الحد ، فعاد مكرهاً بعد أن استخلف على البلاد عقبة بن نافع الفهري الذي صار إليه بعد ذلك فتح المغرب (٢) اهـ

وحسناً فعل أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه ، لأنه كان أحرص ما يكون على جند المسلمين ، وأمره عمر بالوقوف عند هذا الحد يدل على حسن سياسته وبعد نظره ، لأن تغلغل عمرو في جوف تلك الأراضي الواسعة

(و) (بلس) مئناها مدينة . وقال البكري : وطرابلس مدينة على البحر لها سور من الحجر وبها جامع وأسواق وحمامات وهي كثيرة الفاكهة .

(١) ذكر ياقوت أن الحصار دام ثلاثة أشهر وذكر ابن خلدون أنه دام شهراً واحداً ، وقال ابن عبد الحكم أنها افتتحت سنة ٢٣ هـ ، وهذا يدل على أنها افتتحت بعد برقة بمدة طويلة اللهم إلا إذا كان فتح الأخيرة في نهاية سنة ٢٢ هـ (٢) فتوح البلدان للبلاذري (ص ٢٣٣) وتاريخ يعقوبى (ج ١ ص ٢٣٣)

والأقطار الشاسعة بجيشه القليل وعدته الضعيفة قد يستنفد قوته من غير أن يفوز بطائل ، سيما والروم لم يزالوا من القوة بحيث يتمكنون من استرداد مصر والقضاء على حاميتها القليلة في حين انشغال عمرو بغزو هذه البلاد .

فكان من رأى عمر أن يحتفظ بما في يديه وأن لا يطوح بجنده في مهاوى التهلكة وفي معامع حروب لا يعلم نتيجتها إلا الله .
عمرو وفتح النوبة :

لم يكثف عمرو بتأمين مصر من جهة الغرب بل حاول أن يؤمنها من الجهة الوحيدة التي كانت لا تزال مصدر الخوف : وهى جهة الجنوب ، فبعث نافع بن عبد القيس الفهرى (وكان نافع أخا العاص بن وائل لأمه) فدخلت خيلهم أرض النوبة فقاتلهم أهلها قتالا شديدا فانصرفوا . ولم يزل الأمر على ذلك حتى عزل عمرو بن العاص عن مصر ووليها عبد الله بن سعد وصالحهم ، وذلك في سنة ٣١ هـ على ان يؤدوا للمسلمين ثلثمائة وستين رأسا ولوالى البلد أربعين رأسا . (١)

(ج) عمرو وانفاضى الروم فى الاسكندرية .

على أن الفتح برغم هذا كله لم يستقر لعمرو ، فما زال الروم يتطلمعون

(١) تاريخ اليعقوبى (ج ١ ص ١٨٠)

أما شروط الصلح التي عقدها المسلمون مع أهل النوبة فهي كثيرة وقد ترجمها « ستافلى لين بول » فى كتابه « تاريخ مصر فى العصور الوسطى » (ص ٢١ -

إلى مصر ، وما زال في مصر ناس يتطلعون إلى الروم . وكان انتفاض الروم في خلافة عثمان بن عفان (١) في السنة الخامسة والعشرين . (٢)
وقد قيل في سببه أن « طَلَمَا » صاحب إخنأ قدم على عمرو فمال : أخبرنا ما على أحدنا من الجزية ، فأبى عمرو فغضب صاحب إخنأ وخرج إلى الروم فقدم بهم فhez مهم عمرو وأسر القبطى وأتى به إلى عمرو فأطلقه رغماً عن إلحاح الناس بقتله ، فرضى طالما باداء الجزية وعدّ إطلاقه مكربة عظيمة من عمرو حتى أنه صرّح بأنه لو أتى به إلى ملك الروم لقتله لوقته .

ونحن نرى أن هذا الخبر لا أساس له لأن عمراً لم ينقض عهده مع القبط أو زاد خراجهم ، حتى أدى تمسكه بذلك إلى إزدياد النفرة والجفاء بينه وبين عمر .

أما السبب الذى يمكن الجزم بصحته فقد رواه ابن الاثير ، وهو أن أهل الاسكندرية كتبوا إلى « قسطنطين » امبراطور الروم يهّونون

(١) بويج عثمان بن عفان رضى الله عنه فى ذى الحجة سنة ٢٣ هـ واستهل المحرم سنة ٢٤ هـ ، وفى خلافته نقض الروم صلحهم واعتزل عمرو بن العاص ولاية مصر وتولاها عبد الله بن سعد بن أبى سرح .

(٣) ممن اتفق على هذه السنة البلاذرى (ص ٢٢٨) (وفى قول آخر له سنة ٢٣ هـ) وابن الاثير (ص ٣٩) وأبو المحاسن (ص ١٨٨) الذى حذا حذو البلاذرى إلا أنه رجح سنة ٢٥ . والمقرئزى (ص ١٦٨) والسيوطى (ص ١٧٠) واليعقوبى (ص ١٨٩) وبطلر (ص ٤٩٦) وسنانلى لين بول (ص ٢١)

عليه فتح الاسكندرية لقلة ما بها من حامية المسلمين . فتدبر قسطنطين الأمر ، ولم يكن جرح الروم قد اندمل من ضياع مصر مصدر ثروة الامبراطورية ، فأمر بأن تعدّ على جناح السرعة وفي طيّ الكتمان عمارة بحرية لغزو الاسكندرية . وكان الروم في ذلك الحين لا يزالون سادة البحار ، فلم تجرأ أمة من الامم على مناوأتهم أو منافستهم في هذا المضمار .

انحصار عمرو على الرزم :

قدم « منويل » الخصى الى الاسكندرية على رأس جيش رومى كبير واستولى عليها ، فزحف عمرو في طريق الاسكندرية سالكا الطريق التي كان قد سلكها من قبل وضمّ تحت لوائه كثيرين من القبط .

وزحف « منويل » ومعه من نقض من أهل الاسكندرية وغيرها من قري الدلتا وأخذوا يعيشون في الارض فساداً ، ينزلون القرى فيشربون خمرها ويأكلون أطعمتها وينهبون كل ما مروا به من دواب ومتاع ونحو ذلك ، فلم يتعرض لهم أهالى تلك القرى لضعفهم حتى وصلوا الى (نقيوس) حيث اشتبكوا مع المسلمين . (١) في القتال في البر والبحر (٢) وكثر التراى بالنشاب حتى أصابت فرس عمرو ، فنزل عنه ثم شدد المسلمون على الروم وقاتلوه قنال المستميت وما زالوا بهم حتى غلبوه على أمرهم

- (١) كان جند المسلمين خمسة عشر ألفاً على ما رواه البلاذرى (ص ٢٢٩)
ولا شك أن جيش الروم كان اكبر من جيش المسلمين ،
(٢) يراد بكلمة « البحر » - القناة التي كانت تمر بمدينة نقيوس .

وانتصروا عليهم انتصاراً مبيناً بحسن قيادة عمرو بن العاص . ولم يقف عمرو عند هذا الحد ، بل تعقب الفالة الى الاسكندرية واستردها منهم ووضع في رقابهم السيف . ثم أوقف رعى الحرب وأمر بان يبنى في الموضع الذى رفع فيه السيف مسجد أطلق عليه فيما بعد مسجد الرحمة ، وقد قتل « منويل » في هذه الموقعة التى لم تقل هولاً عن سابقتها (١)

وقد هدم عمرو سور الاسكندرية وكان قد حلف انن أخافره الله عليهم لهدم سورها حتى تكون مثل بيت الزانية يؤتى من كل مكان

(١) زعم كثير من مؤرخى العرب كالمقرئى (١٠ ص ١٦٧) والسيوطى (١٠ ص ٧٠) وغيرهما أن عمراً قد ضم إلى المقوقس من أطاعه من القبط . مع أنه قد مات منذ مدة طويلة فخلطوا روايتهم فتكلموا على انتقاض الروم في ولاية عثمان . من حيث يريدون انتقاضهم الاول ، ولعلهم عتوا (بنيامين) الذى كان حقيقة كبير القبط يومئذ فخلطوا بينه وبين المقوقس الذى كان كبير القبط أيضاً في أثناء فتح مصر منذ بضع سنوات . وقد شك البلاذرى في بقاء المقوقس إلى هذا العهد فقال (ص ٢٢٩) : قيل إن المقوقس اعتزل أهل الاسكندرية حين نقضوا فأقرّد عمرو ومن معه على أمرهم الاول . وروى أيضاً أنه كان قد مات قبل هذه الغزاة ، فكانهم أرادوا (بنيامين) من حيث كانوا يريدون المقوقس .

ومن سار على هذا القول ايضاً ، بطر (ص ٤٧٨ - ٤٨١) وستانلى لين بول (ص ٢١)

الباب الثالث

ولاية عمرو والاولى على مصر وأعمال الادارية فيها

(١) عمرو و يوسف مصر لعمر بن الخطاب

لما تم لعمر بن العاص فتح مصر أرسل الى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه كتاباً يصفها له فيه ويشرح له السياسة التي سيتخذها فيها .

مصر تربة غبراء (١) وشجرة خضراء (٢) طولها شهر وعرضها عشر (٣) يكنفها جبل أغبر (٤) ورمال أعفر (٥) يحيط وسطها نهر ميمون الغدوات مبارك الروحات (٦) يجري بالزيادة والنقصان كجري الشمس والفمر له أوان (٧) تظهر به عيون الارض وينابيعها حتى إذا عجز عجاجه (٨) وتعظمت أمواجه (٩) لم يكن وصول بعض أهل القرى الي بعض إلا في خفاف الفوارب وصغار المراكب ، فاذا تكامل في زيادته نكص (١٠) على عقبه كأول ما بدأ في شدته وطما في حدته (١١) فعند ذلك يخرج القوم ليحرثوا بطون أوديته ورواياه (١٢) يبذرون الحب ويرجون الثمار من الرب ، حتي اذا

(١) سهلة الانبات (٢) بمعنى أنها كثيرة الشجر الاخضر (٣) لعله يريد أن الماشى يقطعها طولا في شهر وعرضاً في عشرة أيام (٤) يحيط بها جبل ضارب الى السواد (٥) أبيض مائل الى الحمرة أو الصفرة (٦) محمود الذهب والاياب (٧) يزيد وينقص في أزمنة معينة (٨) معظم مائه (٩) تقطعت وتمرتبت في الاراضي (١٠) رجع وذهب (١١) أى نقص بشدة كما زاد بقوة (١٢) أعلى الارض وأسافاً

أشرق وأشرف (١) سقاه من فوقه الندى وغذاه من تحته الثرى فمعد ذلك يدرّ حلاله ويغنى ذبابه (٢) فبينما هي يا أمير المؤمنين درة بيضاء إذا هي عنبرة سوداء، وإذا هي زبرجدة خضراء، فتعالى الله الفعّال لما يشاء، الذى يصلح هذه البلاد وينمّيها ويقر قاطناتها فيها، أن لا يقبل قول خسيسها في رئيسها، وأن لا يستأدى خراج ثمرة إلا في أوانها، وأن يصرف ثلث ارتفاعها في عمل جسورها وتراعها، فإذا تفرّج الحال مع العمال في هذه الأحوال تضاعف ارتفاع المال، والله تعالى يوفق في المبتدأ والمآل. (٣) اه
وحف عمرو مصر لعمر بهذا الكتاب الذى رواه كثير من المؤرخين المتأخرين، ولكننا نشك في أن أفاظه الحديث المنمقة صدرت عن عمرو في صدر الأسلام.

قال أبو المحاسن: فلما ورد هذا الكتاب على عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال: لله درك يا ابن العاص لقد وصفت لى خبراً كأنى أشاهده.
وقد ترجم كتاب عمرو بن العاص الذى أرسله إلى عمر لما استولى على مصر، ونشر هذه الترجمة الكاتب الفرنساوى الشهير «أوكتاف أوزان» في جريدة (الفيجارو) الفرنساوية، ونقله عنها برمته مع التعليقات التى علقها عليه الميسو «أوزان» والذى وصف فيها هذا الكتاب بأنه من أكبر آيات البلاغة فى كل لغات العالم، وقال عنه إنه من الفرائد فى إعجازه وإعجازه واقترح وجوب تدريسها فى جميع مدارس المعمورة، حتى يتعلموا

وأسافلها (١) يظهر وبان (٢) يعظم محصولة

(٣) النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة لابن المحاسن (ج ١ ص ٣٣ - ٣٤)

منه مع قوة الوصف ومتانة التعبير صحة الحكم على الاشياء وكيفية تنظيم
الممالك وسياسة الاستعمار .

وقد ترجم هذا الوصف من مؤرخى الأنجليز المؤرخ « جيون »
والدكتور « بطر »

(ب) نحول عمرو الى الفسطاط ونحمله الى القبط وورده بنينا بين الى كرسية
بعد استيلاء عمرو بن العاص على الاسكندرية تحول بأمر أمير
المؤمنين عمر بن الخطاب الى الفسطاط بعد أن أقره والياً عليها ، وسبب
تحوله أنه لما فتح الاسكندرية ورأى بيوتها وبناءها مفروغاً منها (قد شيدت
غير محتاجة إلى إصلاح) وقد جلا من كان يسكنها من الروم ، هم أن
يسكنها وقال : منازل قد كفيناها ، فكتب الى عمر بن الخطاب يستأذنه
في ذلك فسأل عمر الرسول : هل يحول بينى وبين المسلمين ماء ؟ قال : نعم
يا أمير المؤمنين إذا جرى النيل . فكتب إلى عمرو : إني لا أحب أن تنزل
بالمسلمين منزلاً يحول الماء بينى وبينهم في شتاء ولا صيف ، فلا تجعلوا بينى
وبينكم ماء متى أردت أن أركب إليكم راحلتى حتى أقدم عليكم قدمت . اهـ
كانت الصلة بين مصر وبين الدول المالكة لها منذ الاسكندر ،
تستلزم أن تكون العاصمة في الاسكندرية ، فلما انتقل مركز السيادة على
مصر إلى بلاد العرب ، كان يجب أن تكون العاصمة إما على البحر الأحمر
وإما على نقطة تسهل منها المواصلات البرية . ولكن العرب لم يكونوا أمة
بحرية ، فلم يكن بد من أن تكون عاصمة مصر في نقطة برية سهلة التواصل
مع بلاد العرب ، إلى هذا كله لا نفعل عن حكمة عمرو في اختيار موقع

الفسطاط لأنه كان يمكنه من ملاحظة قسمي البلاد المصرية شمالاً وجنوباً، مع أنه قريب من الطريق إلى بلاد العرب . يدلك على ذلك قول عمر « إني لأحب أن تنزل بالمسلمين منزلاً يحول الماء بيني وبينهم في شتاء ولا صيف »

تحوّل عمرو إلى الفسطاط فكان خير وال وأعظم قائد وأحبّ الولاة إلى الرعية ، وأشدّهم قياماً على العدل والنظر في عمران البلاد وراحة أهلها ، فتألف بدهائه وحسن سياسته قلوب القبط حتى جعلهم عوناً للمسلمين ، ورأى بما اشتهر عنه من بعد النظر وحسن السياسة أن يتجنب إلى القبط فيمتلك قلوبهم ، ليرجع الأمن إلى نصابه ويسود السلام والطمأنينة في ربوع البلاد ، فبأمن الفتن والقلاقل ، ثم يتفرغ بعد إلى إدارة البلاد وإنهاضها . ولا غرو إذا تفانى المصريون في محبته وبالغوا في تعظيمه ، فقد أزال ما حاق ببلادهم من نير الروم ، وما حل بهم من شدة البلاء ، ففكّهم من أسر الضيم الذي عانوه ، ولم يتعرض لهم في عاداتهم بشيء البتة ، وأمّهم على أموالهم وعيالهم وحمل بلادهم من هجمات المغيرين وعبث العاصيين ، وقد قاسوا الأمرين من جراء الانتصار لمعتقدم في عهد الروم كما ينالنا .

ومما يذكرون لعمر بالشكر أن أنه كتب أماناً للبطريرق بنيامين وردّه إلى كرسيه بعد أن تغيب عنه زهاء ثلاث عشرة سنة فسره هذا العمل البطريرق وشكر عمرأ عليه .

سار بنيامين إلى الاسكندرية حيث أمر عمرو باستقباله بكل حفاوة

وتعظيم ، ولما قدم البطريق ولقى عمرأ ألقى على مسامعه خطاباً بليغاً ضمنه كل ما عن له من الاقتراحات التي رآها لازمة لحفظ كيان الكنيسة ، فتقبلها عمرو ومنحه السلطة التامة على القبط والسلطان المطلق لأدارة شؤون الكنيسة .

وقد لاحظ « بطر » أن عودة بنيامين إلى عرش الكنيسة قد كفهاها شر الوقوع في أزمة خطيرة كانت لا محالة مؤديةً بها إلى الاضمحلال والدمار .

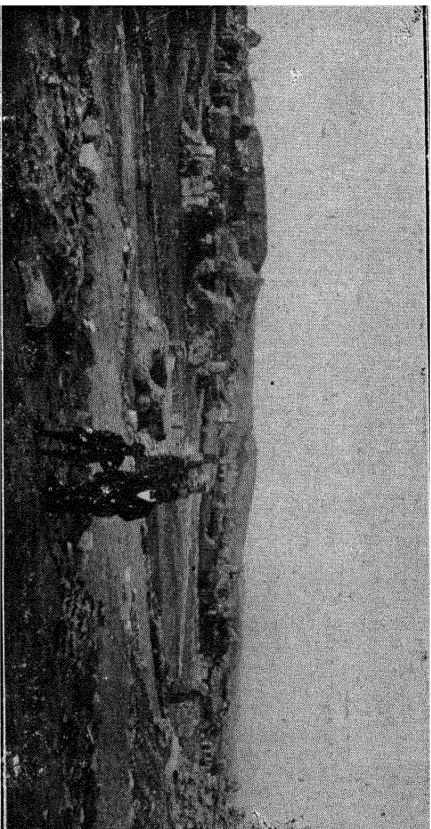
وإن الخطبة البليغة التي ألقاها باسيلي أسقف نقيوس بدير مقاريوس خير شاهد على أن القبط قد أصبحوا بعد الفتح الإسلامي في غبطة وسرور لتخلصهم من عسف الروم . يدل ذلك على صحة ما نقول رد بنيامين على باسيلي بقوله « لقد وجدت في مدينة الاسكندرية زمن النجاة والطمأنينة التي كنت أنشدهما بعد الاضطهادات والمظالم التي قام بتمثيلها الظلمة المارقون » فهذه هي الكلمات التي فاه بها البطريق ومنها يتجلى للقارئ مبلغ الراحة التي شعر بها المصريون في عهد عمرو . ومما يؤيد هذا القول وصف « ساويرس » القوم بأنهم كانوا في ذلك اليوم (أي اليوم الذي زار فيه بنيامين دير مقاريوس) كثيرة إذا أطلقت من قيودها

(ج) عمرو ونائبه من مدينة الفسطاط :

(١) ما قبل في تسمية الفسطاط :

شرع عمرو في غرس بذور الحضارة الإسلامية في مصر وبسط جناح الاسلام في أرجاء البلاد ، وكان أول ما قام به من أعماله الخالدة

آمام صفحه ۱۷۳



جزء من أطلال مدينة الفسطاط
رسم حضرة محمد افندي يوسف مهندس بتنظيم مصر

تأسيس مدينة الفسطاط ليجعلها حاضرة البلاد ودار الامارة .

وكان موضع الفسطاط فضاء ومزارع بين النيل والمقطم ، ولم يكن في هذا المكان من البناء سوى حصن بابليون حيث كان ينزل به شحنة الروم ، وكان إلى الشمال والشرق من هذا الحصن أشجار ونخيل وكروم ، وبين الحصن والجبل عدة كنائس وأديرة ، وقد عين موضعها الأستاذ يوسف افندى احمد فقال : إنها تقع في المنطقة التي حول جامع عمرو والتي تمتد شرقاً حتى قرب سفح جبل المقطم ، وشمالاً حتى جهة فم الخليج وقناطر السباع وجبل يشكر ، وغرباً حتى النيل ، وجنوباً حتى ساحل أثر النبي . اهـ وقد ذكر المقرئ أن عمرو بن العاص لما افتتح مدينة الاسكندرية الفتح الأول نزل بجوار هذا الحصن واختط الجامع المعروف بالجامع العتيق وبجامع عمرو بن العاص واختطت قبائل العرب من حوله ، فصارت مدينة عرفت بالفسطاط .

وقد قيل في تسمية الفسطاط بهذا الاسم أقوال كثيرة ، فقال بعضهم إن عمرو بن العاص لما أراد المسير إلى الاسكندرية أمر بفسطاطه أن يقوَّض فاذا بيمامة مدباضة في أعلاه فقال : لقد تحرَّمت بجوارنا ، أقرِّوا الفسطاط حتي يطير فراخها فأقر في موضعه ، فبذلك سميت الفسطاط . وذكّر ابن قتيبة أن العرب تقول لكل مدينة فسطاط ، وقيل : لما عاد عمرو من الاسكندرية قال : أين تنزلون ؟ فقالوا : الفسطاط — يمنون فسطاط عمرو الذي خلفه وكان مضروباً في موضع داره الصغرى التي بجذاء داره الكبرى وجامعه ، فاخطت عمرو داره في موضع الفسطاط ،

والدار التي إلى جانبها ، فلما نزل موضع فسطاطه انضمت القبائل بعضها إلى بعض وتنافسوا في المواضع فولى عمرو على الخطط أربعة من المسلمين فكانوا هم الذين أنزلوا الناس وفصلوا بين القبائل (١) ولا يبعد أن يكونوا قد اختاروا النزول في الموضع الذي نزلوا فيه أولاً ، لصالحه وقربه من النيل .

وقال ابن قتيبة في كتاب (غريب الحديث) إن النبي صلى الله عليه وسلم قال : عليكم بالجماعة فإن يد الله على الفسطاط (بضم أوله وكسره وإسكان ثانيه) : أي المدينة . وقال بطر : إن مدينة الفسطاط مأخوذة من لفظ « فسّاتم » ومعناه « مدينة حصينة » أخذه العرب عن الروم أثناء حربهم في الشام ، وربما كان هذا هو أرجح الأقوال .

(٢) الفسطاط ودار الإمارة :

اختطت مدينة الفسطاط بعد الفتح الأسلامي بناء على رغبة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه حتى لا يحول بينه وبين المسلمين ماء ، فصارت قاعدة للديار المصرية ومقرّاً للأمانة حتى بنيت مدينة العسكر (جهة زين العابدين والمذبح والسيدة زينب والكباش) سنة ١٣٣ للهجرة فنزل فيها أمراء مصر وسكنوها

ومما قاله ابن خلدون في مقدمته (ص ١٦٩) : ويشترط في اختيار

(١) ذكر هؤلاء ابن دقاق فقال (ج ١ ص ٣٢٢) : معاوية بن حديج

التجيبى وشريك بن سمي الغطيفي وعمرو بن قحزم الخولاني ، وحويل بن ناشر المعافري .

موضع المدينة أن تقع إما على هضبة متوعدة من الجبل وإما باستدارة ببحر أو نهر بها حتى لا يوصل إليها إلا بعد العبور، وطيب الهواء للسلامة من الأمراض، وقرب الزرع منها ليحصل الناس على الأقوات. وختم كلامه بقوله بأن العرب لم يراعوا هذه الشروط في اختيار مواقع المدن التي أسسوها كالقيروان والكوفة والبصرة، وأنها كانت أقرب إلى الخراب لما لم تراع فيها الأمور الطبيعية. اهـ

وإن كان ابن خلدون قد أصاب في بعض ما ذكره، فإن أقواله تنطبق من جهة على بعض المدن التي أسسها العرب، ولا تنطبق من جهة أخرى على البعض الآخر كالفسطاط، لمراعاة الأمور الطبيعية والسياسية التي أدت إلى تأسيسها، لأن النيل يحدّها شرقاً والجبل غرباً، وتقع المزارع فيما بينها، وبين الجبل من جهة وبين جبل يشكر من جهة أخرى، وكذا لوقوعها على رأس الدلتا ليسهل الأشراف على الوجهين البحري والقبلي، ولما لم تكن العرب أمة بحرية كما تقدم، لم يكن هناك داع لتأسيس العاصمة على البحر الأحمر حتى لا يحول بينها وبين العرب ماء كجراى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب.

(٣) الخطط التي كانت بمدينة الفسطاط :

قال المقرئى (ج ١ ص ٢٩٦) اعلم أن الخطط التي كانت بمدينة فسطاط مصر بمنزلة الحارات التي هي اليوم بالقاهرة، فليل تلك في مصر خطة وقيل لها في القاهرة حارة. اهـ

فلما عزم عمرو على تخطيط الفسطاط ولّى أربعة من المسلمين كما قدمنا

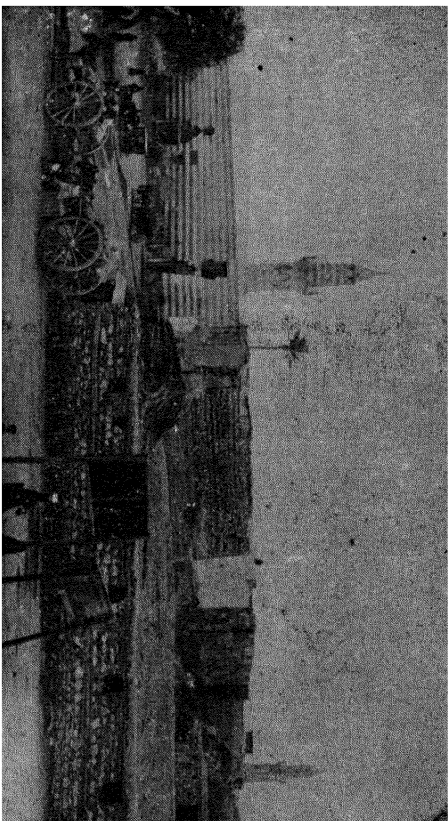
فاختطوا لكل قبيلة خطه .

قال « بطر » : والظاهر أن الذى قام بتنفيذ هذا الامر انما هم القبط لدرايتهم بفن العمارة التى كان يجملها العرب .

ونحن نستبعد ذلك لان الأبنية التى أقامها العرب هى من ابن دور واحد لا تحتاج الى معمارى أو هندسة . ودليلنا على ذلك ما سيرد فى بناء جامع عمرو فانه بنى بسقف منخفض بدون نوافذ وبدون فراغ فى السقف حتى يتخلل الهواء داخله ، وقد كان العرب يستظلون بفنائهم وينتقلون بجوانبه تبعاً للظل ، وذلك من شدة الحر بداخله

وكانت بيوت الصحابة فى بادئ الأمر طبقة واحدة ، وأول من ابنى غرفة بالنسطاط خارجة بن حذافة ، فبلغ عمر بن الخطاب أمرها وأنه أراد أن يطالع على عورات جيرانه فكتب الى عمرو بن العاص يقول : أدخل غرفة خارجة وانصب فيها سريراً وأقم عليه رجلاً ليس بالطويل ولا بالقصير ، فان اطلع من كواها فاهدمها . ففعل ذلك عمرو ولم يبلغ الكوى فأقرها .

بعد ذلك أخذت الدور تزداد فى الاتساع والعلو شيئاً فشيئاً حتى صار ارتفاع أغلب الارض خمس طبقات وستاً وسبعاً وثمانياً وبعد أن كانت الدار تسكنها أسرة قليلة العدد أصبح يسكنها المائتان من الناس ، وكانوا لا يسكنون فى أسفل دورهم (الطابق الارضى) لعدم جفافه وقلة وصول الشمس والضوء الكافية اليه بل يجعلونه مخزناً لهم ، وقلماً تخلو دار من بئر وأحواض لخزن المياه العذبة وحمام وبركة (فسقية)



جامع عمرو بن العاص
رسم حضرة محمد افندي يوسف مهندس بتنظيم مصر

وكانت أبنيتهم على جانب عظيم من الترتيب والابداع ، وأسواقهم وشوارعهم واسعة وابنياتهم شاهقة - كل ذلك بعد الفتح بزمان .
ولإليك صور بعض الأبنية الباقية من مدينة القسطنطينية أخذها
حضرة محمد افندي يوسف بالتصوير الشمسي خصيصاً لهذه الرسالة ،
ومنها يظهر ما كانت عليه هذه المدينة .

(د) عمرو وتأسيس الجامع النبوي :

إلى الشمال من حصن بابليون جامع عمرو بن العاص ، وهو أقدم
جامع إسلامي (١) بنى في مصر يظهر عليه الجلال وتكسوه المهابة ، لأن اسمه
مقرون باسم مؤسسه ، لهذا وجب على المصريين ولا سيما المسلمين منهم
أن يعنوا بهذا الجامع عناية كبرى .

أسس هذا الجامع سنة إحدى وعشرين من الهجرة على مارواه
أبو المحاسن وابن دقاق والذي حاز موضعه قيسية (٢) بن كلثوم التجيبي ،
فأما رجع المسلمون من الأسكندرية سأل عمرو بن العاص قيسية هذا في منزله
ليجعله مسجداً فأجابه إلى طلبه وتصدق به على المسلمين ، ومن ثم شرع
عمرو في بنائه ، فكان طوله خمسين ذراعاً وعرضه ثلاثين .

ومن هنا يتضح أن هذا الجامع كان في مبدأ أمره أصغر بكثير مما

(١) ولم يبق من البناء القديم شئ أصلاً . والبناء الموجود الآن بعضه
منذ سبعة قرون والبعض منذ خمسة والاعقاب منذ سنة ١٢١١ هـ .

(٢) ذكر هذا اللفظ السيوطي وابن دقاق وذكره أبو المحاسن « قتيبة »
وهو خطأ

هو عليه الآن . ويقال إنه وقف على إقامة قبلته ثمانون من الصحابة منهم الزبير بن العوام والمقداد (١) بن الأسود وعُبدادة بن الصامت . ولم يكن للمسجد الذى بناه عمرو محراب مجوف وأول من بناه قرة ابن شريك (٢) ، وكان له بابان مقابلان دار عمرو وبابان شماليه وبابان غربيه ، وكان الخارج من زقاق القناديل (٣) يلقى ركن الجامع الشرقى محاذياً ركن جامع عمرو الغربى ، وكان طوله من القبلة إلى الغرب مثل طول دار عمرو وسقفه منخفضاً جداً ولا صحن له ، وكانوا يصلّون بفنائها ، وكان بينه وبين دار عمرو سبعة أذرع ، وكان الطريق محيطاً به من جميع جوانبه ، وكان عمرو قد اتخذ منبراً فكتب إليه عمر بن الخطاب رضى الله عنه يأمره بكسره : «أما يحسبك أن تقوم قائماً والمسلمون جلوس تحت عقبيك ؟» فكسره عمرو .

(٥) خطبة لعمرو فى هذا الجامع :

وقبل أن نختتم كلمتنا نأتى بأحدى خطب عمرو بن العاص فى هذا الجامع . أخرج أبو المحاسن عن ابن عبد الحكم عن سعيد بن ميسرة المعافى قال :

(١) ذكر بطبر فى تاريخه هذا اللفظ خطأ فقال « قدّاد »

(٢) كان والى مصر من قبل الوليد بن عبد الملك بن مروان من سنة ٩٠

الى سنة ٩٦ هـ .

(٣) دعى بهذا الاسم لانه كان منازل الأشراف ، وكان على ابوابهم القناديل ،

وقيل إنما قيل له زقاق القناديل لانه كان يرسمه قنديل يوقد على باب عمرو ، وهو من الخطط القديمة وله أربع مسالك .

رحتُ أنا ووالدى إلى صلاة الجمعة وذلك آخر الشتاء بعد خميس
النصارى بأيام يسيرة ، فأطلقنا الركوع ، إذ أقبل الرجال بأيديهم السياط
يزجرون الناس فذعرت فقلت : يا أبت من هؤلاء ؟ قال : يا بني هؤلاء
الشرط . فأقام المؤذنون الصلاة فقام عمرو بن العاص على المنبر ، فرأيتُ
رجلاً ربعة قصير القامة وافر الهامة ، أدعج أبلج عليه ثياب موشاة كأنَّ
به العقبان تأتلق ، عليه حلة وعمامة وجبة ، فحمد الله وأثنى عليه حمداً موجزاً
وصلى على النبي صلى الله عليه وسلم ووعظ الناس وأمرهم ونهاهم ، فسمعتُه
يخصُّ على الزكاة وصلة الأرحام ويأمر بالاعتصام وينهى عن الفضول وكثرة
العيال وإخفاض الحال فقال :

يا معشر الناس إياكم وخلاًلاً أربعاً فانهتدعوا إلى النصب بعد الراحة ،
وإلى الضيق بعد السعة ، وإلى الذلة بعد العزة : إياكم وكثرة العيال ،
وإخفاض الحال ، وتضييع المال ، والقيام بعد القيل في غير درك ولا نوال ،
ثم لا بد من فراغ يؤول إليه المرء في توديع جسمه والتدبير لشأنه وتخليته
بين نفسه وبين شهواتها ، ومن صار إلى ذلك فليأخذ بالقصد (١) والنصيب
الأقل ، ولا يضيع المرء فراغه نصيب العلم من نفسه فيجوز من الخير عابلاً
وعن حلال الله وحرامه باطلاً . يا معشر الناس إنه قد تدأت الجوزاء
وزلت الشعرى وأقلعت السماء (٢) وارتفع الوباء وقلَّ الذدى وطاب المرعى ،
ووضعت الحوامل ودرجت السخائل ، وعلى الراعى بحسن رعيته حسن

(١) الاعتدال

(٢) أقلعت السماء أي كفت وهو كناية عن انقطاع المطر .

النظر ، فحىّ إلكم على بركة الله تعالى الى ريفكم ، فتناولوا من خيريه ولبنه وخرافه وصيده ، وأربعوا خيلكم وأسمنوها ووصونوها وأكرموها ، فأنها جنة تكتم (١) من عدوكم ، وبها مغناصكم وأنفالكم ، واستوصوا بمن جاورتموه من القبط خيراً ، وإياكم والمومسات المعسولات (٢) فانهن يفسدن الدين ويقصرن الهمم ، حدثني أمير المؤمنين أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : إن الله سيفتح عليكم بعدى مصر فاستوصوا بقبطها خيراً ، فان لهم فيكم صهراً وذمة فكفوا أيديكم وعفوا فروجكم وغضوا أبصاركم (٣) ، ولا أعلمن (٤) ما أتى رجل قد أسمن جسمه وأهزل فرسه ، واعلموا أنى معترض الخيل كاعتراض الرجال ، فمن أهزل فرسه من غير علة حططته من فريضته قدر ذلك ، واعلموا أنكم فى رباط الى يوم القيامة لكثرة الأعداء حولكم وتشوف قلوبهم اليكم ؛ والى داركم معدن الزرع والمال والخير الواسع والبركة النامية . وحدثني عمر أمير المؤمنين أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : إن الله سيفتح عليكم بعدى

(١) الجنة هى الوقاية .

(٢) العواهر .

(٣) يشير الى قوله تعالى (قل المؤمنين يفضوا من أبصارهم ويحفظوا فروجهم ذلك أركى لهم إن الله خبير بما يصنعون ، وقل للمؤمنات يفضضن من أبصارهن ويحفظن فروجهن ؟) الخ .

(٤) جواب قسم محذوف أكد بالنون الثقيلة . وما مصدرية ، أى فوالله لا أعلمن إتيان رجل موصوف بما ذكر ، وفى طيه من التهيب البليغ ما لا يخفى ، وقد بين بعد جزاء من فعل ذلك بقوله : فمن أهزل فرسه . الخ .

مصرفاً اتخذوا فيها جنداً كثيفاً فذلك خير أجناد الارض . فقال له أبو بكر رضى الله عنه : ولم يارسول الله ؛ قال لأنهم وأزواجهم في رباط الى يوم القيامة . فاحمدوا الله معشر الناس على ما أولاكم فتمتعوا في ريفكم ما طاب لكم ، فاذا يبس العود وسخن الماء وكثر الذباب وحمض اللبن وصوَّح البقل وانقطع الورد من الشجر ، فجيء الى فسطاطكم على بركة الله ؛ ولا يقدمنَّ أحد منكم ذو عيال إلا ومعه تحفة لعياله على ما أطاق من سمته أو عسرتة ، أقول قولى هذا وأستحفظ الله عليكم (١) اهـ

هذه الخطبة تمثل لنا عمرو بن العاص رجلاً ناصحاً لرعيته ، حريصاً على الاستمساك بسياسة عمر بن الخطاب ، وإظهار زهد عمر ، وان كانت تم بحبه للذات الحياة وحثه الناس على أن يستمتعوا بها من غير إسراف ؛ ثم نلاحظ هنا حثه الناس على تعهد الخيل فإنه ربما دلنا على أن عمر كان يضمّر في نفسه حرباً أخرى في أفريقيا الشمالية ، مع أن هذا كان لازماً ، لأن الروم كانوا يترقبون الفرص للأغارة على مصر من جديد ، مما يدل على أن عمر لم يكن يقتنع بفتح مصر ، وإنما كان يحث الناس على الاعتناء بالخييل كأنه يضمّر حرباً أخرى ما حاول من فتح برقة ، وكان هذا الفتح طبيعياً ، لأن مصر ما زالت منذ عصورها الاولى الى الآن تلاحظ هذا القسم من أفريقيا الشمالية كأنه امتداد طبيعي لها .

(و) عمرو وعمر فليج القاهرة

كان من أعمال عمرو المشكورة في مصر حفر خليج القاهرة المعروف

بخليج أمير المؤمنين . وقد قال المرحوم على مبارك باشا في خطته : يظهر من أقوال المقریزی وغيره أن هذا الخليج بعض من خليج قديم كان مستعملاً في الأزمان الغابرة في الملاحة وموصلاً بين النيل والبحر الأحمر ، وكانت بواسطته تجارة بلاد العرب والهند والسودان تدخل القطر المصري وتوزع في بلاده ، كما أن التجارة المصرية كانت تحملها السفن فيه إلى البحر الأحمر فتدخل في جميع البلاد المذكورة ، فهو بهذا الاعتبار أثر من الآثار العتيقة يستحق الذكر . اهـ .

ولم يترك صاحب الخطط التوفيقية واردةً إلا أوردها ولا شاردةً إلا إقتفى أثرها مما لا يترك زيادة لمستزيد ، كذلك أفرد له المقریزی باباً خاصاً أطال القول فيه ، وعنه أخذ على مبارك باشا والسيوطي وغيرهما ... وقد ذكر المقریزی في خطته أن هذا الخليج بظاهر القاهرة من جانبها الغربي فيما بينها وبين المقس عُرف في أول الاسلام بخليج أمير المؤمنين ، وهو خليج قديم أول من حفره « طوطيس بن ماليا » أحد ملوك مصر الذين سكنوا مدينة منف ، وهو الذي قدم خليل الله إبراهيم عليه السلام في أيامه إلى مصر وأخذ امرأته سارة وأخدمها هاجر أم اسماعيل ، فلما أسكنها إبراهيم هي وابنها إسماعيل في مكة بعث إلى طوطيس تعرفه أنها بمكان جذب وتبستغيث به ، فأمر بحفر هذا الخليج وبعث إليها فيه بالسفن تحمل الحنطة وغيرها إلى جُدَّة فأحيا بلد الحجاز وقد تمددت الدهور والاعوام فجُدَّ هذا الخليج أندرومانوس (ادريان) قيصر الروم وسارت فيه السفن قبل الهجرة بنيف وأربعمائة سنة . اهـ .

ونحن نستبعد جداً أن يأمر سلاطيس بحفر هذا الخليج من أجل خادمة ونجزم بأنها خرافة .

ولما وفد « هيرودت » على مصر وساح في أرضها قبل المسيح بأربعة قرون ونصف قرن قال فيما كتبه عليها إن « نيخوس بن ايسامتكوس » هو أول من شرع في اتصال النيل بالبحر الاحمر ولم يتمه ، ولما دخلت مصر في حكم الفرس في زمن « دارا » شرع فيه مرة ثانية فأتمه وجعل طوله أربعة أيام ملاحية وعرضه بحيث تمر فيه سفينتان بالمجازيف ، وكان يملأ بماء النيل ومبدؤه فوق مدينة بوبسط (١) بقليل بقرب مدينة باطموس (٢) . ثم يتبع سير الادوية بعد أن يبعد عن الجبل في جهة الجنوب ويصب في البحر .

وفي تاريخ القرون الوسطى لمؤلفه « لبون » أن عمر بن الخطاب لم يأذن بفتح خليج البرزخ بين الفرما والبحر الاحمر ، واكتفى عمرو بن العاص بأصلاح خليج « تراچان » الذي كان (أدريان) مدّه الى النيل بقرب بابايون ، ويعر ببيليس وأوصله بخليج (نيخوس) القديم الذي كمله (دارا) ملك الفرس ، واجتمع من الخليجين خليج واحد كان ينتهى الى مستنقع الملح . وفي زمن « بطليموس لاغوس (٣) » عملت ترعة من نهايته لتوصيل

(١) تل بسطة بجوار الزقازيق

(٢) مدينة باطموس هي التي خلفتها قرية التل الكبير الآن وكان مبدأ هذا

الخليج بقربها

(٣) يقول بطر إن هذا كان في زمن (بطليموس فيلادلف الثاني)

المياه الحلوة إلى مدينة أرسنويه (١) نهاية البحر الأحمر الذي فيه الآن مدينة السويس، وكان مبدأ هذا الخليج مدينة بابلون ويمر بين شمس ووادي الطميلات إلى القنطرة ثم يتصل بالبحر الأحمر عند القلزم ومما تقدم يعلم أن خليج تراچان وأدريان هما مجملتهما خليج واحد وهو خليج القاهرة، وكان ينتهي إلى البحيرات المرة ثم مدّه (بطليموس) إلى السويس، وهذا الخليج لا يصلح للملاحة إلا في زمن ارتفاع النيل، وقد أهملته الروم حتى طمّ وردم بالأتربة في معظم مواضعه حتى احتفروه عمرو ثانياً واستعمله لنقل الميرة في المراكب إلى الحجاز، ولم يقلّ طول هذا الخليج عن ثمانين ميلاً . وكان سبب حفر هذا الخليج في عهد عمرو بن العاص على ما أخرجه السيوطي عن ابن عبد الحكم عن الليث بن سعد، أن الناس بالمدينة أصابهم جهد شديد في خلافة عمر عام الرمادة فكتب إلى عمرو بن العاص وهو بمصر : من عبد الله أمير المؤمنين إلى عمرو بن العاص سلام عليك . أما بعد ، فاعدري يا عمرو ما تبالي إذا شبت أنتَ ومن معك أن أهلك أنا ومن معي فياغوثة ثم ياغوثة .

فكتب عمرو بن العاص : أما بعد فيا لبيك ثم يا لبيك قد بعثت إليك بعير أولها عندك وآخرها عندي والسلام عليك ورحمة الله . . . فبعث إليه بعير عظيمه فلما قدمت على عمر وسّع بها على الناس وكتب إلي عمرو بن العاص ان يقدم عليه هو وجماعة من أهل مصر معه فقدموا عليه فقال عمر : يا عمرو ان الله قد فتح على المسلمين مصر ، وهي كثيرة الخير والطعام وقد

(١) كانت مدينة أرسنويه على ساحل البحيرات المرة وقد زالت الآن .

ألقى في روعى لما أحببتُ من الرفق بأهل الحرمين التوسعة عليهم حين فتح الله مصر وجعلها قوة لهم ولجميع المسلمين ، أن أحفر خليجاً من نيلها حتى يسيل في البحر فهو أسهل لما نريد من حمل الطعام إلى المدينة ومكة ، فأنّ حمّله على الظهر يبعد ولا نبلي به ما نريد ، فانطلق وأصحابك فتشاوروا في ذلك حتى يعتدل فيكم رأيكم . فانطلق عمرو فأخبر من كان معه من أهل مصر فثقل ذلك عليهم وقالوا : نتخوّف أن يدخل من هذا ضررٌ على مصر ، ففرى أن تعظّم ذلك على أمير المؤمنين وتقول له إن هذا أمر لا يعتدل ولا يكون ولا نجد إليه سبيلاً . فرجع عمرو بذلك إلى عمر فضحك عمر حين رآه وقال : والذي نفسى بيده لكانى أنظر إليك يا عمرو وإلى أصحابك حين أخبرتهم بما أمرتُ به من حفر الخليج فثقل ذلك عليهم وقالوا يدخل من هذا ضرر على أهل مصر ، ففرى أن تعظّم ذلك على أمير المؤمنين وتقول له هذا لا يعتدل ولا نجد إليه سبيلاً . فعجب عمرو من قول عمر وقال : صدقتَ والله يا أمير المؤمنين لقد كان الأمر على ما ذكرت . فقال عمر : إنطلق يا عمرو بعزيمة منى حتى تجد في ذلك ، ولا يأتى عليك الحول حتى تفرغ منه إن شاء الله تعالى . اهـ .

ويخيّل إلينا أن كل هذا إنما اخترع فيما بعد وأن عمرأ رأى آثار هذا الخليج القديم فاحتفره وأصلحه تسهيلاً للمواصلّة بينه وبين المدينة . فانصرف عمرو وجمع لذلك من الفعلة ما بلغ منه ما أراد ، ثم احتفر الخليج الذى فى حاشية الفسطاط الذى يقال له خليج أمير المؤمنين ، فساقه من النيل إلى القلزم (السويس) ، فلم يأت الحول حتى فرغ وجرت

فيه السفن فحمل فيه ما أراد من الطعام إلى المدينة ومكة ، فنفع الله بذلك أهل الحرمين وسمى « خليج أمير المؤمنين » ثم لم يزل يحمل فيه الطعام حتى حمل فيه عمر بن عبدالعزيز ، ثم ضيَّعه الولاية بعد ذلك ، فترك وغلب عليه الرمل ، فانقطع وصار منتهاه إلى ذنب التمساح من ناحية بطحاء القلزم (١) . اه
وقد ذكر الكندي أن عمراً حفر الخليج في سنة ثلاث وعشرين (٦٤٣ م) وفرغ منه في ستة أشهر .

يتضح مما تقدم أن عمر أمر بحفر الخليج ، وقد شرع في ذلك أثناء خلافته ، وفعلاً جرت المؤن فيه ووصلت إلى بلاد العرب قبل وفاته في ذى الحجة سنة ٢٣ للهجرة ، ولا يفهم من قول الكندي هل شرع في حفر الخليج سنة ٢٣ هـ أو تم حفره سنة ٢٣ ، فيحتمل أن يكون قد شرع في حفره في نهاية سنة ٢٢ هـ ، وحينئذ لا يكون ذلك عام الرمادة وهو الأشبه

وقد أجهزت الحكومة المصرية على الباقي من هذا الخليج فأمرت بطمه سنة ١٨٩٧ م .

(ز) عمرو ومقايمس النيل وزيادته

لا ريب في أن حياة مصر متوقفة على النيل ، وعلى هذا يتوقف محصول البلاد الذي يزداد بزيادة مائة وينقص بنقصانه ، لهذا لم يأل حكام مصر منذ الأزمان الغابرة جهداً في قياس درجة فيضانه في كل سنة في مواضع كثيرة ، لأن القياس المذكور هو القاعدة في ربط المال وتوزيعه

(١) يقرب من محلها الآن مدينة السويس ، ولما ينسب البحر فيقال بحر القلزم

على البلاد، وعليه يتوقف تنظيم الخراج، ولم يعزب عن بال عمرو ضرورة قياس النيل قياساً مضبوطاً ليتأتى له جباية الأموال بالقسط والعدل.

فلما فتح العرب مصر، عرف عمر بن الخطاب رضى الله عنه ما يلقي أهلها من الغلاء عند وقوف النيل عن حده، فكتب إلى عمرو يسأله عن شرح الحال فأجابه: إني وجدت ما تروى به مصر حتى لا يقحط أهلها أربعة عشر ذراعاً، والحد الذى يروى منه سائرهما حتى يفضل عن حاجتهم ويبقى عندهم قوت سنة أخرى ستة عشر ذراعاً، والنهائتان المخوفتان فى الزيادة والنقصان وهما الظمأ والاستبحار، إثني عشر ذراعاً فى النقصان وثمانية عشر ذراعاً فى الزيادة، فكتب إليه عمر أن يبنى مقياساً وأن يضيف ذراعين على الأثنى عشر ذراعاً، وأن يقر ما بعدها على الأصل وأن ينقص من ذراع بعد الستة عشر ذراعاً أصبعين، ففعل ذلك وبناه بمحلوآن، وجعل الأثنى عشر ذراعاً أربعة عشر ذراعاً، لأن كل ذراع أربعة وعشرون إصبعاً، فجعلها ثمانية وعشرين من أولها إلى الاثنى عشر، ثمانية وأربعين إصبعاً وهى الذراعان، وجعل الأربعة عشر ستة عشر، والستة عشر ثمانية عشر، والثمانية عشر عشرين، وهى المستقرة الآن، المقريزى (١ ص ٧٤)

(ح) عمرو وخراج مصر فى الإسلام

سار عمرو مع المصريين بمقتضى شروط الصلح من حيث تقسيم الجباية ومراعاة حال النيل فى النقصان والزيادة، وربما اضطر أحياناً إلى كسر الخراج، فكان عمر رضى الله عنه يظن فيه الظنون، وربما كان ذلك

لجبايته (٠٠ ٠٠ ر ١٢) دينار ، مع أن المقوقس جباها (٠٠٠ ر ٠٠ ر ٢٠) ويظهر ذلك من المكاتبات التي دارت بين عمرو وعمر بهذا الصدد ، ومنها يعلم أن النزاع ازداد بينهما وأن سوء التفاهم قد وصل إلى مدى بعيد .

وإليك كتاب عمر إلى عمرو حين استبطأه مرة في الخراج نقلاً عن « حسن المحاضرة » للسيوطي : بسم الله الرحمن الرحيم ، من عبد الله أمير المؤمنين إلى عمرو بن العاص سلام عليك . أما بعد فأني فكرت في أمرك والذي أنت عليه ، فإذا أرضك أرض واسعة عريضة رقيقة قد أعطى الله أهلها عدداً وجلداً وقوة في بر وبحر ، وانها قد عالجتها الفراعنة وعملوا فيها عملاً محكماً مع شدة عتوهم وكفرهم ، فعجبت من ذلك ، وأعجب مما عجبت أنها لا تؤدي نصف ما كانت تؤديه من الخراج قبل ذلك على غير قحط ولا جذب ، ولقد أكرت في مكاتبتك في الذي على أرضك من الخراج ، وظننت أن ذلك سيأتينا على غير نزر (قلة) ورجوت أن تفيق فترفع إلى ذلك ، فإذا أنت تأتيني بمعاريض (١) تعبأ بها (٢) لا توافق الذي في نفسي . ولست قابلاً منك دون الذي كانت تؤخذه من الخراج قبل ذلك ، ولست أدري مع ذلك ما الذي أنفرك من كتابي وقبضك ، فإن كنت مجرباً كافياً صحيحاً إن البراءة لنافعة ، ولئن كنت مضيعاً نطعاً (٣) إن الأمر

(١) المعارض هي التورية بالشئ عن الشئ وهي الستر ، يقال عرفته في معراض كلامه وفي لحن كلامه ، فالتعريض خلاف التصريح من القول .

(٢) أي يظنها مما يعبأ به أي يهتم له ، وهي لاشئ عندي ، وقد ذكرها

السيوطي « تفتأ لها » (٣) التشديق بالكلام

العلي غير ما تحدّثُ به نفسك ، ولقد تركت أن أبتلى (١) ذلك منك في العام الماضي رجاء أن تفيق فترفع إلى ذلك ، وقد علمتُ أنه لم يمنعك من ذلك إلا أن عمالك عمال السوء ، وما توالس عليك وتلفّف (٢) اتخدوك كهفًا ، وعندى بأذن الله دواء فيه شفاء عما أسألك فيه ، فلا تجزع أبا عبد الله أن يؤخذ منك الحق وتُعطاه ، فإن النهر يخرج الدر والحق أبلج (٣) ودعني وما عنه تلجلج (٤) فإنه قد برّح الخفاء والسلام . اهـ
هذا الكتاب يدلنا :

أولا - على ما هو معروف عن عمر من شدته وضربه على أيدي العمال والولاة .

ثانياً - على أن نفرأ من المنافسين اممرو بن العاص كانوا قد أخذوا يسيئون ما بينه وبين الخليفة ، ويبينون لهذا إهمال عمرو وسوء إدارته ، وربما اتهموه بمحاباة العمال المفسدين حين لم يستطيعوا أن يهتموه مباشرة بالخيانة .

ونحن نستدل مما جاء في هذا التناكب على أن عمر كان قد كتب إلى عمرو بخصوص الخراج من قبل ، وأن مصر لم تكن تؤدى نصف ما كانت تؤديه ، إن صح أن مصر كانت تؤدى هذا المقدار قبل الإسلام ، أى أن الخراج كان أقل من عشرة آلاف ألف (. . . . ر . . . ر ١٠) . ولا ندرى ما هي المعارض التي كان يأتي بها عمرو ، وقد ظنَّ عمر أن قلة الخراج كانت

(١) امتحن وأختبر (٢) قوله توالس وتلفف بمعنى واحد

(٣) مضيء مشرق لا يخفيه التمويه (٤) التردد في الكلام

راجعةً إلى عدم مراقبته عمال الخراج وقلة جبايته ، وأنهم كانوا يستولون على بعضها لأنفسهم ، وإن صح ذلك كان نقطة ضعف في سياسة عمرو ، ولكن إذا عرفنا أن من أموال الخراج كانت تُدفع أعطيات الجند وتنفذ المشاريع التي يتطلبها الإصلاح ، كشق الترع وبناء القناطر ، فلا نحجم عن القول بأن عمراً كان له العذر فيما فعل ، إذ راعى مصلحة الدولة الحاكمة والبلاد المحكومة ، ورأى أن مصر في حاجة إلى الإصلاح الذي لا يتم إلا بالمال ، وكتاب عمر كما يظهر مفعم بالتعريض واللوم . أما قول عمر رضي الله عنه : إنها لا تؤدي نصف ما كانت تؤديه قبل ذلك ، يفيد أن عمراً قد خفف على المصريين الأعباء الثقيلة التي كانوا يثنون تحتها من تعدد الضرائب التي شملت كل شيء كما قدمنا ، وهو مظهر من مظاهر الاستبداد لا يرضى به عمرو . ومن راجع كتاب المستر ملن « مصرفي عهد الرومان » حيث أفرد فيه باباً خاصاً للضرائب ، لا يسمعه إلا أن يعزو نقص الخراج في أيام عمرو عما كان عليه في عهد الروم إلى إلغاء كثير منها وعدم رضائه بالأ خلال بعده لأهل مصر ، ذلك العهد الذي شمل شروطاً ثابتة راعى فيها عدد القبط وحال الأرضين . ولا شك أن خراج مصر قد قلّ نسبياً بعد الفتح لاعتناق كثير من المصريين الإسلام فيما بعد . ففي أيام الدولة الأموية كتب عمر بن عبد العزيز إلى حيان بن شريح أن يضع الجزية عمن أسلم ، فكتب إليه حيان إن الإسلام قد أضرب الجزية حتى سلف من الحارث ابن ثابتة عشرين ألف درهم أتمّ بها عطاء أهل الديوان ، وطلب منه أن يأمر بقضائها ، فكتب إليه عمر « ضع الجزية عمن أسلم قبّح الله رأيك فأن

الله إنما بعث محمداً صلى الله عليه وسلم هادياً ولم يبعثه ، جانياً ولعمري لعمرُ أشقى من أن يدخل الناس كلهم في الأسلام على يديه»

ولكنّ نفس عمرو العالية وعدم تَعُوده احتمال الضيم أو سماع المَكروه أبى عليه ذلك ، فكتب إلى أمير المؤمنين كتاباً يرد عليه قوله ويبرئ فيه نفسه ويظهر له أنه ذو نفس أبيّة ، وأن ماضى تاريخه خير شاهد على صحة ما يقول ، وإليك نص هذا الكتاب :

بسم الله الرحمن الرحيم لعبد الله أمير المؤمنين من عمرو بن العاص ، سلام الله عليك فأنى أحمد الله الذى لا إله إلا هو . أما بعد فقد بلغنى كتاب أمير المؤمنين فى الذى استبطأنى فيه من الخراج ، والذى ذكر فيه من عمل الفراعنة قبلى ، وإعجابه من خراجها على أيديهم ونقص ذلك مذ كان الأسلام ، ولعمري للخراج يومئذ أوفر وأكثر والأرض أعمر ، ولأنهم كانوا على كفرهم وعتوهم أرغب فى عمارة أرضهم منا مذ كان الأسلام ، وذكّرت أن النهر يخرج الدرّ فلبته حلباً قطع درّها ، وأكثرت فى كتابك وأنبت وعرضت وترّبت (١) وعلمت أن ذلك عن شئ تخفيه على غير خبر ، فجئت لعمري بالمفطّعات المقدّعات ، ولقد كان لك فيه من الصواب من القول رصين صارم بليغ صادق ، وقد عملنا لرسول الله صلى الله عليه وسلم ولمن بعده فكذلك

(١) تربت : بالتاء المثلثة بعدها راء مشددة بعدها باء موحدة من تحت ثم تاء مثناة ، بمعنى ضيقت . ومنه قول يوسف لأخوته : لا تريب عليكم اليوم ، ويراد بها الحث والتحريض كما فى قوله عليه السلام (تربت يداك — من باب تعب ايضاً) وهى من الكلمات التى جاءت عن العرب صورتها دعاء ولا يراد بها الدعاء بل الحث والتحريض

بحمد الله مؤدّين لأمانتنا حافظين لما عظم الله من حق أئمتنا، نري غير ذلك قبيحاً والعمل به شيناً. فتعرّف ذلك لنا وتصدق فيه قلبنا. معاذ الله من تلك الطعم (١) ومن شر الشيم والاجترأ على كل مأثم، فامض عملك فإن الله قد نزهني عن تلك الطعم الدنية والرغبة فيها بعد كتابك الذي لم تستبق فيه عرضاً ولم تكرم أخاً، والله يا ابن الخطاب لأنا حين يراد ذلك مني أشد غضباً لنفسي ولها أنزاهاً وإكراماً، وما عمات من عمل أرى فيه متعلقاً (٢) ولكنني حفظت ما لم تحفظ، ولو كنت من يهود يثرب ما زدت، يغفر الله لك ولنا وسكت عن أشياء كنت عالماً بها وكان اللسان بها مني زلولاً، ولكن الله عظم من حقك ما لا يجهل والسلام. اهـ

وكفي برهاناً لما كان عليه عمرو من علو النفس والصراحة في القول قوله: والله يا ابن الخطاب لأنا حين يراد ذلك مني أشد غضباً لنفسي « ولها أنزاهاً وإكراماً »

لم تفف المكاتبات بين عمرو وعمرو بخصوص الخراج عند هذا الحد، بل استمرت بين أخذ ورد، فكتب أمير المؤمنين إلى عمرو بن العاص: من عمرو بن الخطاب إلى عمرو بن العاص، سلام إليك. فأنى أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو: أما بعد فأنى قد عجبت من كثرة كتبي إليك في إبطائك بالخراج، وكتابك إلى بثنيات الطرق، وقد علمت أني لست أَرْضَى منك إلا بالحق البين ولم أقدمك مصرأ جعلها لك طعمة، ولا لقومك

(١) - جمع طعمة وهي المأكلة، وقولهم الطعم علة الربا

(٢) - متعلق من تعلق بالشيء إذا استمسك به

ولكنى وجهتك لما رجوت من توفيرك الخراج وحسن سياستك ، فاذا أتاك كتابى هذا فاحمل الخراج ، فانما هو فى المسامين وعندى ما قد تعلم قوم محصورون والسلام . اهـ

فكتب اليه عمرو بن العاص : بسم الله الرحمن الرحيم . لعمر بن الخطاب : من عمرو بن العاص : أما بعد فقد أتانى كتاب أمير المؤمنين يستبطنى فى الخراج ويزعم أنى أحيد عن الحق وأنكث عن الطريق ، وإنى والله ما أرغب عن صالح ما تعلم وإن أهل الأرض استنظرونى إلى أن تدرك غلتهم ، فنظرت للمسامين فكان الرفق بهم خيراً من أن نخرق (١) بهم فيصيروا إلى بيع ما لا غنى بهم عنه والسلام . اهـ

ولما استبطن عمر الخراج ، كتب إلى عمرو أن يبعث إليه رجلاً من أهل مصر ، فبعث إليه رجلاً من القبط فاستخبره عمر عن مصر وخراجها قبل الأسلام فقال : يا أمير المؤمنين كان لا يؤخذ منها شئ إلا بعد عمارتها ، وعاملك لا ينظر إلى العماره وأنه يأخذ ما ظهر كأنه لا يريد إلا لعام واحد . اهـ

ومن هنا يظهر أن سوء الظن عند عمر قد اشتد بعامله على مصر حتى طلب إليه أن يوفد عليه رجلاً ينبئه من أمر مصر بالحق ، ولكن عمر كان من حسن النية وصفاء الضمير بحيث لم يخطر له أن عمرأ يستطيع أن يخادعه ، أو أن يلهم رسوله ما يجيب به الخليفة ، ولما نشك فى أن عمرأ قد أحفظ هذا الرسول ، فإن جواب هذا الرسول لعمر يناقض جواب عمرو فى كتاب

سابق ، فينما عمرو يقول إن المصريين استنظروه فأنظروهم ، إذ الرسول يقول إن عمراً لا ينظر إلا لما يقع تحت عينه من مال ، وفي هذا الدليل الواضح على أن عمراً أراد أن يقنع الخليفة بأنه مع رفقته ولطفه بالمصريين لا يستطيع أن يقنعه .

أراد عمر أن يوسع على عمرو لكي لا يتطلع إلى أموال الخراج ، فكتب إليه كتاباً يعلّمه بذلك ويبين له طريقة توزيع الخراج :

أما بعد فأني فرضت لمن قبلي في الديوان (أى فرض العطاء) ولمن ورد علينا من أهل المدينة وغيرهم ممن توجه إليك وإلى البلدان ، فانظر من فرضت له ونزل بك ، فاردد عليه العطاء وعلى ذريته ، ومن نزل بك ممن لم أفرض له ، فافرض له على نحو ما رأيته فرضت لأشباهه ، وخذ لنفسك مائتي دينار (١) ولم أبلغ بهذا حداً من نظرائك غيرك ، لأنك من عمال المسلمين ، فألحقتك بأرفع ذلك ، وقد علمت أن مؤناً تلزمك ، فوفر الخراج وخذه من حقه ، ثم عفاً عنه بعد جمعه ، فإذا حصل إليك وجمعه ، أخرجت عطاء

(١) لعل هذا الفرض الذى فرضه لعمرو هو جريته (مرتبه) على عمله لا فرض العطاء ، إذ أن عمر كان يجرى على العمال جريته هى غير نصيبهم من العطاء ، وقد ذكر في سراج الملوك أن عمر أجرى على عمار فى كل شهر ستمائة درهم مع عطائه لولائه وكتابته ومؤذنيه ، وأجرى عليه فى كل يوم نصف شاة ورأسها وجلدها وأكارعها ، ومن هنا يعلم أن عماله كان لهم جريات ، وهى غير العطاء كما يتضح ذلك من قوله (مع عطائه)

المسلمين وما يُحتاج إليه مما لا بدّ منه، ثم انظر فيما بقي بعد ذلك فاحمله الى ،
واعلم أن ما قبلك من أرض مصر ليس فيها خمس ، وإنما هي أرض صلح (١)
وما فيها للمسلمين في ، تبدأ بمن أغنى عنهم في ثغورهم (أى المرابطين) ،
واجزأ (٢) عنهم في أعمالهم ، ثم اقض ما فضل بعد ذلك على من سمي الله (٣)
واعلم يا عمرو ان الله يراك ويرى عملك فإنه قال تبارك وتعالى في كتابه وجعلنا
للمتقين إماماً (يريد أن يقتدي به ، وان معك أهل ذمة وعهد ، وقد أوصى
رسول الله صلى الله عليه وسلم بهم وأوصى بالقبض فقال (استوصوا بالقبض
خيراً فإن لهم ذمة ورحماً) ورحمهم أن أم إسماعيل منهم ، وقد قال صلى الله عليه
وسلم (من ظلم معاهداً أو كلفه فوق طاقته فأنا خصمه يوم القيامة) إحذر
يا عمرو أن يكون رسول الله صلى الله عليه وسلم لك خصماً ، فإنه من خصمه
خصمه ، والله يا عمرو لقد ابتليت بولاية هذه الامة وآنت من نفسى
ضعفاً ، وانتشرت رعتى ورقّ عظمى ، فأسأل الله أن يقبضنى إليه غير
مفرط ، والله انى لأخشى لو مات جل بأقصى عملك ضياعاً أن أسأل
عنه . اه

ومن هنا يتضح أنه كان لعمر ومزلة خاصة في نفس عمر بالرغم من
معاملته الشديدة في مكاتباته له . ولم تقف معاملة عمر لعمر عند هذا الحد

(١) وهذا يؤيد رأينا بأن مصر فتحت صلحا لا عنوة وأن عمر قد أمر
بأن يماثل أهل المدن التي فتحت عنوة معاملة الصلح ، فشمّل ذلك جميع المصريين
على السواء .

(٢) أقض (٣) أى في القرآن .

بل قاسمه ماله (عمرأ) كما يعلم من رواية البلاذرى (ص ٢١٧) قال : كان عمر بن الخطاب يكتب أموال عماله إذا ولّاهم ، ثم يقاسمهم ما زاد على ذلك وربما أخذه منهم ، فكتب إلى عمرو بن العاص «إنه قد فشت لك فاشية من متاع ورقيق وآنية وحيوان ، لم تكن حين وليت مصر »

فكتب إليه عمرو : إن أرضنا أرض مزدرع ومتجر ، ونحن نصيب فضلاً عما نحتاج إليه لنفقتنا . فكتب إليه عمر : إني قد خبرت من عمال السوء ما كفى ، وكتابك إلى كتاب من أقلقه الأخذ بالحق ، وقد سؤت بك ظناً ، وقد وجهت إليك محمد بن مسلمة ليقاسمك مالك ، فأطلعه وطلعه وأخرج إليه ما يطالبك ، وأعفه من الغلظة عليك ، فإنه برّح الخلفاء . فقاسمه عمرو ماله . اهـ .

خضع عمرو لما أمره به أمير المؤمنين وقاسمه ابن مسلمة ماله ، وكفى نفسه مؤونة الغلظة (وأعفه من الغلظة عليك) وهو كما لا يخفى من أشرف العرب ومن أهل الشرف والرياسة ومن ذوى الرأي فيهم . ولكن أبي عليه عمر أن يترّفه في معيشته كما كان أبوه العاص من قبله ، وقد كان يلبس الخبز بكفاف الديباج ، لهذا لا نعجب إذا أثرت هذه الكلمات في نفس عمرو تأثيراً كبيراً حتى قال : «إن زماناً عاملنا فيه ابن حنتمة هذه المعاملة لزمان سوء ، لقد كان العاص يلبس الخبز بكفاف الديباج» فقال محمد : «مه لولا زمان ابن حنتمة هذا الذى تكرهه ألفيت معتقلاً عزراً بفناء بيتك يسرك غزرها ويسوءك بكاؤها» قال عمرو : «أنشدك الله أن لا تخبر عمر بقولى فأن المجالس بالأمانة» فقال محمد : «لا أذ كر شيئاً مما جرى

بيننا وعمر حتى» .

وهذه القصة أوضح الأشياء دلالة على ما استحدث عمر في الأسلام من الأعمال ، فهي تدلنا على أنه استحدث مراقبة العمال ومحاسبتهم محاسبة فعلية وندب من يقوم بذلك من ثقاته . ومثل هذا كان معروفاً قبل الأسلام عند الرومان .

هكذا عامل عمر عمرو بن العاص ؛ ذلك السياسى المحنك والقائد العظيم الذى دوّخ الروم في فلسطين ومصر ، إلا أن عمر لم يعبأ بكل هذه المزايا بل أجرى الحق مجراه خوفاً أن يقتدى به بقية العمال وتسوء الحالة والأسلام في غضاضته .

(ى) استقرار أمر مصر لعمرو :

ولى عمر بن الخطاب عمرو بن العاص على مصر ولاية مطلقة وبقى والياً عليها ، قائماً بالعدل محبوباً عند القبط وجنود العرب ، ضابطاً لبلاده أحسن ضبط ، وقد قام في هذه المدة بكثير من الإصلاحات العظيمة ، فنظّم الإدارة ونصّب القضاة ورسم الخطة الأولى في جباية الخراج ، وعنى عناية كبرى بالأعمال الخاصة بهندسة الرى ، من كرى الخلجان وبناء مقاييس النيل وإنشاء الأحواض والقناطر والجسور ، فأقام لذلك العمال لا يفترون عن العمل صيفاً وشتاء .

هذه هي السياسة التى سار عليها عمرو في مصر على نهج العدل وعدم تحميل المصريين ما لا يطيقون ، وبهذه الطريقة أتيح له تنفيذ أوامره على أهون سبيل ، لأنه كان دائماً يضع مصلحة المصريين نصب عينيه ، ولم يأل

جهداً في ترفيههم وجلب الخير لهم واكتساب محبتهم ، فدانوا له بالطاعة وأحبوا ولايته ، فلم ير إخراج القبط فلا يطيعوه عملاً بالمثل القائل « إذا أردت أن لا تطاع فربما لا استطاع » . وكان عمرو يأخذ من الخراج مما لا بد منه لأصلاح البلاد ، ويأخذ لنفسه عطاءه ، ويعطى الأعطيات لأربابها ، وما يبق يرسله إلى الخليفة

استقر لعمرو بن العاص أمر ملك مصر فساس البلاد هذه السياسة الرشيدة ، فلم يعامل القبط بمثل ما عاملهم به الروم من قبل ، فلما فتح مصر لم يتعرض لهم في شئ البتة ، فأطلق لهم حرية معتقدهم وترك لهم أرضهم وأخذ على عاتقه حمايتهم ، وأمنهم على أنفسهم ونسائهم وعيالهم ، فشعروا براحة كبيرة لم يعهدوها منذ زمن طويل - ومما يدل على حسن سياسة عمرو ، إقراره قبط مصر على جباية خراج بلادهم ، واهتمامه بالنظر في أمورهم والسهر على ترفيههم ، يؤيد ذلك أنه بعد استيلائه على حصن بابلون ، كتب بيده عهداً للقبط بحماية كنيساتهم ولعن كل من يجراً من المسلمين على إخراج القبط منها .

ومما يدل أيضاً على حسن سياسة عمرو أنه لم يفرق بين الملكية واليعاقبة من المصريين ، فلم يتحيز لأحد الطرفين ، فسكانا متساوين أمام القانون ، وأظلهما بعدله وحماهما بحسن تديره ، ولم يتبع السياسة القائلة « فرق تسد » تلك السياسة العقيمة التي ظهر للملأ أنها تؤدي إلى أواخر العواقب . لهذا لا ينكر علينا أحد إذا قلنا إن عمرو بن العاص قد نال من السلطان فوق ما كان يتمناه ، فدانت له البلاد قاصيها ودانيها وأجمعت على محبته حتى كان

يقال : « ولاية مصر جامعة تعدل الخلافة »

(ك) اعنزال عمرو وولايته مصر :

لم تتفق كلمة المؤرخين في ثبوت السنة التي اعتزل فيها عمرو بن العاص ولاية مصر ، وتولاها عبد الله بن سعد بن أبي سرح ، فقال بعضهم إن عزله كان قبل استيلاء (منويل) على الاسكندرية ، ثم استدعاه عثمان لما كتب له أهل مصر يسألونه أن يقرّ عمرًا حتى يفرغ من قتال الروم ، لأن له معرفة بالحرب وهيبة في نفس العدو فأجابهم إلى ذلك ، ومن هؤلاء المؤرخين البلاذري (ص ٢٣١) والمقرئزي (ج ١ ص ١٦٧ م ج ١ ص ٢٩٠) والسيوطي (ج ١ ص ٦٩) ، وقال ابن الأثير إن عزل عمرو بن العاص كان سنة ٢٦ هـ . وقال الطبري ، إنه اعتزل سنة ٢٧ هـ . أعني بعد استيلاء منويل على الاسكندرية .

ونحن نؤيد ما ذكره كل من الطبري وابن الأثير لأسباب منها :

أولاً - لأن عثمان لم يسرح عبد الله بن سعد بن أبي سرح لغزو أفريقية ، إلا سنة خمس وعشرين من الهجرة ، وهي السنة التي انتقض فيها الروم في الاسكندرية

ثانياً - ولأنه أقام على غزوه سنة وثلاثة أشهر ، إذ لا يعقل أن يعكث عبد الله أقل من هذا الزمن ، والروم في إمداد متصلة ، والمسلمون بعيدون عن بلادهم . فمن المعقول أن تكون عودة عبد الله بن سعد إلى مصر بعد أن نفيه عثمان خمس الخمس في السنة السادسة والعشرين .

ثالثاً - وقد روى الطبري أن عثمان بن عفان نزع عمرو بن العاص عن

خراج مصر واستعمل عليه عبد الله بن سعد فتباغيا ، فكتب عبد الله ابن سعد إلى عثمان يقول : ان عمرا كسر الخراج ؛ وكتب عمرو إن عبد الله كسر على حيلة الحرب ، فكتب عثمان الى عمرو أن ينصرف وولى عبد الله بن سعد الخراج .

وهذه النفرة التي كانت بين عمرو وعبد الله وشكاية كل منهما من صاحبه لا بد أن تتطلب زمناً حتى يفصل أمير المؤمنين في الأمر .

لهذا نرى أن اعتزال عمرو بن العاص ولاية مصر كان بعد انتقاض الروم في الاسكندرية ، وكان في أواخر سنة ٢٦هـ أو في أوائل سنة ٢٧هـ ، وهو الأرجح ، لأن عبد الله بن سعد لم يتول مصر إلا بعد غزو أفريقيا ، وإذا ثبت ذلك فلا يعقل أن يكون اعتزال عمرو في سنة ٢٥هـ أو قبلها . وقد قيل في سبب عزل عمرو بن العاص أن عثمان أراد أن يجعله على الحرب وعبد الله بن سعد على الخراج فأبى وقال « أنا إذا كمالك البقرة بقرنيها وآخر يحلبها »

وكانت سياسة عمر بن الخطاب تقضى بأن يكون الخراج والحكم في يد وال واحد ، وهذه السياسة موافقة :
أولاً - للسذاجة الأولى .

ثانياً - للنظام الجمهورى عند الرومانيين .

أما سياسة عثمان بن عفان فكانت تقضى :

أولاً - باختيار العمال من أقاربه ومن يذنبهم وبينه صلة .

ثانياً - الفصل بين الحرب والخراج ، لأجل أن يستطيع التدخل

في كل شيء، وتضييق سلطة العمال، وهي توافق سياسة الأمبراطورة.

أما عمرو بن العاص فكان :

أولاً - متعوداً سياسة عمر .

ثانياً - وكان يحرص على أن تكون سلطته عظيمة لأنه كان طموحاً،

فلم يكن بد من أن يقع الخلاف بينه وبين عثمان الذي كان لا يشك

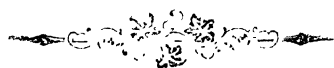
في خيانة عمرو، ولا يشك في قوته في الحرب، فأراد أن ينتفع بعمرو في

الحرب، ولكن عمرو لم يرض هذا، إما لأنه اعتدّها إهانة، وإما لأنه كان

يحرص على رئاسة الخراج .

هذا هو السبب الحقيقي في عزل عمرو عن مصر، أضف إلى هذا

ميل عثمان لنولية مصر لعبد الله بن سعد، لأنه كان أخاه من الرضاعة.



الكتاب الثالث

عمرو منذ اعتزل دلاية ، هجر الى انه مات

الباب الاول

اخبار عمرو مع عثمان

غضب عمرو غضباً شديداً وحقد على عثمان لعزله إياه ، وكان ذلك سبب العداوة والبغضاء بينهما ، ولما قدم عمرو بعد اعتزاله إلى المدينة، دخل على عثمان وعليه جبة يمانية محشوة قطناً فقال له عثمان : ما حشو جبتك ؟ قال عمرو : قد علمت أن حشوها عمرو . فقال عثمان : ولم أرد هذا إنما سألت أقطن هو أم غيره ؟

ومما يدل على شدة غضب عمرو لعزله وتولية عثمان رجلاً يعتبر نفسه أعظم كفاءة منه وأكثر تجربة ، أن عثمان بن عفان رضى الله عنه سأله لما قدم المدينة : كيف تركت عبد الله بن سعد ؟ قال عمرو : كما أحبيت . قال : وما ذاك ؟ قال عمرو : قوى في ذات نفسه ضعيف في ذات الله . فقال له عثمان : لقد أمرته أن يتبع أثرك . فقال عمرو : لقد كلفته شططاً . فهذا يبين شدة حنق عمرو وسخطه على عثمان وعلى واليه الجديد . لم يبق عمرو بالمدينة بل اعتزل بفلسطين في قصره المسمى « العجلان » وإنما مكث يرقب الأمور ، وكأنه كان لا يشك في أن الأمة سيكون بينها وبين

خليفته حدث ، فأشفق من الأقامة في المدينة حتى لا يناله من هذه الثورة التي كان ينبأ بها شر ، وما كان تردده بين المدينة وفلسطين إلا إستكشافاً لما سيقع . على أن عثمان لم تفته إصابه رأى عمرو فكان يستشيريه في مهام الأمور ، سيما حين سعرت نار الفتنة وتفاقم شرها ، وكان عثمان يميل إلى استشارة عمرو حين كانت الأمة تُمَخَّضُ بشر . فقال : ما ترى يا عمرو؟ قال : أرى أنك قد أنت لهم وتراخيت عنهم وزدتهم على ما كان يصنع عمر ، فأرى أن تلزم طريقة صاحبك ، فتشتد في موضع الشدة وتلين في موضع اللين ، وإن الشدة تنبغي لمن لا يألو الناس شراً ، واللين لمن لا يخلف الناس بالنصح ، وقد فرشتها جميعاً اللين .

وقد أقبل عثمان على عمرو بن العاص يوماً فقال : مارأيك ؟ (في الفتنة) قال : أرى أنك قد ركبت الناس بمثل بنى أمية ، فقلت وقالوا وزغت وزاغوا ، فاعتدل أو اعزل ، فأن أبيت فاعتزم عزماً وأمض قدماً . فقال له عثمان : مالك قبل فروك ، أهذا الجد منك ؟ فسكت عمرو حتى تفرق الناس ثم قال : لا والله يا أمير المؤمنين لأنت أكرم على من ذلك ، ولكني قد علمت أن بالباب قوماً قد علموا أنك جمعتنا لنشير عليك ، فأحييت أن يبلغهم قولي فأقود لك خيراً أو أدفع عنك شراً .

وفي رواية للطبري أيضاً قال لما عزل عثمان عمرو بن العاص جعل يطمئن عليه فأرسل عثمان إليه يوماً فخلاه فقال : يا ابن النابغة ما أكثر ما أقبل جُرُبان جبتك ، إنما عهدك بالعمل عاماً أول ، أنطمئن على وتأتيني بوجه وتذهب عني بوجه آخر ؟ فقال عمرو : إن كثيراً مما يقول الناس

وينقلون إلى ولايتهم باطل ، فاتق الله يا أمير المؤمنين في رعيتهك . فقال
عثمان : استعملتك على ظلمك وكثرة القالة فيك . فقال عمرو ، قد كنتُ
عاملاً لعمر بن الخطاب ففارقني وهو عني راض . فقال عثمان : لو آخذتُك بما
آخذك به عمر لاستقمت ، ولكنني لنتُ عليك فاجترأت ، أما والله لأنا
أعز منك نفراً في الجاهلية وقبل أن ألي هذا السلطان . فقال عمرو . دع
هذا فالحمد لله الذي أكرمنا بمحمد صلى الله عليه وسلم وهدانا به ، قد رأيت
العاص بن وائل ورأيتُ أباك عفان ، فوالله للعاص كان أشرف من
أييك . فقال عثمان : مالنا ولد كر الجاهلية ! نخرج عمرو من عنده وهو
محتقد عليه ، فلما كان حصر عثمان خرج من المدينة حتى انتهى إلى
قصره بفلسطين ، وبينما هو جالس في قصره ومعه ابنه محمد وعبد الله
وسلامة بن روح الجذامي ، إذ مرّ بهم راكب من المدينة فسأله عمرو
عن عثمان فقال : قد تركته محصوراً شديداً الحصار ، قال عمرو : أنا
عبد الله قد يضطر العير والمكواة في النار ، فلم يبرح مجلسه هذا حتى مرّ
به راكب آخر ، فناداه عمرو : ما فعل الرجل (عثمان) ؟ قال : قُتل . فقال
عمرو : أنا عبد الله إذا حككتُ قرحة أدميتها إن كنت لأحرض عليه
حتى أني لأحرض عليه الراعي في غنمه في رأس الجبل . فقال له سلامة
ابن روح : يا معشر قريش إنه كان بينكم وبين العرب باب وثيق فكسرتموه
فما حملكم على ذلك ؟ فقال عمرو : أردنا أن نخرج الحق من خاصرة الباطل
ليكون الناس في الحق شرعاً سواء . وكانت عند عمرو أخت عثمان لأمه

ففارقها حين عزله عثمان (١). اهـ

والذى يظهر لنا في شأن عمرو في فتنه عثمان أنه إنما نقم منه ما نقم الناس ، لا يثاره بنى أمية على غيرهم من جلة الصحابة ، ثم فضَّ يده لما بلغ الهياج أشده ولم تجد نصائحه هو والصحابة عثمان نفعاً ، فظلَّ كعظم القوم يشاهد تمثيل هذه الرواية المحزنة على بعد ، ظناً أن عثمان يخلع نفسه إذا اشتد عليه التضيق ، وعلى كل حال فلم يكن لعمرو في هذه الفتنة إلا ما كان لكثير من الصحابة الذين حضروا قتله ، وأنه دخل فيما دخل فيه الناس .

...

الباب الثانى

عمرو وسياسته مع علىٍّ ومعاوية

(١) لماذا انضم عمرو إلى معاوية ؟

ما كاد على بن أبى طالب كرم الله وجهه يتبوأ مراكز الخلافة حتى اختلفت كلمة المسلمين وصاروا أحزاباً : ففريق أصبح يطالب بدم عثمان ، وهو حزب الأمويين بالشام وعلى رأسهم معاوية بن أبى سفيان ، وفريق من الثأرين قتلة عثمان الذين اختاروا على بن أبى طالب ، يعيشون فى الأرض فساداً فيملئون القلوب خوفاً ورعباً ، وفريق أنصار السياسة الإسلامية القديمة الذى كان يتفق مع الأمويين ولكنه كان يريد أن يعود أمر الخلافة

إلى ما كان عليه أيام عمر ، وعلى رأسه طلحة والزبير وعائشة .

كان الزبير وطلحة قد بايعا علياً كارهين ، فنفضا بيعتهما وأرادا أن تنقض خلافة عليّ ، لأن أهل المدينة قد أقروها وعلى رؤوسهم سيوف الثائرين . وقد رأينا أن عمرو بن العاص لم يكن راضياً عن عثمان ولا عن حكمه ، وأن مقتل عثمان لم يغضبه ولم يسخطه وربما أرضاه ، فلم يكن بد إذاً من أن ينضم عمرو إلى عليّ أو إلى الزبير وطلحة (لا ينبغي التفكير في انضمامه إلى الذين اعتزلوا الحركة السياسية كسمعد بن أبي وقاص ، لأن الرجل كان رجل عمل ومطامع) ولكنه كان من المهارة السياسية بحيث لم يشك لحظة في أن أمر الزبير منحل ، ولكنه لم ينضم إلى هذا الفريق أو ذلك الحزب ، لأنه كان لا يرجو خيراً من دولة عليّ لأن علياً كان لا يريد إلا أن يحمل الناس على رأى نفسه مدلاً بنفسه في كل شئ ، غير معول على غيره في رأى أو علم أو عمل ، وأنه لا يرجو منه أن يسير بسيرة أبى بكر وعمر - تلك السيرة التي كان عمادها الشورى في كل أمر - وأن أمثال عمرو لا يمكن أن يعتمد عليهم في عمل أو يستعين بهم في سلطانه ، فهو يائس من خيره ، ولأن عمرأ كان قرشياً وكان ميل قریش إلى خلافة هاشمية قليلاً جداً ، ولأنه رأى أن القوة التي على رأسها عائشة وطلحة والزبير كانت من الضعف بحيث لا تقوى على أن تغلب عليّ بن أبى طالب على أمره أو تفوز بأرجاع الحال إلى ما كانت عليه في عهد أبى بكر ، وقد ظهر له بعد قليل أن هذا الحزب قد انهزم ، فقتل طلحة والزبير وأسرت عائشة .

وهنا غير عمرو بن العاص سياسته دفعة واحدة ، وأصبح في حزب عثمان ، لأنه كان كما لا يخفى من أشد الناس دهاء ، وكان لا يعمل عملاً إلا إذا تأكد من نجاحه ، يدلّك على ذلك أنه لم يسلم إلا بعد أن ظهر له ظهوراً بيناً أن محمداً صلى الله عليه وسلم سوف ينتصر ، وما كان ذهابه إلى الحبشة إلا ليرى ما يكون من أمر محمد وقريش . فأن كانت الغلبة لقريش كان على أولى أمره مع رسول الله ، ولم يكن قد خذل قريشاً بالقعود عن نصرتها ، ولكنه أسلم ودخل في الإسلام لما رأى أن أمر النبي عليه السلام ظاهر على قريش لا محالة : كذلك كان حاله في هذا الظرف ، فتبين له بثاقب رأيه وبعد نظره أن هذه الثورة لن تنتهي إلا بحدوث انقلاب في حالة الأمة العربية ، ولم يكن عمرو بالرجل الساكن الذي يلتزم الحيدة في مثل ذلك الظرف ، بل لابد من دخوله في هذه الاضطرابات وأن يكون له ضلع فيها ، عسى أن يناله من وراء ذلك ما كان يؤمل منذ زمن طويل لأنه كان طموحاً إلى العلا .

لانتظر عمرو ويرقب الأمور على بعد ، فرأى أن معاوية بن أبي سفيان لم يكن ليستكين لما يريد به على ولا يستخذي لما يتوقع أن يحقق به من مكروه ، وكان على ذكر من قديم الأحقاد بين البيتين ، ولم ينس معاوية أن علياً قاتل أخيه ومقارع أبيه في مواطن كثيرة أيام الجاهلية ، وهو قريب عثمان . فاستعان عمرًا وتعاقدا على النصيح والنصرة ، ومعلوم أن المصائب تؤلف بين المصابين والمطامع تؤلف بين الطامعين ، وكان ذلك ما يتمناه عمرو . فأتبع لهما الدهاء أن يطوّقا علياً ثم دم عثمان ، ليكون لهما بذلك

الحجة في مناوئته - فكان مقتل عثمان الذي اشتهر عمرو بالتأليب عليه مصدر سياسة عمرو والتزامه هذه الخطة : خطة المطالبة بدم عثمان .

ولكن الذي يعرف شدة دهاء عمرو ولا يعجب لالتزامه هذه السياسة ، لأن العمل مع معاوية أرجى للعافية وأحرى أن يلبسه ملابس العز ، وقد وجد من قتل عثمان مسوغاً لأن تروج دعوى معاوية ، فظاهره على أمره والرجلان (عمرو ومعاوية) لا بمتقدان في عليّ أنه يريد في خلافته العمل بما يوجب المثوبة عند الله تعالى ، وإنما يريد أن يحكم الأحقاد والميول ، وقد أعانهما عليّ على نفسه باستبطانه قتلة عثمان واتخاذهم أعواناً .

(ب) ربيعة بن ربيعة

كان معاوية بن أبي سفيان أعظم قرابة عثمان شأنًا ، وقد ولاه الشام عمرو وعثمان فنال رضاهما ، وسار سيرة مرضية ، فملك أفئدة الأهلين بحسن سياسته ، وأصبح جند الشام رهن إشارته يأترون بأمره وينتهون بنهيهِ . فلا عجب إذاً إذا أبى معاوية الأذعان للعزل أو الرضى بمبايعة عليّ وشدد في المطالبة بدم عثمان .

وكان معاوية رأساً لحزب بني أمية الذي كان يطالب بدم عثمان ، والذي كان يرمي في حقيقة الأمر منذ أيام عثمان إلى الاستئثار بالسلطان . ومع هذا فهذا الحزب لم يجهر بشيء من هذه الأطماع وإنما انتحل أعذاراً ظاهرة تسيع له أن يقف من عليّ موقف المحارب ، أضيف إلى هذا أن العداء بين بني هاشم وبني أمية قديم في الجاهلية ، وأن الاسلام زاد هذا

العداء ، فإن بنى حرب لم ينسوا ما كان من حمزة وما كان من عليّ ، نسجاً ابن بنى هاشم لم ينسوا ما كان من هند يوم أحد ، والعداء بين بنى هاشم وبين أبي سفيان معروف باقى الأثر . وهذه الأعداء التى انتحلها معاوية هى :
(١) أن معاوية كان يتهم علياً بشئ من أمر عثمان

(٢) ولأن علياً آوى قتلة عثمان

(٣) ولأنه كان بين الرجاءين نفور أدى إلى أن علياً رأى من أول واجباته عزل معاوية عن الشام — وليس ذلك من السهل على رجل اعتاد الأمانة والعزة .

وبعد انتصار عليّ بن أبي طالب فى يوم الجمل توجه إلى الكوفة ووجه جرير بن عبد الله البجلي إلى معاوية يدعوه إلى بيعته ، وزوده بكتاب يعلمه فيه اجتماع المهاجرين والانصار على بيعته ونكت طلحة والزبير وما كان من أمرهما ويدعوه إلى الدخول فى طاعته . فطأله معاوية واستنظره وكتب إلى عمرو بن العاص : أما بعد فإنه كان من أمر على وطاعة والزبير ما قد بلغك ، فقد قدم على جرير بن عبد الله فى بيعة علىّ وحبست نفسى عليك حتى تأتىنى فاقدم على بركة الله تعالى . (اليعقوبى ج ١ ص ٣١٥)

فلما وصل الكتاب إلى عمرو دعا ابنه عبد الله ومحمداً ، واستشارهما فى هذا الأمر ، فقال له عبد الله : أيها الشيخ ، إن رسول الله قبض وهو عنك راض ، ومات أبو بكر وعمر وهما عنك راضيان ، فلا تفسد دينك بدنيا يسيرة تصيبها مع معاوية ، وقال له محمد : بادر إلى هذا الأمر فكن فيه رأساً قبل أن تكون ذنباً . قالوا : فأنشأ عمرو يقول :

تطاول ليلى للنجوم الطوارق وخوف التي تجلوجوه العواتق
فأن ابن هند سألني أن أزوره وتلك التي فيها بنات البوائق
وقد قال عبد الله قولاً تعلقت به النفس إن لم يعتقلني عوائقي
وخالفه فيه أخوه محمد وإني لصلب العود عند الحقائق
ولما قدم عمرو على معاوية أشار عليه أن يلزم علياً دم عثمان وأن يحاربه بجند الشام إذا أبي (١)

قال اليعقوبي : قال معاوية : مدّ يدك فبايعني . فقال عمرو : لا لعمر الله لا أعطيك ديني حتى آخذ من دنياك . فقال له معاوية : لك مصر طعمة ، وطلب من عمرو أن يبيت عنده ليلته مخافة أن يفسد عليه الناس ففعل ، وقال عمرو :

معاوي لا أعطيك ديني ولم أنل به منك دنياً فانظرن كيف تصنع
فإن تمنى مصرأ فأرجح بصفقة أخذت بها شيخاً يضر وينفع
ويظهر أن هذه الأبيات والتي قبلها ، وما يقال من أمثال هذا الكلام نثراً ، مصنوع من خصوم عمرو ومعاوية ، ليظهروها بمظهر المكبر للحق الراغب في الدنيا ومتاعها المستسهل للجور العامل على الدفع في صدر الحق نظير متاع قليل .

(١) هذا ما ذكره الطبري ، وهو يخالف ما ذكره اليعقوبي من أن عمرو أشار على معاوية بأن لا يذكر عثمان لأن معاوية خذله ، وأما عمرو فقد تركه عياناً وذهب إلى فلسطين

فكتب له معاوية بمصر شرطاً ، وختم الشرط بعد أن بايعه عمرو وتعهداً على الوفاء (اليعقوبى ج ١ ص ٢١٦) .

رجع جرير إلى علي بن أبي طالب كرم الله وجهه ، وأخبره بحال معاوية وأنه قد أصر على أن يقاتله بجند الشام الذين هالهم قتل عثمان ، فبكوا واستبكوا حين رأوا قيصره الذى قتل فيه مخضباً بدمه وإليه إصبع زوجته نائلة وكانت معلقة فيه . وضع معاوية الثوب على المنبر وكتب بالخبر إلى الأجناد فآلوا على أنفسهم أن لا يهدأ بالهم حتى يأخذوا بثأر عثمان ولو فنيت أرواحهم على بكرة أبيهم ، وأجمعوا على قتال علي اعتقاداً منهم أنه هو الذى قتل عثمان وآوى قتلته .

أما مبايعة عمرو لمعاوية حين قدم عليه فشئ لا يمكن تصديقه ، لأنه كيف يعقل أن يبايعه بالخلافة في مبدأ الأمر وجو السياسة لا يزال مكفهرًا ، وعليّ قد أحرز النصر المبين في واقعة الجمل ، وعزم على الزحف على الشام لانتزاعها من معاوية ، ولم تخف على عمرو أحقية علي بالخلافة بعد عثمان وشجاعته في الطعن والنزال . فهل يتوهم متوهم أن السذاجة قد بلغت بعمرو أن يكون أول من يبايع معاوية ، وحالة الأمة السياسية في ذلك الطرف المقلق لم تكن لتخفى عليه ؟ والظاهر أن هذه المبايعة التي زعمها المؤرخون ليست إلا تحالفًا واتحادًا على التعاون ، فإن معاوية كان يهيمه كثيرًا أن تكون مبايعة عمرو له علانية أمام وجوه أهل الشام وغيرهم ممن ينتصرون له ليكون لهم قدوة في البيعة ، وهذا ما لم يقله أحد من المؤرخين فيما وقفنا عليه من كتب التاريخ ، فلم يذكر في أى مكان وقعت بيعة عمرو

لمعاوية، وأمام أي ملا من الناس، بل تركوا هذه النقطة مبهمة غامضة مع أهميتها.

بلغ علينا أن معاوية قد استعد للقتال ومعه أهل الشام، فسار من الكوفة إلى صفين في تسعين ألفاً لحس بقين من شوال سنة ٣٦ هـ، وسار معاوية من الشام في خمسة وثمانين ألفاً على ما رواه المسعودي، وعسكر في موضع سهل على الفرات، وبات على وجيشه في البر عطاشاً قد حيل بينهم وبين الورود إلى الماء، فقال عمرو بن العاص لمعاوية: إن علينا لا يموت عطشاً هو وتسمعون ألفاً وسيوفهم على عواتقهم فدعهم يشربون ونشرب. فقال معاوية: لا والله أويموتوا عطشاً كما مات عثمان، فقال أحد جند علي:

أيمنعنا القوم ماء الفرات وفينا الرماح وفينا الجحف
وفينا على له صولة إذا خوفوه الردى لم يخف
ونحن غداة لقينا الزبير وطلحة خضنا غار التلف
فما بالنا أمس أسد العرين وما بالنا اليوم شاة النجف
فندب إليهم على قوماً فأجلوا رجال معاوية عن الماء، فأرسل إليه معاوية يستأذنه في وروده فأذن لهم! وبعد يومين من نزول علي على هذا الموضع بمث إلى معاوية يدعوهم إلى اتحاد الكلمة والدخول في جماعة المسلمين وطالت الرسالة بينهما فاتفقا على المودعة إلى آخر المحرم سنة ٣٧ هـ، ولم يتفقا في غضون هذه المدة على شيء، ودارت رحى الحرب بينهما

من جديد (١)

ومن اطلع على ما كان من أمر سفراء عليّ واشتدادهم على معاوية ، وكذا اشتداد سفراء معاوية على عليّ ، لا يسعه إلا أن يحكم بأن عدم نجاح هؤلاء المندوبين كان راجعاً لقلة خبرتهم بالسياسة وشدة ميلهم إلى الحرب مما أفسد القلوب وزاد الفرقة . والذي يظهر من رواية الطبري أن رسل عليّ إلى معاوية كان فيهم غطرسة ، فكانت كلمات الشر والتفريق والتغالي تبدر من ألسنتهم ، ولم يكونوا ليصلحوا رسل صاحب ، فكان معاوية يسيء الرد عليهم - والظاهر أن القوم قد ثملوا بالانتصار على أهل الجمل بالبصرة فظنوا أن ينالوا من جيش معاوية ما نالوا من جيش عائشة .

ولما انقضى المحرم أعادوا القتال سيرته الأولى ، فلما كان اليوم الأول من صفر سنة ٣٧ للهجرة ، ابتدأت الحرب من غير أن يقف كل الجمعين وجهاً لوجه ، بل كان كل يوم يخرج قائد من هنا وقائد من هنا حتى إذا مضت سبعة أيام قال عليّ لجنده : حتى متى لا نناهض هؤلاء القوم بجمعنا ؟ فباتوا يصلحون أمرهم ، وفي ذلك يقول الشاعر .

أصبحت الأمة في أمر عجب والأمر بمجموع غداً لمن غلب
فقلتُ قولاً صادقاً غير كذب إن غداً تهلك أعلام العرب
واشتعلت نار الحرب بين الفريقين أياماً متوالية حتى كان اليوم الذي

(١) الامامة والسياسة لابن قتيبة (ج ١ ص ١٧٢) ومروج الذهب

للمعمرودي (ج ٢ ص ١٤ - ١٥) بتصرف

قتل فيه عمار بن ياسر فاشتدت الحرب بعد مقتله وزحف أصحاب عليّ، وظهروا على جند معاوية حتى ألصقوهم بعسكره، وأشرف عليّ على الفتح فدعا معاوية بفرسه ونادى أهل الشام: الله الله في الحرمات والنساء والبنات، وقال معاوية «هلمّ محبّاتك يا ابن العاص فقد هلكنا» غير أن عمرو بن العاص عمد بما أوتيّه من فنون الدهاء إلى تغيير الحال رأساً على عقب وتحويل النصر إلى جانب معاوية، وإن ذكرى موقعة صفين لا تزال ترجف لاسمه هيبة، فبعد أن كادت الدائرة تدور عليه لم يثن ذلك من عزيمته عمرو، وسرعان ما ابتكر من ضروب الحيل ما أوقع بجند عليّ فانقسموا على أنفسهم وغلبوا على أمرهم حيث قال عمرو «أيها الناس من كان معه مصحف فليرفعه على رحمه» فرفعوا المصاحف وقال قائلهم «هذا كتاب الله عز وجل بيننا وبينكم» فلما رأى أهل العراق المصاحف مرفوعة قالوا «نجيب إلى كتاب الله» وإنما رمى عمرو بحيلته هذه التي هدت عزائم الجحافل وبددت آمال عليّ على ما نرى إلى أمرين:

الأول: أن يكسر من حدة جند عليّ وحميتهم، وكانوا قاب قوسين أو أدنى من الانتصار.

الثاني: أن يفرق بينهم ويفتّ في عضدهم فيكفوا عن قتالهم. رغب أهل العراق في المهادنة فنصح لهم عليّ أن لا يفتروا بقول أصحاب معاوية لأنه ليس إلا خديعة، فأبوا وطلبوا منه أن يبعث إلى الأشر ليرك القتال، فأرسل إليه فقال الاشر للرسول «ليس هذه الساعة التي ينبغي أن تزيلي فيها عن موضعي، قد رجوت أن يفتح لي فيها

فلا تعجاني « فرجع الرسول بالخبر فما انتهى إليه حتى ارتفع الرهيج وعلت الأصوات من قبل الأشر فقال له القوم « والله ما نراك إلا أمرته أن يقاتل إبعث إليه فليأتك وإلا والله اعتزلناك »

فقال عليّ للرسول « وبحك قل للأشر أن يقبل فإن الفتنة قد وقعت » فلم يسعه إلا الحجى وترك ساحة الحرب . ثم أرسل عليّ الأشت بن قيس ليسأل معاوية عما يريد فقال له معاوية « نرجع نحن وأنتم إلى ما أمر الله في كتابه ، تبعثون منكم رجلاً ترضونه ونبعث منا رجلاً ثم نأخذ عليهما أن يعملأ بما في كتاب الله » ثم رجع الأشت إلى عليّ فأخبره فقال الناس رضينا وقبلنا .

فاختار أهل الشام عمرو بن العاص ، وقال أهل العراق : قد رضينا بأباموسى الأشرى . فقال عليّ « قد عصيتموني في أول الأمر فلا تعصوني الآن » وبين لهم تخوفه من أبي موسى لأنه كان يخذل الناس عنه ، فأبو إلا إياه ، فاضطر للسير على ما رأوا وهو مكره (١) . وكان من نتائج هذه السياسة ما سنفضله .

(ج) عمرو بن العاص

(١) عفر التحكيم :

اجتمع عمرو بن العاص وأبو موسى الأشرى بدومة الجندل حيث كتبأ عقد التحكيم في شهر صفر سنة ٣٧ هـ . وهذه صورة الكتاب منقولة

(١) انظر اليعقوبى (حرا ص ٢١٨ - ٢١٩) م والمسدودى (ج ٢ ص ٢٠

المى ٢٢) م والامامة والسياسة لابن قتيبة (ج ١ ص ٢٨٧)

عن الطبري (ج ١ ص ٣٣ - ٢٤)

بسم الله الرحمن الرحيم . هذا ما تقاضى عليه علي بن أبي طالب ومعاوية ابن أبي سفيان ، قاضى علي على أهل الكوفة ومن معهم من شيعتهم من المؤمنين والمسلمين ، وقاضى معاوية على أهل الشام ومن معهم من المؤمنين والمسلمين ، إنا نزل عند حكم الله عز وجل وكتابه ، ولا يجمع بيننا غيره ، وإن كتاب الله عز وجل بيننا من فاتحته إلى خاتمته نحى ما أحيا ونعت ما أمات ، فما وجد الحكمان في كتاب الله عز وجل ، وهما أبو موسى الأشعري عبد الله بن قيس ، وعمرو بن العاص القرشي عملا به ، ولم يجدوا في كتاب الله عز وجل فالسنة الجامعة غير المفرقة : وأخذ الحكمان من علي ومعاوية ومن الجندين من العهود والمواثيق والثقة من الناس أنهما آمان على أنفسهما وأهلهما والامة لهما أنصار على الذى يتقاضيان عليه . وعلى المؤمنين والمسلمين من الطائفتين كاتبيهما عهد الله وميثاقه أنا على ما فى هذه الصحيفة ، وأن قد وجبت قضيتهما على المؤمنين ، فأن الأمن والاستقامة ووضع السلاح بينهم أينما ساروا على أنفسهم وأهلهم وأموالهم وشاهدكم وغابهم . وعلى عبد الله بن قيس وعمرو بن العاص عهد الله وميثاقه أن يحكما بين هذه الامة ولا يردّاها فى حرب ولا فرقة حتى يعصيا ، وأجل القضاء إلى رمضان ، وإن أحبا أن يؤخرا ذلك أخره على تراض منهما ، وإن توفي أحد الحكمين فأن أمير الشيعة يختار مكانه ، ولا يألوا من أهل المعدلة والقسط ، وأن مكان قضيتهما الذى يتقاضيان فيه مكان عدل بين أهل الكوفة وأهل الشام ، وإن رضيا وأحبا فلا يحضرهما فيه إلا من أرادا ، ويأخذ الحكمان من أرادا

من الشهود ، ثم يكتبان شهادتهما على ما في هذه الصحيفة ، و هم أنصار على من ترك ما في هذه الصحيفة وأراد فيه إلحاداً وظلماً ، اللهم إنا نستنصرك على من ترك ما في هذه الصحيفة اهـ

ويلى ذلك أسماء الشهود من الطرفين ١٥ صفر سنة ٣٧ هـ

اجتماع الحكمين (عمرو وأبو موسى) ونائحي الحكمين

لم ينته بعد الدور الذى لعبه عمرو بن العاص فى موقعة صفين ، فلم يكن بد من تنفيذ الخطة التى رسمها له دهاؤه المعروف بعزل على بن أبى طالب وتثبيت معاوية بن أبى سفيان . وليس من شك فى أنه قضى وقته فى ابتكار ضروب الحيل للإيقاع بأبى موسى والوصول الى غايته ، حتى إذا ما حان اجتماع الحكمين بعث على بن أبى طالب أربعمئة رجل عليهم شريح بن هانيء الحارثي وعبد الله بن العباس يصلى بهم ويلى أمورهم ، وأبو موسى الأشعري معهم ، وبعث معاوية بن أبى سفيان عمرو بن العاص فى أربعمئة من أهل الشام فتوافوا بدومة الجندل . وقد ذكر المسعودي انه لما دنا وفد على من موضع الاجتماع قال عبد الله بن العباس لأبى موسى « إن علينا لم يرض بك حكماً لفضل غيرك والمتقدمون عليك كثيرون وإن الناس أبوا غيرك وإنى لأظن ذلك لشر يراى بهم ، وقد ضم داهية العرب معك ، إن نسيت فلا تنس أن علينا بإيعه الذين بايعوا أبا بكر وعمر وعثمان ، وليس فيه خصلة تباعده من الخلافة ؛ وليس فى معاوية خصلة تقربه من الخلافة » ووصى معاوية عمرأ فقال « يا أبا عبد الله إن أهل العراق قد اكرهوا علينا أبى موسى وأنا وأهل الشام راضون بك ،

وقد ضُم إليك رجل طويل اللسان قصير الرأى ، فأخذ الجُد ولا تُلَقَّه برأيك كله « ووافى عمرًا سعد بن أبي وقاص وعبد الله بن عمر والمغيرة بن شعبة وغيرهم من جلة الصحابة الذين تخلفوا عن مبايعة على ولم يغمسوا أيديهم في الفتنة .

وإنا نقف مما ذكره المسعودى على أربعة أمور :

(١) إن عليًّا أكرهه على اختيار أبي موسى فلم يثق به لأنه فارقه وخذل الناس عنه وفعل أشياء سنذكرها في محلها ، أما معاوية وأهل الشام فكانوا راضين بعمره

(٢) لم يكن أبو موسى بالرجل الذى يقف أمام داهية العرب (عمره) هذا الموقف الذى يحتاج الى الحنكة فى السياسة وابتكار ضروب المكر والدهاء أكثر مما يحتاج إلى استقصاء مسائل الدين

(٣) انه قد تخلف عن مبايعة على كثيرون من جلة الصحابة ، من أمثال عبد الله بن عمر وسعد بن أبي وقاص والمغيرة بن شعبة داهية السياسة ، وأمثال هؤلاء الرجال لا يستهان بهم

(٤) ان ما قاله عبد الله بن العباس لأبى موسى لم يكن من شأنه أن يرضيه ولا أن يبعثه على الأخلاص والشدة فى نصر على

اجتمع الحكماء فى شهر رمضان سنة ٣٧ هـ ، وفى هذا اليوم المشهود تجلى دها، عمرو بأجلى مظاهره ، وظهرت للملأ مقدره هذا الرجل السياسى بما أوتيته من حنق وذكاء ، يؤيد ذلك ما ذكره مما دار بينه وبين أبى موسى من أطراف الحديث ، وكيف استدرجه حتى وافقه أبو موسى على

خلع على ، وكيف أثبت موكله معاوية بن أبي سفيان . قال المسعودي في «مروج الذهب» ، قال عمرو : يا أبا موسى رأيتُ أول ما تقضى به من الحق أن تقضى لأهل الوفاء بوفائهم وعلى أهل النذر بفدركم (ومن هنا نعلم لمن يريد أن يقضى عمرو) ، فحمد الله أبو موسى وأثنى عليه وذكر الحدث الذي حلّ بالأسلام والخلاف الواقع بأهله ثم قال : يا عمرو هلم إلى أمر يجمع الله فيه الألفة ويلم الشعث ويصلح ذات البين ، فجزاه عمرو خيراً وقال : إن الكلام أولاً وآخرأ ، ومتى تنازعنا الكلام خطباً لم نبلغ آخره حتى ننسى أوله ، فاجعل ما كان من كلام تتصادر عليه في كتاب يصير إليه أمرنا . فقال أبو موسى : فاكتب . فدعا عمرو بصحيفة وكتب ، وكان الكاتب غلاماً لعمرو . فتقدم إليه ليبدأ به أولاً دون أبي موسى لما أراد من المكر به ثم قال له بحضرة الجماعة : أكتب فأنتك شاهد علينا ، ولا تكتب شيئاً يأمر بك به أحدنا حتى يستأمر الآخر فيه ، فإذا أمرك فاكتب ، وإذا نهاك فانته حتى يجتمع رأينا . أكتب :

بسم الله الرحمن الرحيم . هذا ما تفاضى عليه عبد الله بن قيس وعمرو ابن العاص ، تفاضيا على أنهما يشهدان أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمداً عبده ورسوله ، أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون (ثم قال عمرو) نشهد أن أبا بكر خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، عمل بكتاب الله وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى قبضه الله إليه وقد أدى الحق الذي عليه (قال أبو موسى « أكتب ») ثم قال في عمر مثل ذلك (ثم قال عمرو « أكتب ») . وأن عثمان ولي هذا الأمر بعد

عمر على إجماع من المسلمين وشوري من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ورضى منهم وأنه كان مؤمناً (فقال أبو موسى « ليس هذا والله مما قعدنا له ») . قال عمرو : والله لا بد من أن يكون مؤمناً أو كافراً . قال أبو موسى : أكتب . قال عمرو : فظالماً قُتل أو مظلوماً ؟ قال أبو موسى : بل قتل مظلوماً . قال عمرو : أفليس قد جعل الله لولى المظلوم سلطاناً يطالب بدمه ؟ قال أبو موسى : نعم . قال عمرو : فهل تعلم لعثمان ولياً أولى من معاوية ؟ قال أبو موسى : لا . قال عمرو : أفليس لمعاوية أن يطالب قاتله حيثما كان حتى يقتله أو يعجز عنه ؟ قال أبو موسى : بلى . فقال عمرو للكاتب : أكتب . وأمره أبو موسى فكتب . قال عمرو : فأنا نقيم البينة على أن علياً قتل عثمان . قال أبو موسى : هذا أمر حدث في الإسلام وإنما اجتمعنا لله فهل إلى أمر يصلح الله به أمة محمد قال عمرو . وما هو ؟ قال أبو موسى : قد علمت أن أهل العراق لا يحبون معاوية أبداً وأن أهل الشام لا يحبون علياً أبداً ، فهل نخلعهما جميعاً ونستخلف عبد الله بن عمر ؟ فعمد عمرو إلى كل ما قاله أبو موسى فصوّبه وعدّد له جماعة وأبو موسى يأبى ذلك إلا ابن عمر ، فأخذ عمرو الصحيفة وطواها بعد أن ختمها جميعاً . اهـ

ويظهر للمتأمل فيما كتب في هذه الصحيفة التي وافق أبو موسى على كل ما شملته وإقراره بأن عثمان قتل مظلوماً ، وأن لمعاوية الحق في أن يطالب بدمه المسفوك ، وأن علياً قتله بدليل إوائه قتلته (ولو أن إيواء لهم ليس دليلاً قطعياً بأنه هو قاتله ، ولكن إلى أبعد من هذا ذهب أعداؤه) بحيث أن من أراد أن يبدي رأيه فيما يقف عليه مما دون هذه الصحيفة بحسب

ما نرى ، يكون ارتيابه في عليٍّ أكثر منه في معاوية ، وما ذلك إلا من جراء تفوق عمرو على نظيره في ذلك الاجتماع التاريخي الهام تفوقاً جعله يقرّ بكل ما كان يرمى إليه عمرو ، حتى تمكن هذا من تنفيذ غرضه والوصول إلى غايته ، وهي خلع عليّ بن أبي طالب وتثبيت معاوية بن أبي سفيان . ولا يفوتنا أن عمرًا انما أراد أن يقدم أبا موسى عليه في الكلام ليكون الخلع من جانبه أولاً ، ثم يكون لعمرو الخيار في أن يخلعهما معاً أو يخلع عليًا ويثبت معاوية كما سيأتي :

قال الطبري : قال عمرو : (بعد أن عدّدا أسماء كثيرين من الصحابة لتولية الخلافة وأبي الفريقان) : ما رأيك ؟ قال أبو موسى : رأيي أن نخلع هذين الرجلين ونجعل الأمر شورى بين المسامين فيختارون لأنفسهم من أحبوا . فقال له عمرو : إن الرأي ما رأيتَ وقال : يا أبا موسى أعلمهم بأن رأينا قد اجتمع واتفق . فتكلم أبو موسى : إن رأيي ورأي عمرو قد اتفق على أمر نرجوا أن يصلح الله عز وجل به أمر هذه الأمة . فقال عمرو : صدق ، تقدم يا أبا موسى فتكلم . فتقدم أبو موسى ثم قال : أيها الناس ، إنا قد نظرنا في أمر هذه الأمة فلم نر أصلح لأمرها ولم شعها من أمر قد أجمع رأيي ورأيه عليه ، وهو أن نخلع عليًا ومعاوية فتستقبل هذه الأمة هذا الأمر فيولوا منهم من أحبوا عليهم ، وإني قد دخلت عليًا ومعاوية ، فاستقبلوا أمركم وولوا عليكم من رأيتموه لهذا الأمر أهلاً . ثم أقبل عمرو بن العاص فقام مقامه فحمد الله وأثنى عليه وقال : إن هذا قد قال ما سمعتم وخلع صاحبه وأنا أخلع صاحبه كما خلعه وأثبت صاحبي معاوية فإنه ولي عثمان بن عفان

رضى الله عنه والطلاب بدمه وأحق الناس بمقامه ، فتنابزاوركب أبو موسى راحلته ولحق بمكة ثم انصرف أهل الشام الى معاوية وسلموا عليه بالخلافة . (١)

ونحن نشك في هذا ونيل الى ما قاله المسمودي وهو (ج ١ ص ٢٧) انه لم يكن بين الحكمين غير ما كتب في الصحيفة ، وقرار أبي موسى بأن عثمان قتل مظلوماً وغير ذلك ، وأنهما لم يخطبا وإنما كتباصحيفة فيها خلع على معاوية ، وأن يولي المسلمون من أحبوا .

وهنا تظهر قيمة عمرو والسياسة فإنه لم يكن يرمى مباشرة الى استخلاف ومعاوية ، لأنه كان يعلم أن هذا أمر لا ينال الا بالسيف وإنما كان يرمى : أولاً : إلى أن يكسب له من الوقت ما يمكنه من جمع جيشه وتقويته ولمّ شعنه ، وكان يعلم أن جيش عليّ متخاذل ، وقد وفق في هذا كله فتخاذل جيش عليّ . وليس أدل على ذلك من خروج الخوارج ومن عجز عليّ بعد انقضاء الهدنة عن تسريح جيش لقتال معاوية .

ثانياً : وكان يرمي عمرو الى أن يسوّى بين عليّ ومعاوية بأن يجرد علياً من صفة الخلافة التي كان يدعيها ، وقد وصل الى ذلك باتفاقه مع أبي موسى على خلع الرجلين وجعل الأمر شورى بين المسلمين . ولم يكن

(١) روى الطبري أن عبد الله بن العباس قال لابي موسى حين أراد عمرو أن يتقدمه أبو موسى : ويحك إني والله لا ظن عمرأ قد خدعك إن كنتما قد اتفقتما على أمر فقدمه فليتكلم بذلك الأمر قبلك ثم تتكلم انت بعده فأن عمرأ رجل غادر ولا آمن أن يكون قد أعطاك الرضى فيما بينك وبينه فأذا قتت في الناس خالفك ،

غمرو يشك في أن علياً لن يقبل هذا الحكم وفي أن أهل العراق لن يقبلوه أيضاً ، ولكنه كان يشك في أنه سيكسب طائفة القراء والمتورعين ، وربما كسب الصحابة الذين اعتزلوه ، وليس هذا بالشئ القليل .

وعلى كل حال فاستخلاف معاوية بن أبي سفيان توقف بلا ريب على ما كان بين عمرو وأبي موسى من البون الشاسع في المقدرة السياسية ودرجة إخلاص كل منهما ، وما أوتيهم عمرو من المكر والدهاء والمكيدة التي اشتهر بها لدى العرب كافة .

أما من حيث إخلاص كل من الرجلين وتفانيهما في نصرة صاحبيهما فعمرو بن العاص قد اختاره معاوية لاعتقاده بمقدرته وحكته في تذليل أمثال هذه الصعوبة ، ورضى به أهل الشام عن طيبة خاطر ، وأكره عليّ على اختيار أبي موسى ، ولم يكن ليرضى به حكماً لأسباب منها :

أولاً : لأنه كان يعلم علم اليقين أن مثل أبي موسى لا يقوى على مناظرة داهية العرب وأنه مغلوب على أمره لا محالة ، ذلك لأن أبا موسى رجل ديني لم يذق للسياسة طعماً ، وهذه المسألة فضلاً عن كونها دينية بحتة إلا أنها تحتاج إلى الحنكة والدراية بالأمر السياسي أكثر مما تحتاج إلى الألبام والتعمق في أصول الدين ، فكانت النتيجة خذلانه وتفوق عمرو عليه (١)

(١) وفي ذلك يقول عبد الله بن عباس :

أبا موسى بليت وكنت شيخاً قريب الغفو مخزون اللسان
وما عمرو صفاتك يا ابن قيس فيا لله من شيخ يماني
فأمسيت العشية ذا اعتذار ضعيف الركن منكوب العنان
تعض الكف من ندم وماذا يرد عليك عضك للبنان

ثانياً : كذلك لم يكن علىّ ليرضى بأبي موسى حكماً لأنه ليس بثقة ، فقد فارقه وخذل الناس عنه حين جاءه أهل الكوفة يستشيرونه في الخروج مع علىّ فقال لهم : أما سبيل الآخرة فإن تقيموا وأما سبيل الدنيا فإن تخرجوا . وقال : أما والله إن بيعة عثمان رضى الله عنه في عنقي ، فإن لم يكن بد من قتال لا نقاتل أحداً حتى يفرغ من قتلة عثمان إلا قتلوا حيث كانوا . وأبو موسى رجل يكره الفتن كما يظهر من قوله لأهل الكوفة : ولا تكلفوا الدخول في هذا فأنها فتنة صماء النائم فيها خير من اليقظان ، واليقظان فيها خير من القاعد ، والقاعد خير من القائم ، والقائم خير من الراكب ، فكونوا جرثومة من جراثيم العرب : فاعمدوا السيوف وانصلوا الأسنة واقطعوا الأوتار وآووا المظلوم والمضطهد حتى يلتئم هذا الأمر وتنجلي هذه الفتنة . وغير ذلك من الأقوال التي تثبط الهمم وتضعف العزائم . ويظهر أن تثبيط أبي موسى الناس عن علىّ كان لتوهمه إيواؤه قتلة عثمان ، فكان يرى ضرورة قتل هؤلاء النفر ووجوب قتالهم شرعاً ، كما يتبين من إحدى خطبه من قوله : فثبطوا أيها الناس واجلسوا في بيوتكم إلا عن قتلة عثمان بن عفان رضى الله عنه .

وكانت نتيجة توقف أبي موسى عن استنفار الناس للجهاد أن غضب عليه علىّ بن أبي طالب فعزله « مذموماً مدحوراً » كما جاء في كتاب العزل . ومما ذكرنا يعلم أن الرجلين مختلفان في المبدأ ، فعلىّ يرى أن أبا موسى قد خانته ، وهذا يرى أن علياً لا يجوز نصره إلا بعد أن يقتل قتلة عثمان . وما دامت الصلة بينهما على هذه الحال فأى حكيم عاقل يتصور أن يكون

أبو موسى الذي طالما ثبت بالهم بالأمس عن مساعدة علىّ ظهيرا له اليوم مع ما يضره كل من الرجلين من الحقد والكراهية للآخر ؛ سيما أن أبا موسى يرى أن عبد الله بن عمر أليق بالخلافة ، وما دام هذا رآه فلا ينتظر منه غلبا عليها .

هذه كانت ميول أبي موسى نحو علىّ ، وتلك كانت علاقته به ، وليس الأمر كذلك بين عمرو ومعاوية ، فعمرو يميل إلى معاوية ويحب تأييده وتثبيت خلافته ويتفق معه في الغرض الذي كان يرمى إليه وهو المطالبة بدم عثمان ، وهو مع ذلك رجل عرف الدنيا وحنكته التجارب فلا يهمل إلا الوصول إلى مقصوده مهما استعمل في سبيل ذلك من الخدع وابتكر من ضروب الحيل — ومثل هذين لا يتفقان . ولا أدل على تقدير كل من الرجلين وما ينتظر أن يكون من أمرهما من قول معاوية لعمرو « وأنا وأهل الشام راضون بك وقد ضم إليك رجل طويل اللسان قصير الرأي » وقول عبد الله بن العباس لأبي موسى « إن عليا لم يرض بك حكما وقد ضم داهية العرب معك »

على أن المؤرخين يظلمون أبا موسى حين يرمونه بالغفلة وقصور الرأي ، وأما نحن فنعتقد أن الرجل قد اختير عن أهل العراق فنصح لهم وصادف أن خالف رأيه رأى علىّ وبني هاشم ، فكان هذا مصدر سوء حظه ، وليس من شك في أن رأى أبي موسى كان رأى طائفة عظيمة من معاصريه .

ولم يكن ما قام به عمرو بن العاص من مبايعته معاوية كافيا وحده

لتثبيت ملك صاحبه ، بل كانت هناك أمور جديرة بالذكر والاعتبار منها :
 الأول : اضطراب حالة جند علي بن أبي طالب كرم الله وجهه الذي
 أراد معاودة الكرة على معاوية . ولكن ماذا كان يصنع وقد أصاب
 جنده خلل واضطراب فاختلفوا على أمرهم وخرجت من بين صفوفه
 الخوارج ، ولم يكن من شيعته إلا أن تسلل رجالها من معسكرهم فأصبح
 المعسكر خالياً ؟ ولما دخل الكوفة ودعا رؤساءهم ووجوههم وسألهم عن
 رأيهم فمنهم المعتل ومنهم المكروه وأقلهم من نشط حيث فضلوا الدعة
 على تلك الحروب المستطيرة التي كادت تستأصلهم ، فكان هو وجنده
 كما قال أخوه هوازن :

أمرهم أمري بمنعرج اللوى فلم يستينوا الرشداً إلا ضحى الغد
 فلما عصوني كنت منهم وقد أرى مكان الهدى أو أنى غير مهتد
 الثانى : إتحاد جند معاوية - أما حال أهل الشام مع معاوية فكانت
 على العكس من ذلك ، جند مطيع وقلوب متحدة وفي هذا كفاية لمن يريد
 العظام ، ولذلك كان شأنه دائماً في علو .

ولعل كثيراً من جند علي إنما تحاذلوا عن نصره بعد ما كان من
 الحكم وبعد ما اعتقدوا أنهم غير مكلفين نصره ، ولكنهم لم يستطيعوا
 أن يجهروا بذلك ، لأن أنصار علي من الثائرين بعمان كانوا ذوى بأس .
 وكان من أثر تلك القوة المتحدة التي كانت مع معاوية بن أبي سفيان
 أن تمكن هذا من سلاح ما كان تحت سلطان علي بن أبي طالب شيئاً
 فشيئاً حتى فاجأته يد المنون سنة ٤٠ للهجرة .

والذي نراه في هذه المسألة الدقيقة أنه مع إقرارنا لعمر بن العاص بالدهاء والقدرة على النكاية بعدوه ، أنه بعمله هذا لم يصب علياً وحده ، ولا جند المسلمين فحسب ، ولكنه أصاب الأسلام وزاد كلمة المسلمين تفريقاً ، فإن عمله هذا هو الذي خلق مذهب التكحيم وأوجد الخوارج الذين كانوا أعداء لعليٍّ ومعاوية على السواء . وقد مكث الا سلام يعاني من البلاء بهم شيئاً كثيراً . وكل هذا نتيجة لعمل عمرو -- ولم يكن من الصعب عليه أن يجد حلاً لما بين عليٍّ ومعاوية من أول الأمر تُحقن به الدماء وتضان الكرامة وتجتمع عليه الألفة ويكون له نخره بين الأمة قاصيها ودانيها على مر الدهور -- ونحن نعتقد كل الاعتقاد أن عمرو بن العاص كان قادراً على ذلك لو شاءه ، ولكن الرجل كان لا يأمل أن ينال مع عليٍّ ما يرغب ، فحشم المسلمين الأهوال وحملهم هو ومعاوية على مركب وعر ، ولم يباليا في سبيل مآربهما بما حملا عليه الناس . وقد وجد عمرو من قتل عثمان مسوغاً لأن تروج دعوى معاوية فظاهره على أمره . ولو تراث عليٍّ كرم الله وجهه وصنع ما تقضى به السياسة من إرضاء المسلمين وعدم عزل ولالة عثمان وقتل قتلته ، لكي يدفع عن نفسه الريب فلا يجد معاوية داعياً قوياً كهذا يبرر رفضه بيعة عليٍّ ودعوة أهل الشام لحربه باسم الدين . ولا يمكن أن نعتقد أن معاوية كان بعمله هذا يريد إحقاق الحق ، بدليل أنه سكت عن المطالبة بدم عثمان ولم يتتبع بقية قتلته حين افضت إليه الخلافة ، ولم يمدد حين كان محصوراً بالمدينة ، فكأنه كان ينتظر قتله . إلا أنه إنما جمل المطالبة بدمه سبيلاً إلى الخلافة ، فلما حصل عليها سكن نائره . وما قيل في معاوية

يقال في عمرو فإنه لما تولى معاوية ، كان أول ما طلب منه الاستيلاء على مصر والولاية عليها .

هذا ما نراه أقرب إلى المعقول فيما وقفنا عليه - ورب قائل يقول إن تبعه ما وقع من عمرو يوم صفين وفي يوم التحكيم واقعة عليه لا محالة . فنجيب بأن الذنب ليس ذنبه بل هو ذنب الذين خالوا علماً ولم يتبعوا رأيه ، وقد كان قاب قوسين أو أدنى من الانتصار - على أن عمراً ذلك الرجل الفذ إنما أراد أن يصل إلى غايته من أي طريق يسلكه مهما استعمل في سبيل ذلك من الخدع والدهاء التي امتاز بها على العرب كافة . وقد أدى لصاحبه حق الخدمة ، وعمل بما تقضي به صفة الدهاء والسياسة الموصوف بهما ، بينما لم يبلغ هذه الصفة أبو موسى الذي كان يرى عدم نصرة عليّ واجباً شرعاً ما دام قتلة عثمان في صفوفه .

وإن كنا قد أتحينا باللائمة على كل من عمرو ومعاوية لاتباعهما هذه السياسة التي أدت إلى خلع عليّ بن أبي طالب كرم الله وجهه ، وأن تدخلهما كان لاغراض شخصية وأهواء ، وأن دهاء عمرو قد ساعد على تحقيق غرضه والوصول الى غايته ، فلا ينبغي أن يعزب عن بالنا أمر على جانب عظيم من الأهمية ، وهو أنه نظراً للحالة السياسية التي وصلت إليها الأمة العربية في ذلك الزمن ، كان لا بد من حدوث هذا التغيير إما على أيدي عمرو ومعاوية أو على يد غيرهما . وكل ما يقال في عمرو ومعاوية ، ان الظروف قد تهيأت لهما فاستفادا منها فوجدوا من قتل عثمان سبيلاً إلى إحداث هذا التغيير الذي حصل في الواقع من جهتين متباينتين .

الأولى : جهة عربية خاصة : وهي أنه لما تولى عثمان بن عفان الخلافة طمع بنو أمية في أن يستردوا سلطانهم على قریش ، ولو تم لهم ما أرادوا لاستقر سلطانهم على الأمة الإسلامية بأجمعها . وقد تولى منهم عثمان وولّى ذوى قرباه على الامصار بحيث لو طالبت حياته لنجح بنو أمية فيما كانوا يرmon إليه ، وهو انتزاع الخلافة من بنى هاشم وحصرها في بنى أمية ، وكان معاوية كما لا يخفى أقوى بنى أمية في ذلك العصر ، ومعه جند الشام وهم أقوى أجناد العرب يأتمرون بأمره وينتهون بنهيهِ فاتخذهم سلاحاً لتنفيذ أغراضه .

الثانية : جهة عامة : وهي أن العرب بالثقافتهم مع الامم المقهورة سواء أكانت تلك الامم فارسية أو أمماً خاضعة للحكومة البيزنطية ، أخذوا عنهم نظم الحكم وحاولوا تقليدهم في الخضوع لنظام ملكى فلم يكن بد حينئذ من أن تتأثر هذه الأمة البدوية بهذه الامم المتحضرة ، كالأمة الرومانية وأهل مصر والشام وغيرها . وبعضهم كانوا يتأثرون بهذا المبدأ ويرغبون في أن يؤسسوا الحكم الامبراطورى الذى يلائم الحالة التى أصبحت فيها بلادهم ، وقد اتسع ملكهم وكبر سلطانهم ، بحيث أصبحت نظم الحكم التى كانت مألوفة في أيام أبى بكر وعمر غير صالحة لهذه الامبراطورية الضخمة المتألفة من شعوب مختلفة في الجنس والعادة والخلق والدين وسائر أنواع الحياة (١) هذه النظم التى كانت محصورة في دائرة

(١) لا ينبغي أن يمتز بآن هذه الامبراطورية كانت عظيمة في عهد عمر ، فأن عمر لم يزد على أن افتتح وحاول تثبيت الفتوح وتنظيمه ، ولو قد طالبت حياته لرأى هذا التغيير ، وربما كان استطاع لرجاجة حاميه وحسن سياسته أن يطب

ضيقة هي مكة والحجاز وبلاد العرب : وهذا هو حزب الأرسطراطية
وهم زعماء الامة العربية على العموم، وأعظم ممثل لهؤلاء الزعماء هم بنو أمية .
لهذا لم يكن بد إذاً من انقسام العرب الى قسمين :

الاول : قسم يدافع عن المذهب الموروث ، مذهب الحرية ذى النظام
البدوي البسيط كالذى كان فى عهد أبى بكر وعمر - ذلك النظام الذى
ما كان يصاح إلا فى أيامهما ، لا فى ذلك العصر وقد تطورت الامة العربية
تطورات عديدة ومر بها أدوار سياسية كبيرة .

الثانى : قسم يدافع عن المذهب الجديد ، مذهب تأسيس إمبراطورية
إسلامية ذات نظام يلائم الحالة التى وصلت إليها الامة العربية .
والنتيجة الطبيعية لكل ذلك هى :

أولاً : وقوع الحرب

ثانياً : انتصار أصحاب المذهب الجديد الذى يؤيد زعماءه من العرب
أهل الشام والفرس ، على أصحاب المذهب القديم الذى يميل اليه كثيرون
من اهل بلاد العرب ولا سيما أشد أصحاب النبو عليه السلام تورعاً
وحرصاً على السنة الموروثة ، كسعد بن ابى وقاص ومحمد بن مسامة وغيرهما
من اعتزلوا الفتنة .

وإن التاريخ يعيد نفسه كما يقولون ، فقد دخلت الرومان فى

للأمر وأن يحدث هذا التغير من غير إخلال بالنظام الاجتماعى الإسلامى . على
أن من تفقه التاريخ وتدبر حوادثه لم يشك فى أن قتل عمر نفسه إنما كان مقدمة
من مقدمات هذه الثورة التى لم يكن منها بد .

نفس هذه التطورات حين امتدت فتوحهم في آسيا وأفريقية وأوروبا وعظم ملكهم ، فقامت الحروب الاهلية التي انتهت بأحلال النظام الامبراطورى محل النظام الجمهورى القديم .

أما ما كان من أمر عمرو ومعاوية ، فقد افادتهما هذه الظروف التي خدمت معاوية بقتل عثمان فتلمس المعين على مناوأة على وتذرع بالباسه جنابة عثمان ، ووجد عمرو سبيلاً الى معونة معاوية لاغراض بينهاها ، فتم التغيير على أيديهما - وذلك لا بد من حدوثه - ولو كف عمرو ومعاوية أيديهما عن القيام به لقام به غيرهما من العرب .

هذا ما يمكن ان يقال عن سياسة عمرو مع معاوية وتدخله في أمور الأمة الإسلامية ، التي افادها من جهة تغيير نظام الحكم القديم الى الحكم الجديد ، الذي كانت الامة في حاجة طبيعية اليه بمقتضى الحالة السياسية التي وصلت اليها بامتداد فتوحها وبسط ساطانها على امم مختلفة .



الباب الثالث

ولاية عمرو الثانية على مصر

اعتزل عمرو بن العاص ولاية مصر في خلافة عثمان ، فكان لا ينسأها بل يريد أن يستردها ويتولى أمرها مرة ثانية ، يدلنا على هذا أن أول ما طلبه من معاوية هي « مصر » . ومن هنا يستدل على أمرين :

(١) على أنه كان يحب مصر حباً جماً حتى انضم إلي معاوية من أجلها بخلاف ما كنا ننتظر ، وتفانى في خدمته ليفوز بأمنيته

(٢) وعلى أنه كان يكره عثمان كراهة شديدة من حين عزله عن ولاية مصر وكان بينهما من الملاجة ما ذكرناه .

انضم عمرو إلى معاوية ولم يكن يستغنى هذا عن الاهتداء برأيه والعمل بمشورته فكان ساعده الأيمن وعضده الأقوى ، وقد كان من وراء انضمامه لمعاوية ما قدمناه . وكان معاوية قد قوى بنتيجة التحكيم وبايعه أهل الشام بالخلافة فأراد الاستيلاء على مصر ، وكانت حالها اذ ذاك مما يضاعف آماله في تحقيق أمنيته في الوصول الى غايته ، ذلك أنه كان بمصر قوم قد ساءم قتل عثمان ، فكتب معاوية الي مسامة بن مخلد ومعاوية بن حديج (وكانا قد خالفا علياً وناووا محمد بن أبي بكر عامله على مصر) يقويهما ويمينهما الأمانى الطيبة فكتب اليه يطلبان المدد ، وكانت الفرصة قد سحبت لعمرو بن العاص لاسرداد مصر سنة ٣٨ هـ بعد أن غاب عنها زهاء اثنتى عشرة سنة ، فجهزه

معاوية في ستة آلاف أقبل بهم إلى مصر ، حيث انضمت إليه العثمانية ، فأقام بهم وكتب إلى محمد بن أبي بكر « أما بعد فتنع عني بدمك يا ابن أبي بكر فأني لا أحب أن يصيبك مني ظفر ، إن الناس بهذه البلاد قد اجتمعوا على خلافك ورفض أمرك وندموا على اتباعك ، فهم مسلموك لو قد التقت حلقتا البطان فاخرج منها فاني لك من الناصحين والسلام » ولما لم يجد هذا الكتاب نفعا سار عمرو لقتال محمد بن أبي بكر وانتدب كل منهما نحواً من ألفي رجل ، فلم يحتمل جند محمد هجمة الجنود الشامية ولا من مالأهم من جنود مصر ، فقتل منهم من قتل وفر الباقيون واختفى محمد بن أبي بكر فخرج معاوية بن حُديج يطلبه حتى ظفر به فقتله — ويقال إنه أحرقه بالنار . وقد قال المقرئ بن الموقمة المذكورة كانت في مدينة يقال لها المنشأة (١)

ولما تم لعمر و الانتصار سار في طريق الفسطاط حتى دخلها واستولى عليها ، وكان ذلك في صفر سنة ٣٨ هـ فأقره معاوية والياً عليها وأعطاه إياها على أن يعطى عطاء الجند وما بقي فله ، واستقرت ولاية مصر لعمر و بن

(١) وقد ذكرها اليعقوبي المسناة . أما المنشأة فقد ذكرها المرحوم علي مبارك باشا في خطه فقال : يوجد من هذا الاسم عدة قرى أكبرها وأشهرها منشأة (أخميم) ثم منشأة (بكار) من مديرية الجيزة ومنشأة (سدود) من مديرية المنوفية ومنشأة (سيوط) ومنشأة (عاصم) : وهي قرية من مديرية الدقهلية بمركز دكرنس على الشاطئ الشرقي للبحر الصغير . والظاهر أن الواقعة كانت في هذه القرية وباسمها سميت .

العاص من جديد، وأصبح له القدر المعلن والسلطان المطلق في إدارة شؤون هذه البلاد، فشمر عن ساعد الجد في إصلاح ما أفسدته أيدي أسلافه الذين نقم عليهم المصريون وناقوا إلى الخلاص من حكمهم، إلا أن أجل هذه الولاية كان قصيراً وسرعان ما قصفت يد المنون.

(ب) استكماله معارضة أنه نكحوه بمصر طعمه: همزة: ونسب الجلاء بينه ١ :

خشى معاوية خروج عمرو عليه فأراد أن يدفع ما عسى أن يترتب على خروجه من النتائج، فكتب إليه وهو بمصر كتاباً أراد فيه أن يقيد ما بيده من عهد الولاية حتى لا يجد مبرراً للخروج عليه في وقت ما، وبذلك يأمن معاوية خروج عمرو عن طاعته، فأرسل إليه كتاباً ضمنه هذه العبارة: « على أن لا ينقض شرط طاعة »، فأدرك عمرو ما يرمي إليه معاوية وكتب إليه: « على أن لا تنقض طاعة شيطاً » فهذا القلب في العبارة قد قلب الحقيقة لصالح عمرو من أن الطاعة لا توجب التخلي عن مصر التي استكثرها معاوية عليه لما استقر له الأمر، فحاول الرجوع على عمرو بمصر فأصلح بينهما معاوية بن حديج.

ولا يعلم إلا الله ما كان يحدث بين الرجلين من الخطوب واليمن لو تشبث معاوية بتغيير عهده.

وقد روي ابن عساکر أنه لما صار الأمر كله (١) في يدي معاوية

(١) ولا يتبادر إلى الذهن من قوله « لما صار الأمر كله في يدي معاوية » أن مصر انتهت إلى معاوية بعد اصطفاء معاوية للخلافة والحسن رضي الله عنهما، بل أخذ عمرو مصر من محمد بن أبي بكر لما كان والياً عليها من قبل علي في خلافته قبل وفاته بسنتين.

استكثر طعمة مصر لعمر و ما عاش ، ورأى عمرو أن الأمر كله قد صلح به وبتيديره وبغنايته وسعيه فيه ، وظن أن معاوية سيزيده الشام على مصر فلم يفعل معاوية ، فتنكر له عمرو فاختلعا وتغالطا وظن الناس أنه لا يجتمع أمرهما ، ولكن قبل أن يتفاهم الخطب وتستعر نار الخلاف استعاراً تدخل بعض المسلمين في الأمر وأصلحوا بين الرجلين (وإن كان هذا الصلح ظاهرياً) على أن يكتب بينهما كتاب بمثابة ضمان لكل منهما خلاصته :

(١) أن تكون لعمر و ولاية مصر سبع سنين .

(٢) وأن على عمرو السمع والطاعة لمعاوية .

وتوافقا وتعاهدا على ذلك وأشهدا عليهما به شهوداً ، ثم مضى عمرو إلى مصر والياً عليها ، وذلك في أواخر سنة ٣٩ للهجرة فلم يمكث غير ثلاث سنوات تقريباً حتى مات وهو أمير عليها

وصفوة القول أن المودة والوئام لم يدوما بين عمرو ومعاوية ، لأن عمراً كان يود أن تكون له الشام مع مصر ومعاوية قد استكثر عليه مصر ومثل هذين الرجلين لا يتفق لهما أمر ، فيعلم مما تقدم أنه اتفاق ظاهره المحبة وباطنه يشعر بالدهاء وأن عمراً لم يبايع معاوية حباً به أو مودة له ، بل طلباً لمصر ورغبة في استرجاع ما كان له عليها من سلطان - ولم يكن معاوية أيضاً بأقل بغضاً منه . يدلك عليه ما روى أن معاوية قال يوماً لجلسائه « ما أعجب الأشياء ، » فقال يزيد « أعجب الأشياء ، هذا السحاب الراكد بين السماء والأرض لا يدعهم شيء من تحته ولا هو منوط بشيء من فوقه »

وقال آخر « حظ يناله جاهل وحرمان يناله عاقل » وقال آخر : « أعجب الأشياء ما لم يُر مثله » وقال عمرو بن العاص « أعجب الأشياء أنّ المبطل يغلب الحق (يعرض بعليّ ومعاوية) » فقال معاوية « بل أعجب الأشياء أن يعطى الإنسان ما لا يستحق إذا كان لا يخاف (يعرض بعمر وومصر التي أخذها له طعمة »

(ج) محاولة قتل عمرو :

اجتمع ثلاثة من الخوارج وأجمعوا أمرهم على قتل عليّ بن أبي طالب ومعاوية بن أبي سفيان وعمرو بن العاص جميعاً في يوم واحد هو اليوم السابع عشر من شهر رمضان سنة ٤٠ للهجرة . فأما ابن ملجم فقد قتل عليّاً كرم الله وجهه ، وبوفاته انتهى عهد الخلافة الشرعية ، ولم يفز الذي نذب نفسه لقتل معاوية منه بأرب ، أما ما كان من أمر عمرو فأن عمرو ابن بكر (١) الذي عزم على قتله ، فإنه جلس له في الليلة المعهودة فلم يخرج عمرو ابن العاص لمرض ألمّ به ونذب خارجة بن حذافة قاضي مصر أن يصلى بالناس ، وبينما هو في الصلاة ضربه الخارجى بالسيف فقتله يظنه عمراً ، ولما علم الخارجى أن المقتول غير عمرو قال : « أردتُ عمراً وأراد الله خارجة » فذهبت مثلاً . ولما وقف الرجل بين يدي عمرو بكى فقبل له « أجزعاً من الموت مع هذا الاقدام ؟ » فقال « لا والله ولكن غماً أن يفوز صاحبيّ بقتل عليّ ومعاوية ولا أفوز أنا بقتل عمرو » فأمر عمرو بضرب عنقه فضرب وصلب ولما بلغ ذلك معاوية بن أبي سفيان كتب إلى عمرو :

(١) سماه المسعودي « زادوية عمرو بن بكر »

وقتل وأسباب المنايا كثيرة منية شيخ من لؤى بن غالب
 فيأعمرو مهلاً إنما أنت عمه وصاحبه دون الرجال الأقارب
 نجوت وقد بلّ المرادى سيفه من ابن أبي شيخ الأباطح طالب
 ويضربني بالسيف آخر مثله فكانت علينا تلك ضربة لازب
 وأنت تنأى كل يوم وليلة بمصر كبيضاً كالظباء السوارب

(د) بعض أنباء عمرو ومعاوية :

يظهر أن عمرو بن العاص كان في خلافة معاوية يختلف كثيراً إلى الشام ، فكان الخليفة لا يقطع أمراً دون الاستعانة برأيه والعمل بمشورته (١) وقد عثرنا في تواريخ الطبري والمسمودي وأبي المحاسن وغيرها على أخبار عديدة عن عمرو بن العاص رأينا أن نأتى ببعضها علماً تبين ما كان لهذا الرجل من جليل الأعمال وفاضل الصفات ، وإن كان التاريخ لم يكشف لنا أعمالاً خاصة قام بها ذلك الأمير مدة ولايته الثانية على مصر كشق الترع وبناء الجسور وإقامة الأبنية وغيرها ، ولو طال عمره في هذه الولاية لما ضن علينا التاريخ بذكر كثير من إصلاحاته ، إذ من المعقول أن مدة الثلاث أو الأربع سنوات التي مكثها في مصر لا تكفى أكبر قائد حربي ومصلح عظيم لا طفاء شعلة هذه الفتن التي كانت ضاربة أطنابها في البلاد ، لا تقسام أهلها واختلاف ميولهم نحو معاوية وعلى ، فكان لكل

(١) ذكر الطبري أن عمرو بن العاص كان مع معاوية حين تسليم الحسن بن علي الأمر إلى معاوية وحين جرى الصلح بين معاوية وقيس بن سعد بعد أن امتنع هذا عن بيعته .

منهما شيعة وأنصار .

وقد ذكر المسعودي أن عمرو بن العاص دخل يوماً على معاوية بعد ما كبر ودق ومعه مولاه وردان فأخذا في الحديث وليس عندهما غير وردان فقال عمرو « يا أمير المؤمنين ما بقي مما تستلذه ؟ » فقال معاوية « أما النساء فلا أرب لي فيهن ، وأما الثياب فقد لبست من لينها وجلدها حتى وهى بها جلدى فما أدرى أيها ألين ، وأما الطعام فقد أكلت من لينه وطيبه حتى ما أدرى أيه ألد وأطيب ، وأما الطيب فقد دخل خياشيمي منه حتى ما أدرى أيه أطيب ، فما شئ ألد عندي من شراب بارد في يوم صائف ومن أن أنظر إلى بنى وبني يدورون حولي ، فإني منك يا عمرو ؟ » فقال : « مال أغرسه فأصيب من ثمرته وغلته » فالتفت معاوية إلى وردان فقال : « ما بقي منك يا وردان ؟ » فقال : « صنعة كريمة سنية أعلقها في أعناق قوم ذوى فضل وأخطار يكافئونني بها حتى ألقى الله تعالى وتكون لعقبى في أعقابهم بعدى » .

وإنا نقف مما ذكره المسعودي على مبلغ ميل عمرو لاستثمار المال ، ولا غرو فقد نشأ تاجراً فزعم في نفسه حب الكسب منذ نعومة أظفاره حتى إذا ما وصل إلى مرتبة الأمراء لم يقف بهذا المركز عن مباشرة مهنة التجارة ابتغاء الكسب وتنمية ثروته

وقد ذكر الطبرى أن معاوية بن أبي سفيان ولي عبد الله بن عمرو ابن العاص على الكوفة فأتاه المغيرة بن شعبة وقال « استعملت عبد الله ابن عمرو على الكوفة وعمراً على مصر فتكون أنت بين لحي الأسد »

فعرّله عنها واستعمل المغيرة ، ولما بلغ عمرًا ذللاً أراد أن يكيد المغيرة فدخل على معاوية وقال له « استعملت المغيرة على الكوفة ؟ » فقال « نعم » فقال عمرو « أجعلته على الخراج » فقال « نعم » فقال عمرو « تستعمل المغيرة على الخراج فيقتال المال فيذهب فلا تأخذ منه شيئاً ، استعمل على الخراج من يخافك ويهابك ويتقيك » فعرّل المغيرة عن الخراج واستعمله على الصلاة ، فلقى المغيرة عمرًا فقال « أنت المشير على أمير المؤمنين بما أشرت في عبد الله قال « نعم » فقال عمرو « هذه بتلك »

ومن أخباره مع معاوية والانصار ما رواه صاحب الأغاني (ج ٤ ص ١٢٢) قال : حضرت وفود الانصار باب معاوية بن أبي سفيان ، فخرج إليهم حاجبه فقالوا له « إستأذن الانصار » فدخل عليه وعنده عمرو بن العاص فاستأذن لهم . فقال له عمرو « ما هذا اللقب يا أمير المؤمنين أردد القوم إلى أنسابهم » فقال الحاجب « هي كلمة إن مضت عمرتهم ونقصتهم وإلا فهذا اللقب راجع إليهم » فقال له عمرو « أخرج فقل من كان ههنا من ولد عمرو ابن عامر فليدخل » فقال الحاجب ، فدخل ولد عمرو بن عامر كلهم إلا الانصار فنظر معاوية إلى عمرو ونظر منكر فقال له « باعدت جدا » فقال « أخرج فقل من كان ههنا من الاوس والخزرج فليدخل » فخرج فقالها ، فدخلوا يقدمهم النعمان بن بشير الانصارى وهو يقول :

ياسعد لا تجب الدعاء فما لنا	نسب نجيب به سوى الانصار
نسب تخيره الاله لقومنا	أثقل به نسباً إلى الكفار
إن الذين ثووا بيد منكم	يوم القليب هموا وقود النار

فقال معاوية « لقد كنا أغنياء عن هذا ». ولاندرى إن كان عمرو أراد بهذا المباعدة بين معاوية والانصار إتماماً لمقاصده السياسية في إغرائهم بمعاوية أو هو يريد الخط من قدر الأ نصار فقط لأنهم شايعو اعلی بن أبي طالب أيام الفتنة ، ونرجح أنه إنما أراد أن يحط من قدر الأ نصار لانهم أساءوا إلى قريش حين نصرُوا النبي صلى الله عليه وسلم ، وهذا يدل على ميل نفر من المسلمين في هذا العصر إلى ما كان مألوفاً في الجاهلية من العصبية .

(هـ) وفاة عمرو :

إلى هنا انقضت ولاية عمرو الثانية على مصر بانقضاء أجله ، فاغتالت يد المنون رجلاً من شجعان العرب وأبطالهم ودهاتهم ، كان غرة في جبين الاسلام ذاهمة عالية وإقدام على المكاره في سبيل الوصول إلى متمناه ، اشتهر بتحبيه إلى أهل مصر ببذل العدل فيهم فأحبوه وخضعوا له في ولايته الاولى والثانية حتى مات ، ففي يوم عيد الفطر سنة ٤٣ للهجرة هبط نجم من النجوم الساطعة وتقوض ركن من أركان الدين وانكسفت شمس سعادة مصر وأفعمت قلوب الاهلین حزناً وكمداً ، فبكوا في فقد عمرو العدل والوفاء والجد والشجاعة والاقدام ، فكان هذا اليوم من أيام مصر المشهودة خيم فيه الحزن في جو البلاد قاصيها ودانيها .

روى ابن عساکر قال : حضرنا عمرو بن العاص وهو في ساعة الموت فولى وجهه الى الخائط وجعل يبکی طويلاً فقال له ابنه ، ما يبكيك أما بشرك رسول الله صلى الله عليه وسلم بكذا ، أما بشرك بكذا ؟ ، فأقبل عمرو بوجهه وقال « إن أفضل ما يعد على شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً

رسول الله ، ولكنى قد كنت على أطباق ثلاث ، قد رأيتنى وما أحد من الناس أبغض إلىّ من رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا أحب من أن أتمكن منه فأقتله ، فلو مت على تلك الطبقة كنت من أهل النار ، فلما جمل الله الأسلام فى قلبى أتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم لأبأيعه فقلت : أبسط يدك لأبأيعك ، فبسط يده ، ثم انى قبضت يدي فقال : (مالك يا عمرو؟) فقلت : أردت أن أشرط . فقال : (تشرط ماذا؟) فقلت : أن تغفر لى ما تقدم . فقال : (أما علمت يا عمرو أن الأسلام يهدم ما كان قبله وأن الهجرة تهدم ما كان قبلها وأن الحج يهدم ما كان قبله ؟) فبأيعته ، فما كان أحد أجل فى عينى من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولو سئلت أن أنعته ما طفت لأننى لم أكن أطيعق أن أملاً عينى منه لإجلاله ، فلو مت على تلك الطبقة لرجوت أن أكون من أهل الجنة ، ثم ولينا أشياء بعد فليست أدري ما حالى فيها » وقال لبنيه : « إن أنا مت فلا تتبعنى نأحة فاذا دفنتمونى فى قبرى فسنوا على التراب سنّاً (١) فليس جنبى الايمن أولى بالتراب من الأيسر ، ولا تجمعوا فى قبرى خشبة ولا حجر فاذا فرغتم من دفنى فأقيموا عند قبرى قدر ما ينجر جزور ويقسم لهما فأنى أستاذس بكم حى أعلم ماذا أراجع به رسل ربى » ثم قال لبنيه « يا بنى ما تغنون عنى من أمر الله شيئاً ، قالوا « يا أبت إنه الموت ولو كان غيره لوقيناك بأنفسنا » فقال : « أسندونى » ثم قال وقد استقبل القبلة « اللهم إنك أمرتنا فعضينا ونهيتنا فارتكبنا ، وهذا مقام العائذ بك فأن تعف فأنت أهل للعفو ، وإن تعاقب فيما قد مت يداى ، اللهم لا قوى فأنتصر ولا برى فاعتذر ولا مستكبر بل

مستغفر أستغفرك وأتوب إليك ولكن لا إله إلا الله ، فإزال يقولها حتى مات في يوم الفطر من سنة ٤٣ للهجرة (١) .

وهذا يدل على أن عمرًا كان يعلم أنه بعد موت النبي صلى الله عليه وسلم لم يتخذ الدين وحده غاية لحياته السياسية ، وإنما كانت له أهواء وأغراض أثرت فيه وأحس ساعة الموت ندمه فاستغفر منها وتاب .

روى في كتاب (حياة الحيوان الكبرى - باب وعل) أن عمرو بن العاص لما حضرته الوفاة قال له ابنه « يا أبتاه إنك كنت تقول لنا ، ليتني كنت ألقى رجلاً عاقلاً لبيباً عند نزول الموت به حتى يصف لي ما يجد ، وأنت ذلك الرجل فصف لي الموت » . فقال : « يا بني ، والله كأن السماء قد أطبقت على الأرض وكأني أتنفس من سم إبره وكأن غصن شوك يجذب من قدمي إلى هامتي » ثم قال :

ليتني كنت قبل ما قد بدالي في رؤوس الجبال أرمي الوعولا (٢)
وقد قال فيه الشاعر :

ألم تر أن الدهر أخذت صروفه على عمرو السهمي تجبي له مصر
فلم يغن عنه حزمه واحتياله ولا جمعه لما أتيح له الدهر
وأمسى مقماً بالعراء وضللت مكايده عنه وأمواله الدثر

وقد خلف عمرو على ما ذكره المسعودي ثلثمائة وخمسة وعشرين ديناراً

- (١) ابن خالكان (ج ٢ ص ٢٠٥) ، والعقد الفريد (ج ٢ ص ٤) ،
والمعارف لابن قتيبة (ص ٩٦) ، والمستطرف في كل فن مستظرف (ص ٣٢٩)
(٢) يقول بطر (ص ٤٩٤) ، إن ابن عباس هو الذي طلب من عمرو أن يصف له الموت ، وبعيد أن ابن عباس كان في مصر في ذلك الوقت .

ومن الورق (الفضة) ألفى الف درهم (٢٠٠٠، ٠٠٠) وضياعته المعروفة بالرهط وقيمتها عشرة آلاف درهم.

وروى ابن عساكر أنه كان يقيم كروم الرهط (بستان له بالطائف) بألف ألف خشبة كل خشبة بدرهم عدا الدور العديدة التي كان يمتلكها في مصر ودمشق. وقال صاحب كتاب «حياة الحيوان»، وخلف عمرو من المال سبعين بهاراً دنانير (والبهار جلد ثور يسع أردبين)، وكان عند حلول أجله أخرجه وقال: من يأخذه بما فيه؟ فأبى ولذاه أخذه، فبلغ معاوية فقال: «نحن أحق بهذه الأموال التي جمعها بولك لدفع العدو، فأخذها وأدخلها في بيت المال» وأما نحن فنجزم بأن هذا القول غير صحيح، إذ يلزم أن يكون عنده مائة وأربعون أردباً من الذهب تأخذ فراغاً يزيد على عشرين متراً مكعباً وهي تبلغ أكثر من أربعين مليوناً من الجنيهات أو ثمانين إلى مائة مليون دينار. ومحال أن يجمع عمرو بن العاص هذا المبلغ من مصر في أقل من عشرين سنة إلى أربعين باعتبار أنها في يده يأخذ ما زاد عن عمارتها وأعطيات جندها.

(و) قبر عمرو:

اتفق أبو المحاسن وابن قتيبة وابن الزيات في كتابه «الكواكب السيارة» في ترتيب الزيارة (ص ٨٥) والدميري في كتابه «حياة الحيوان - باب وعل» على أن عمرو بن العاص دفن بسفح المقطم في ناحية الفخ وكان طريق الناس إلى الحجاز وقد اختلف في قبره فقال صاحب كتاب (الزارات المصرية) إن قبر عمرو بن العاص غربي قبر الإمام الشافعي والموضع الذي به يسمى مقابر قریش. وقال غيره: هو غربي الخندق وشرق المشهد. (١)

(١) بنى على حافته الشرقية قبر الإمام الشافعي، والمشهد هو مشهد السيدة

وقيل أيضاً هو القبر الكبير المشار إليه بقبر القاضي قيس، والمستحب لمن زار هذا المكان أن يحضر قلبه ويخلص نيته فإنه مكان مبارك . وإذا صح ما ذكره صاحب (كتاب الزارات المصرية) أمكن تعيين قبر عمرو بالضبط ، وفي هذا المكان قبر يعرف الآن بقبر « سيدنا عمرو بن العاص » ، على أننا نرى أن موضع قبر عمرو لا بد أن يكون قد لعبت به يد النسيان منذ قرون طويلة فظل التاريخ في سكون تام ، بحيث يصعب كشف اللثام عن حقيقة هذا الموضوع لاقتلاع كثير من أحجار المقطم ، فلم يعد لموضعه أثر تقريباً ، ولا ننسى قول عمرو حين حضرته الوفاة « وسنوا على التراب سناً ولا تجعلوا في قبري خشبة ولا حجراً » ، مما يدل على أن قبر عمرو لم يعد له أثر تقريباً ، أضف إلى ذلك ما ذكره بطر (ص ٤٤) أن مدينة الفسطاط التي أسسها عمرو بن العاص قد اندثر معظم أبنيتها تحتم الأرض فلم يعد يظهر منها إلا القليل من الباني كجامع عمرو والذي يدل على موضع بنائه الأصلي ، وبقربه قصر الشمع وغيره من الأبنية التي يرجع عهد بنائها إلى الروم .

على أن الاهتداء إلى بعض أسوار مدينة الفسطاط التي ظهر بعضها بالحفر والتنقيب لا سيما الباب الذي خرج منه المقوقس لمقابلة عمرو مما يزيد أمتنا في العثور على الموضع الذي دفن فيه عمرو بن العاص لكي نجد دبناء هذا القبر بما يليق بمقام عمرو ونستأنس بقبره فنذكر تاريخ حياته ومآق به من الأعمال الجليلة وقد روى ابن الزيات أن عمرو بن العاص وعقبة بن عامر الجهني في قبر واحد ، وقيل لهم ثلاثة في قبر واحد ، وهم عقبة وعمرو وأبو بصرة الغفاري .

الخاتمة

إلى هنا انتهى بنا البحث والتنقيب بعد طول الجهد ومواصلة العمل في حياة عمرو بن العاص رضى الله عنه ؛ ذلك العربى الصميم والقائد العظيم والسياسى المحنك ، وزجوان يكون القارىء قد ألم بشئ كثير من مآثر هذا الرجل ، ووقف على أدوار حياته وما قام به من الأعمال الجليلة والمآثر العظمى . هنالك صله كبيرة بين عظماء الرجال وبين الظروف التى ينشئون عليها ويشبون فى أحضانها : فمن هؤلاء ، من يهيم الظروف ومنهم من تلده هذه الظروف ، فتظهر مواهبهم للعالم جليلة ناصعة : تلك المواهب التى تعمل على نموها الأحوال والأيام فتنشأ منها الأعمال الجليلة والمآثر الفاخرة التى تكمل التاريخ ، وذلك من فتح الفتوح وتصير الأمصار أو العمل على تحرير بلادهم وغير ذلك مما يبق أثرأ خالد على كراياهم ومر الأعوام ، فثلاً «نابليون» فهو وليد الثورة الفرنسية غير الحالة السياسية والاجتماعية فى فرنسا وفي غيرها وقلب العالم رأساً على عقب أما عمرو بن العاص ، فهو وإن كان قد ولدته الظروف كذلك وأظهرته فهو وليد الإسلام الذى كونه قائداً محنكاً وسياسياً قديراً والياً عادلاً وداهية من أكبر دهاة العالم الذين دوخوا ممالكهم وأقالوا دوله ، فلولاً الإسلام ما ظهرت مواهب هذا الرجل وما أوتيه من جليل الصفات إلى هذا الحد ، فبعد أن كانت تلك المواهب محصورة فى دائرة ضيقة أصبح وقد اتسعت أمامه دائرة العمل فتجلت سجاياه ومواهبه فى ميدان فتوحه الواسعة للبلاد التى غزاها وفى كفاءته لإدارة شؤونها والعمل على ترقيتها وترقية أهلها . إلا أنه امتاز عن هؤلاء العظماء بأنه قد ولد بعض الظروف ، فهو الذى سمي لفتح

مصر ففتحها وطرده الروم منها وكان السبب في نشر الاسلام في أرجائها تدريجاً ، فنبه ذكره وسما قدره وعظم شأنه وكتب في سمائها أكبر مثل يسطره له التاريخ إلى أبد الدهر .

وقد امتاز عمرو بين قومه بمزايا عديدة ظهر أثرها في أعماله ظهوراً ينفرد بها وتجلت صورتها للناس كلما ذكر اسمه ، فكانت ذات أثر كبير في أحوال الأمة الإسلامية : الدينية والسياسية والحربية والاجتماعية . وبتحليل نفس عمرو يعرف المرء الصلة بين مواهبه وبين هذه الأحوال - تلك النفس التي حللناها فيما مررنا به من استقصاء أخباره وتتبع آثاره وذكر أقواله الماثورة وحكمه التالدة . ولا ريب في أن اسم عمرو بن العاص قد ملأ كل مكان استغنى عن تعريفه بنسب أو حسب ، وأصبح معروفاً لدى جميع طبقات العالم الإسلامي ، ولا يجهل هذا الاسم أحد لانفراده بتلك المأثرة العظيمة مأثرة فتح مصر وانتزاعها من قبضة الروم مما أضحي له موضع إعجاب العالم جميعاً لا سيما مؤرchi الفرنجة الذين اشتغلوا بتاريخ الفتوح الإسلامية ، ولا نبالغ إذا قلنا إن عمرو بن العاص كان نادرة في عصره وحسنة من حسنات الدهر وهادياً من هداة الأسلام وليثاً من ليوث العرب الذين أسسوا عظمة بلادهم فنهضوا بها الى أوج السعادة .

وقد رأيت مكانة عمرو من الشرف في قریش في الجاهلية واحترام العرب له ، فلما أسلم حفظ له النبي صلى الله عليه وسلم شرف تلك المكانة فتأدب عمرو بأدابه عليه السلام ، فسمح بنفسه وأخلص للرسول الخدمة ، ولم تفت النبي صلى الله عليه وسلم شجاعة عمرو وإقدامه فولاه على جند المسامین في غزوة ذات السلاسل ، ولا غرو إذا كان النبي عليه السلام مصيباً

في اعتقاده فقد كان عمرو موفقاً للنصر في جميع المواقع التي اشترك فيها ، فانتصر في غزوة ذات السلاسل وغزوة سواع ، وفي وقائعه مع أهل الردة وفي اشتراكه في حروب الشام وفلسطين ، وفي مصر وبلاد المغرب ، وهذا ولا ريب من نتائج الحزم والشجاعة والبصيرة بأمور الحرب . وحسبك دليلاً على شجاعته مخاطبته جيفراً وعباداً ابني الجأندی وكذا مخاطبته قرة بن هبيرة ، وقذفه بنفسه في معامع الوقائع غير هياب ولا وجل ، وكيف كان يعرض نفسه للاخطار في كثير من المواقع التي قاتل فيها ، وكيف كان يحمل اللواء ويقا تل بنفسه ، وكيف سبق خالد بن الوليد إلى أخذ الراية في موقعة اليرموك تلك الموقعة التي جنى المسلمون ثمار الانتصار فيها لاتباعهم مشورته والعمل برأيه باجتماع وحدات المسلمين في مكان واحد ليكونوا قوة واحدة يدفعون بها العدو وينتصرون عليه ، وقد كان من وراء رأيه السيد انتصار العرب في هذه الموقعة وفي غيرها من المواقع حتى كان النصر . أما حبه للجهاد فقد كان يفوق الوصف - ذلك الحب الذي استولى على قلبه وسائر جوانحه استيلاء عظيماً حتى كان يتسابق إليه غير مبال بجموع أعدائه مهما كثرت وقوة جنده مهما قلت ، وان محاولته فتح مصر بأربعة آلاف مقاتل أو أقل لأقوى دليل وأسطع برهان على صحة ما نقول .

وكان عمرو من دهاة العرب المشهورين ، وقد قرأت صحف دهائه عند النجاشي حين أوقع بعمارة بن الوليد ، وانظر كيف أوقع التفريق في صفوف علي في موقعة صفين وقد أشرف جيش علي على الانتصار ، وكيف تغلب بما أوتيته من ضروب الحيل وفنون الدهاء على أبي موسى عند عقد التحكيم وغير ذلك من أخباره في الدهاء التي يقف أمامها المرء حائراً لهذا

العقل البشرى والذكاء الأنساني الذى ذلّل أمثال تلك الصموبات وفك أعقد العقد حتى هدّت حيله عزائم الجحافل فتبددت آمال الرجال وأقطاب السياسة. ومما يدل على دهائه أيضاً ما روى عنه أنه عند استيلائه على مصر كان يتنكر ويخرج وحده متشبهاً بالرجل من عامته ليرى ما عليه القبط من النية للمسلمين، فتمادى به السير راجلاً حتى لحق بطرف الفسطاط فرأى جماعة قد التأبت على سوء منه فقال لهم «إعملوا بي كل ما تؤثرن من السوء ولا تردوني إلى يد الأمير فأنى هربت منه» فقال بعضهم ردوه فإنه يقتله ويكون لكم بذلك عارفة عند الأمير» فساقوه إلى دار الامارة فأخذ يتضور ويتأبى في سياقته حتى قرب من الدار، فقام إليه الشرط فقال «لا يفوتكم منهم أحد، فجمعوا له عن آخرهم».

وكان عمرو من شيوخ قریش فى الجاهلية، فلما أسلم أثر الإسلام فى نفسه فاقتلع منها كثيراً من رذائل الجاهلية، فألبست تلك النفس ثوب الفضيلة وتجلت عن حسن خلفه مما كان له نصيب وافر فى تقدم الإسلام وانصرته، فأصبحت نزاعة إلى مكارم الأخلاق فتجلى فيها الحلم وطهارة السريرة والرجوع إلى الحق وتكفيره عن خطئه بأجلى مظاهرها، يدلك على ذلك ما رواه ابن عساکر عن الشعبي عن قبيصة قال «صحبتُ عمرو ابن العاص فرأيت أئين طريقاً ولا أكرم جلساً ولا أشبه سريرة بعلاية منه.» وما رواه أبو المحاسن أنه تصادف أن وقع بين عمرو والمغيرة بن شعبة كلام فاستشاط عمرو غضباً وقال له: «يا آل هصيص أتسبني؟» فقال له عبد الله ابنه «إن الله دعوت بدعوة القبائل وقد نهى عنها!!»، فندم عمرو على ما فرط منه وكفر عن خطئه بأن أعتق ثلاثين رقبة. وقد كان تقياً خفياً

عقاب ربه وخاف هول اليوم الآخر فتمنى لو سلبه الله ماله أو أثكله ولده أو نزع منه سلطانه رجاء عدم تعذيبه بالنار. روى عن ربيعة عن لقيط قال : سمعت عمرو بن العاص يصلى بالليل وهو يبكي ويقول: «اللهم آتيت عمراً مالا فأنا أحب إليك أن تسلب عمراً ماله ولا تعذبه بالنار فاسلبه ماله، وإنك آتيت عمراً أولاداً فأنا أحب إليك أن تشكل عمراً ولده ولا تعذبه بالنار فاثكله ولده، وإنك آتيت عمراً سلطاناً فأنا أحب إليك أن تنزع منه سلطانه ولا تعذبه بالنار فانزع منه سلطانه » .

ونعتقد أن هذا كان في آخر أيامه حين مرت به ساعة حاسب فيها نفسه على ما أتى في أيام الفتنة بعد أن سكنت النفس وثاب إليها الرشد وعلم أن الله تعالى سائله عما احتجب في دنياه فعاد على نفسه باللوم وتمنى الخروج من كل ما أوتى إذا كان ذلك كفارة عما غمس يده فيه ، وهو ندم ظاهر تُرجى معه المغفرة لمن يقبل المثوبة من عباده ويعفو عن السيئات إنه هو التواب الرحيم.

وكان عمرو لطيف الأخلاق طيب الفكاهة ، أراد معاوية أن يختبر بديهته يوماً فقال عمرو « أخرج من عندك » فأخرجهم معاوية فقال عمرو « يا أمير المؤمنين أسارك » فأدنى معاوية رأسه منه فقال عمرو : « من معنا في البيت حتى أسارك ؟ »

أما سياسة عمرو فلم تخف على العرب في جاهليتهم قدرته فيها فندبوه ليكون رسوله إلى النجاشي ، وندبه النبي صلى الله عليه وسلم بعد إسلامه ليكون رسوله لدى ملك عمان ، ولا يعزب عن بالنا حسن سياسته في

مصر وكيف ألف بين قلوب المصريين واستمالهم إليه وسار معهم على نهج العدل وسمى في ترفيه حالهم وترقية شؤونهم ورعى معهم حرمة العهود والمواثيق، وإن ذكرى موقعة صفين لا تزال ترجف لاسمه هيبة - تلك الموقعة التي أشرف فيها جيش عليّ على الانتصار فلم يثن ذلك من عزيمة عمرو، وسرعان ما ابتكر من ضروب الحيل ما أوقع بجند عليّ فانقسموا على أنفسهم وغلبوا على أمرهم، وقد كان من وراء تلك السياسة ما فصلناه هذه هي نفس عمرو قد حللناها تحليلًا، ونحن نرجو أن نكون قد وفقنا إلى إثبات أن عمرًا قد كان أحسن مثال للعربي في هذا العصر الذي ظهر فيه الأسلام وانتشر وامتدت فتوحه، فكان ممن أعان على ظهوره وانتصاره، وكان من غير شك أحد المؤسسين لدولة العرب التي لن يزال اسمه مقرونا بها.

فرحم الله عمرو بن العاص رضى الله عنه ورحم من ترحم عليه.

(انتهت)



مصادر الرسالة

تنقسم أهم المصادر التي رجعنا إليها في رسالتنا إلى قسمين : عربية وإفريقية
ومن المصادر الأفرنجية : الانجليزى والفرنسي .

(١) المصادر العربية :

اسم المؤلف	اسم الكتاب
ابن الأثير	: الكامل في التاريخ . طبع مصر سنة ١٣٠١ هـ
ابن الزيات	: الكواكب السيارة في ترتيب الزيارة
ابن اسحق	: فتوح مصر وأعمالها . مصر سنة ١٢٧٥ هـ
ابن برهان الدين	: السيرة الحلبية . ثلاثة أجزاء
ابن حجر	: الأصابة في تمييز الصحابة . مصر سنة ١٣٢٣ هـ
ابن خلدون	: العبر وديوان المبتدا والخبر : بولاق سنة ١٢٨٤ هـ
ابن خلكان	: وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان . مصر سنة ١٣١٠ هـ
ابن دقاق	: الأنتصار لواسطة عقد الأماص . القاهرة سنة ١٨٩٣ م
ابن طباطبا	: الفخرى في الآداب السلطانية والدول الإسلامية . مصر سنة ١٣١٧ هـ
ابن عبد الحكم	: فتوح مصر : طبع بمجلس المعارف الفرنسي
ابن عبد ربه	: العقد الفريد : ٣ أجزاء
ابن قتيبة	: (١) كتاب المعارف (٢) الأمانة والسياسة
ابن هشام	: سيرة ابن هشام : مصر سنة ١٣٢٩ هـ .
أبو الفرج	: مختصر تاريخ الدول : بيروت
أبو المحاسن	: النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة : لندن سنة ١٨٥٩ م
البلادري	: فتوح البلدان : القاهرة سنة ١٣١٩ هـ
البغدادى	: سبائك الذهب في معرفة قبائل العرب . بغداد سنة ١٢٨٠ هـ

﴿ مصادر الرسالة ﴾

اسم المؤلف	اسم الكتاب
الأصفهاني	: كتاب الأغاني : مصر سنة ١٣٢٣ هـ .
الألوسي	: بلوغ الأرب في أحوال العرب : بغداد سنة ١٣١٤ هـ
الخضري بك	: تاريخ الأمم الإسلامية
رفيق العظم بك	: أشهر مشاهير الإسلام في الحرب والسياسة : مصر سنة ١٣٢١ هـ
السيوطي	: حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة : المطبعة الشرقية
الشهرستاني	: الملل والنحل : مصر سنة ١٣١٧ هـ
الطبري	: الأمم والملوك : المطبعة الحسينية المصرية .
عبد اللطيف البغدادي	: الافادة والاعتبار في الامور المشاهدة والحوادث المعاينة بأرض مصر
على مبارك باشا	: الخطط التوفيقية : بولاق سنة ١٣٠٦ هـ
القلقشندي	: أبو العباس احمد : صبح الأعشى : المطبعة الاميرية
القلقشندي	: محمد بن عبد الله : نهاية الأرب في معرفة قبائل العرب : خط يد
المبرد	: الكامل في اللغة : طبع لايبسك
المرحوم محمود فهمي	: مصر في عهد الرومان : مصر سنة ١٩١٦ م
المسعودي	: مروج الذهب ومعادن الجوهر : بولاق سنة ١٢٨٣ هـ :
المقريزي	: المواعظ والاعتبار في ذكر الخطط والآثار : مصر سنة ١٢٧٠ هـ
وستنفلد	: تاريخ مكة . لايبسك سنة ١٨٦١ م
ياقوت	: معجم البلدان . مصر سنة ١٣٢٣ هـ .
الواقدي	: فتوح الشام : مصر سنة ١٣٠٢ هـ
اليعقوبي	: تاريخ اليعقوبي . لندن سنة ١٨٨٣ م

(ب) المصادر الافرنجية :

اسم المؤلف

اسم الكتاب

Ameer Ali, Syed: A Short History of the Saracens, London, 1891.

Amélineau : (a) Fragments Coptes, Journal Asiatique, 1888

« (b) Géographie de l'Égypte à l'Époque Copte ,
Paris, 1893.

Butler, Alfred J. : (a) The Arab Conquest of Egypt, Oxford, 1902.

« (b) Babylon of Egypt : Oxford, 1914.

Bury, J. B. , : History of the Later Roman Empire, London, 1899.

Caussin de Perceval, A. P. , : Essai l'histoire des Arabes avant
l'Islamisme, pendant l'époque de Mohamet.

Gibbon, Edward : The History of the Decline and Fall of the
Roman Empire.

Huart, C. L. , : Histoire des Arabes, Paris, 1913.

Irving, Washington : A History of the Lives of the Successors
of Mahomet, London, 1912.

Lane-poole, Stanley : A History of Egypt in the Middle Ages,
London, 1901.

Le Bon, Justave : La Civilisation des Arabes, paris, 1884

Marce', M. J. J. , : Égypte, Depuis la Conquête des Arabes, Jus-
qu' à la Dominion Française, paris, 1848.

Milne, J. Grafton : A History of Egypt Under Roman Rule,
London, 1913.

Muir, Sir William Temple : The Caliphate; Its Rise, Decline
and Fall, Oxford, 1902.

Quatremère, E. , : Journal Asiatique, 1850.

Sébillot, L. B. , : Histoire Générale des Arabes, paris, 1877.

Sharpe, Samuel : (a) Chronology and Geography of Ancient
Egypt, London, 1838. (b) A History of Egypt Under the Ptolemies,
London, 1849.

فهرست الرسالة

الكتاب الاول

عمرو بن العاص من ولادته إلى أن ولي فتح مصر

الصفحة الموضوع
٩ الباب الاول: عمرو قبل أن يسلم

- (ا) قبيلة عمرو : بنو سهم
- (ب) أسرة عمرو : (١) العاص أبو عمرو (٢) النابغة أم عمرو
- (ج) ولادة عمرو (د) تربية عمرو (هـ) احتراف عمرو التجارة
- (و) سفر عمرو الى مصر في الجاهلية

٣٣ الباب الثاني : عمرو منذ أسلم الى أن انتهت حروب الردة

- (ا) إسلام عمرو (ب) احترام الرسول عليه السلام مقدرة عمرو وتنصيبه قائداً لأحد الجيوش (ج) سرية عمرو الى ذات السلاسل
- (د) سرية عمرو الى سواع (هـ) تولية عمرو على الصدقة بعمان (و) عمرو وردة العرب

٤٧ الباب الثالث: عمرو — في فتح الشام وفلسطين

- (ا) كتاب أبي بكر لعمرو وهو بعمان وانفاذه الجيوش لنزو سورية وفلسطين

- (ب) وصية أبي بكر لعمرو بن العاص عند مسيره الى فلسطين
- (ج) شروع عمرو في قتال الروم بفلسطين — عمرو بن العاص يقاتل

﴿ فهرست الرسالة ﴾

الصفحة

الموضوع

مائة الف من الروم

- (ء) اشتراك عمرو في وقائع اليرموك ودمشق والاردن
(هـ) عمرو وموقعة أجنادين (و) عمرو وفتح بيت المقدس
(ز) عمرو وهزيمة قسطنطين بن هرقل

الكتاب الثاني

عمرو كزعيم من زعماء الدولة العربية

٦٥

الباب الاول: حال مصر قبيل الفتح الاسلامي

- (١) الحالة الدينية (ب) الحالة السياسية - حال مصر لزاء ما كان بين
الروم والفرس في مصر .

٨٠

الباب الثاني : عمرو وفتح مصر

- (١)(١) كيف عرضت لعمرو فكرة فتح مصر وكيفية مسيره اليها
(ب) شروع عمرو في الفتح واستيلاؤه على العريش (ح) استيلاء
عمرو على الفرما (ء) لاستيلاء عمرو على بلبيس (هـ) استيلاء عمرو
على أم دنين (و) عمرو وغزو الفيوم وواقعة عين شمس (١) غزو
الفيوم (٢) واقعة عين شمس .

٩٩ (٢) حصار عمرو لحصن بابليون ومراسلة المقوقس عمراً بشأن الصلح

- (١) المقوقس (ب) مراسلة المقوقس عمراً بشأن الصلح
(ج) ماهدة الصلح بين عمرو والمقوقس (ء) رفض هرقل الصلح
واستئناف القتال بين المسلمين والروم (هـ) اقتحام الحصن .

١٢٣ (٣) مسير عمرو الى الاسكندرية واستيلاؤه عليها

- (١) استيلاء عمرو على كوم شريك وسلطيس والكريون

﴿ فهرست الرسالة ﴾

الصفحة

الموضوع

(ب) عمرو وفتح الاسكندرية

(ج) عمرو ونسبة حريق مكتبة الاسكندرية إليه

١٥٠ (٤) عمرو وتممة الفتح في مصر .

(١) عمرو وتممة الفتح في مصر (ب) هل فتحت مصر صلحاً أو عنوة

(٥) عمرو وتمتدبت الفتح

(١) عمرو وفتح رقه وطرابلس (ب) عمرو وفتح بلاد النوبة (ح) عمرو

وانتقاض الروم بالاسكندرية - لانتصار عمرو على الروم .

١٦٨ الباب الثالث: ولاية عمرو الاولى على مصر وأعماله الادارية فيها

(١) عمرو ووصف مصر لعمر بن الخطاب (ب) تحول عمرو إلى

الفسطاط وتجهيزه إلى القبط ورده بنيامين إلى كرسية (ج) عمرو

وتأسيس مدينة الفسطاط (١) ما قيل في تسمية الفسطاط (٢) الفسطاط

ودار الأمارة (٣) الخطط التي كانت بمدينة الفسطاط (د) عمرو

وتأسيس الجامع العتيق (هـ) خطبة لعمر في هذا الجامع (و) عمرو

وحفر خليج أمير المؤمنين (ز) عمرو ومقاييس النيل وزيادته (ح) عمرو

وخراج مصر في الاسلام (ط) المسكاتبات التي دارت بين عمرو وعمر

بشأن الخراج (ي) استقرار أمر مصر لعمر (ك) إعترزال عمرو

ولاية مصر

﴿ فهرست الرسالة ﴾

الموضوع

الصفحة

الكتاب الثالث

عمرو منذ اعتزل ولاية مصر إلى أن مات

٢٠٢ الباب الاول : أخبار عمرو مع عثمان

٢٠٥ الباب الثانى : عمرو وسياسته مع على ومعاوية

(١) لماذا انضم عمرو الى معاوية (ب) عمرو وموقعة صفين

(ج) عمرو والتحكيم (١) عقد التحكيم (٢) اجتماع الحكيم وتنازع التحكيم .

٢٣٢ الباب الثالث : ولاية عمرو الثانية على مصر

(١) عمرو وفتح مصر (ب) استكثار معاوية أن تكون مصر طعمة

لعمرو ونشوء الجفاء بينهما (ح) محاولة قتل عمرو (د) بعض أخبار

عمرو ومعاوية (هـ) وفاة عمرو (و) قبر عمرو

٢٤٥ خاتمة القول فى عمرو .

الخرائط

(١) خريطة بلاد العرب فى عهد النبي صلى الله عليه وسلم مبيناً بها

القبائل (٢) فتح الشام وفلسطين (٣) خريطة الوجه البحرى لتوضيح

الفتح الاسلامي (٤) الطريق من العريش إلى تيس .

الصور الشمسية

(١) حصن بابليون والباب الذى خرج منه المقوقس أثناء الفتح (٢) الباب العمومى لحصن بابليون ، وهو الباب الذى خرج منه المقوقس (٣) جزء من أطلال مدينة القسطنطينية جامع عمرو وحصن بابليون والأديرة التى بينهما (٤) جامع عمرو بن العاص .

❖ الأغلط المطبعية وصوابها ❖

ظهرت أثناء طبع الرسالة بعض أغلط مطبعية ، فأعتمد الى حضرات القراء ، وأستطرحتها حتى لا تلتبس عاينهم ، ولو أن كثيراً منها لا يخفى على حضراتهم .
وهاك بيان الخطأ والصواب :

ص	س	الخطأ	الصواب	ص	س	الخطأ	الصواب
١١	١٠	بأشعر	بالشعر	٦١	١٠	حصارهم	حصارها
١٥	٦	جعان	جدعان	٦٨	١٤	ربما	وربما
١٦	٢٠	كلامه سنة	كلامه على	١١٨	٤	المقوقس	والمقوقس
٢٤	٥	ومن هذه	ومن كانت	١٤٠	٢	منايه	مناقية
٢٤	١٧	واللؤلؤ	اللؤلؤ	١٤٩	١	اليصر	قيصر
٢٤	١٨	شرفاً	جواباً	١٧٣	١٥	د	قد
٢٤	١٨	غرباً	شمالاً	١٨٩	١٤	التلـكـب	الكتاب
٣٠	٢٠	وأعلمهم	وأعلمهم	٢١٢	١	ملا	ملاً
٣١	٣	أصحابه	صاحبه	٢٢٢	٦	معاوية	ومعاوية
٣٩	١٣	ومن	من	٢٢٢	٨	ومعاوية	معاوية
٥٩	٢	جتمع	اجتمع	٢٢٨	٥	خالوا	خالقوا
٥٩	٤	إلا الفرنج	إلا أن				

